

إبراهيم عبد القادر المازني

في الطريق

في الطريق

تأليف
إبراهيم عبد القادر المازنى



في الطريق

إبراهيم عبد القادر المازنى

رقم إيداع / ٢٠١٢ / ١٥٤٨٦
تدمك: ٣٨٣ ٦٤١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوى
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	الإهداء
١١	١- التدريب الأول
١٧	٢- الدكان
٢١	٣- الكآبة
٢٧	٤- العقد الضائع
٤٧	٥- الجارة
٥٣	٦- البحث عن الذهب
٥٧	٧- تفيدة
٦٧	٨- الهاوب
٨١	٩- النسيان
٨٧	١٠- فتاة الحارة
٩٣	١١- في رأس السنة
٩٩	١٢- الذى يضحك أخيراً يضحك كثيراً
١٠٩	١٣- عقاب اللّص
١١٥	١٤- ثمن سيجارة
١٢١	١٥- الببغاء والقط
١٢٧	١٦- السيارة المسروقة
١٣٣	١٧- ميمي
١٣٩	١٨- ليلي
١٥١	١٩- حواء والحياة

٢٠ - العقلة

في الطريق

١٥٥

الإهداء

بِقَلْمِ إِبْرَاهِيمَ عَبْدِ الْقَادِرِ الْمَازِنِيِّ

إِلَى «حِيَاة»

في بعض الأحيان أكون جالساً إلى مكتبي قبل طلوع الشمس، وأمامي الآلة الكاتبة أدق عليها وأرمي بورقة إثر ورقة، وإلى جانبي فنجان القهوة أرشف منه وأذهل عنه، فأحس راحتيك الصغيرتين على كتفي فأديرك وجهي إليك، وأرفع عيني لأصبح على بستان وجهك، وأستمد من ابتسامة عينيك النجلاويين، وافتار شعرك النضيد ما أفتقر إليه من الجد والشجاعة، وأدفع يدي فأطووك بذراعي، وأضمك إلى صدرى، وألثم خدك الصابح، وأمسح على شعرك الأثيث المرسل على ظهرك وجانب محياك الوضيء، وأتملي بحسنك وأنشر في كهف صدرى المظلم نور البشر والطلاقة، فتدفعين ذراعك الغضة وتتناولين ببنانك الدقيقة ورقة مما كتبت، وترفعينها أمام عينيك، وتزوين ما بينهما، وتخذين هيئة الجد الصارم، وتقيضين على نفسك السمرة العطوف، وأنت مضطجعة على ذراعي، سمتا وأبهة يغريان بالابتسام، وأنا أنظر إليك وفي قلبي سكينة، وجوى من قربك معطر بمثل أنفاس الروضة الأنف في البكرة الندية. وألح شفتيك الرقيقتين تختلجان وعينيك تلمعان، فتطيب نفسي بسرورك الصامت، ثم أسمع ضحكك الفضية، وأراك تُعطّين وجهك الحلو بالورقة فيستطيعيني الفرح ويستخفنني الجذل، ولكنني أتظاهر بالخوف على الورقة التي لا قيمة لها أن يمزقها أنفك الجميل فترمين رأسك على ذراعي وينسدل شعرك الذهبي المتموج كالستار، وتصافح سمعي من ضحكاتك العذبة موجات لينة. ثم تعتدلين على

ساقى، وتدفعين ذراعيك فتطوقين بهما عنقى، وتجذبين وجهى إليك، ولكنك تشفقين على رقة شفتوك من خشونة خرى فتلثمين أذنى الطويلة — وتعضينها أيضا — فأصرخ، فتثرين إلى قدميك خفيفة مرحة، وترجعين بعد أن خلقت في صدرى انشارا، وفي قلبى رضى، وفي روحي خفة، وفي نفسى شفوفا، وفي عقلى قوة، وفي أملى بسطة واتساعا، وفي خيالى نشاطا، فأضطجع مرتاحا وأغمض عينى القريرة بحبك ثم أفتحها على:

«صيد حرمناه على إغرانا في التزع — والحرمان في الإغراق»

أى والله، لولا الإغراق ما كان الحرمان. وهل هو إلا الشعور به من الإسراف في الرغبة واللجاجة في الطلب؟

بل أفتح العين على جثة صغيرة حملتها بيدي هاتين إلى قبرها، وأنزلتها فيه، ووسدتها التراب بعد أن سويته لها بكفى، ورفعت من بينه الحصى الدقيق ثم انكشفت إلى بيته جامد العين وعلى شفتى ابتسامة متكلفة وفي فمها يدور قول ابن الرومي:

«لم يخلق الدمع لامرئ عبنا الله أذرى بلوعة الحزن»

وتدخل على زوجتى لتحينى تحية الصباح، فأتلقاها بالبشر وال بشاشة، وأهم بأن أحدهما بما كبر في وهمى قبل لحظة، ولكنى أزجر نفسي وأردها عن التعزى باللغط. ولو أنى شرعت أحدهما بشيء من ذلك لما فرغت، فما أخلو بنفسى قط إلا رأيتني أستطيب أن أتخيل فتاتى على كل صورة وكل هيئة وفي كل حالة من حالات الطيش والحكمة، والغضب والسرور، والسطح والرضى، والضحك والبكاء، والعشق والسلوان والنفور والإقبال، والحركة والسكنون، واللعن، والنط، والقفز، والسباحة ... ويحلوا لي أن أنشئ بيني وبينها أحاديث في كل موضوع من جد وهزل، ويسرنى أن أسمع نكتها، وأراني أستلمح فكاها — وأنتحلها فيما أكتب — وأضحك أحيانا بصوت عال، بل أقهقه غير محتشم، فإذا تعجب لي داخل متطرف على في هذه الخلوة المحببة إلى نفسى رفعت له وجهها كالدرهم المسيح، وهربت بالتباله من الجواب الذى يطلبه بعينه أو لسانه، وتركته يظن بعقلى ما يشاء. وماذا أقول له؟ فى وسعى أن أكذب، فما لباب الكذب مفتاح، ولكن الكذب ينبع على المتعة التى استفادتها من الحوار الذى كان يدور بينى وبين «حياة».

وأنت يا «حياة» الجديدة بديل من «حياة» التي فقدتها، لا.. لست بديلاً، ولا أنت عوض عنها، ولا أحس بك يرضيك أن تكوني عوضاً عما لا يُؤتى. وتلك قد ربيتها صغيرة ولدلتها وهي رضيعة بيدي هاتين اللتين أتناول بهما خديك، ولاعبتها وأركبتها ظهرى، وقطعت بها فراسخ طويلة في الغرفة الضيقة، وسقيتها الماء ورأيتها تمص ثدى أمها وهى ذاهلة عن الدنيا وما فيها — وما هو كائن وما عسى أن يكون — ونحن ننظر إليها مسرورين مستغرقين مفتونين ببهيئتها، وهى مقبلة على الثدى، ويدها الدقيقة على الثدودة، وأصابعها تتحرك في لطف وعلى مهل، مستظرفين شفتها المثنية على سواد الثدى حول الحلمة وهى مكبة على الرضاعة.

ولكن فيك مشابه منها. وأنا أغالط نفسي وأزعم أنها لو كتب لها البقاء لما عدتكم. ولست تجلسين على ساقى في الصباح الباكر — كما تفعل تلك فيما أتخيل — ولكنك تقرأين ما أكتب — بعد أن ينشر — وأراك يسرك أن تسكنى إلى، سكون الطائر إلى وكره. وهل هذا كل شيء؟ لا آدرى.. وأظن — بل أنا واثق — أنك تفهمين ما أعنى حين

أقول إنك فصل من كتاب حياة.
وهل أحتج أن أقول أن اسمكما ليس «حياة».

الفصل الأول

التدريب الأول

«ألا تنوى أن تعلمى قيادة السيارة؟»؟

قلت: «إنى أتโนى أن أعلمك أشياء كثيرة.. في أوانها».

قالت: «مثـلـ؟ وـأـمـالـ رـأـسـهـا الصـغـيرـ وأـلـقـتـ إـلـىـ اـبـتـسـامـةـ — أـعـوذـ بـالـلـهـ مـنـ سـحـرـهـاـ».

فـبـلـعـتـ رـيـقـىـ، وـقـلـتـ: «أـوـوـوـهـ أـشـيـاءـ كـثـيـرـةـ كـمـاـ قـلـتـ: مـثـلـ الرـقـةـ وـالـلـطـفـ وـالـلـيـنـ

وـحـسـنـ الـمـواـتـاـةـ ... أـشـيـاءـ كـثـيـرـةـ».

قـالـتـ وـعـلـىـ فـمـهـاـ — وـفـيـ عـيـنـيـهـاـ — اـبـتـسـامـةـ المـتـسـامـحـ: «أـلـاـ تـرـانـىـ لـطـيـفـةـ؟ـ»ـ.

قـلـتـ: «عـفـواـ.. إـنـمـاـ أـعـنـىـ أـنـ هـذـهـ الـمـسـائـلـ نـسـبـيـةـ، فـقـدـ تـكـونـينـ فـيـ الـوـاقـعـ أـلـطـفـ فـتـاـةـ

تـزـينـ هـذـهـ الـكـرـةـ الـأـرـضـيـةـ بـجـوـودـهـاـ.. وـقـدـ أـكـوـنـ أـنـاـ لـاـ أـحـسـ ذـلـكـ وـلـاـ أـعـرـفـهـ، لـبـلـادـةـ فـيـ أـوـ..

جـهـلـ.. أـوـ..»ـ.

فـأـشـارـتـ بـكـفـهـاـ وـقـلـتـ: «يـكـفـىـ.. سـأـحـاـوـلـ أـنـ أـكـوـنـ لـطـيـفـةـ مـعـكـ، فـكـنـ لـطـيـفـاـ وـقـلـ لـىـ

مـتـىـ يـكـوـنـ الدـرـسـ الـأـوـلـ؟ـ»ـ.

قـلـتـ: «الـآنـ.. تـعـالـىـ.. ضـعـىـ هـذـاـ الـمـعـطـفـ عـلـىـ كـتـفـيـكـ»ـ.

فـأـوـلـتـنـىـ ظـهـرـهـاـ لـأـضـعـ عـلـيـهـ الـمـعـطـفـ، وـكـانـتـ تـنـظـرـ إـلـىـ وـأـنـاـ أـفـعـلـ ذـلـكـ بـبـطـءـ.

وـانـحـدـرـنـاـ إـلـىـ الـطـرـيقـ وـرـكـبـنـاـ، فـقـالـتـ وـأـنـاـ أـهـمـ بـالـمـسـيرـ: «أـلـاـ تـلـبـسـ الـمـعـطـفـ؟ـ إـنـ الـجـوـ

بـارـدـ»ـ.

فـهـزـزـتـ رـأـسـيـ وـقـلـتـ: «كـلاـ.. سـأـنـصـبـ عـرـقاـ بـعـدـ دـقـائـقـ — بلـ ثـوانـ — منـ اـبـتـداءـ

الـدـرـسـ الـأـوـلـ، وـلـكـنـ تـعـرـفـيـنـىـ.. لـاـ أـهـرـبـ مـنـ الـوـاجـبـاتـ مـهـماـ كـلـفـتـنـىـ»ـ.

وـقـالـتـ: «هـلـ هـذـاـ وـاجـبـ شـاقـ؟ـ»ـ

قـلـتـ: «سـتـرـيـنـ»ـ... وـلـمـ أـزـدـ.

ووقفنا في مكان خلوى رحيب لا خوف فيه من أن ندوس طفلاً أو نصطدم بشيء، فقلت لها بلهجة الجد: «اسمعي من فضلك.. الآن يبدأ الدرس، التدريب الأول.. فاذكري دائمًا أن هذا درس وليس بلعب.. اسمعي الكلام وافهميه واعمله ولا تحوجيني إلى شد شعرك أو قرص أذنك أو خدك».

وكانت تبتسم حينما شرعت أتكلم، فلما رأيتها جاداً لا أضحك ولا يبدو علىَّ أنها أمزح، صارت الابتسامة كنور القمر المرتعش على صفحة الغدير الصاف، فرق لها قلبي، ولكنني تحاملت على نفسي وغالبتها وحدثتها — أعني نفسي — بأن كل شيء خلائق أن يفسد إذا لم أظهر الجد.

وقالت بضعف: «إنى مصغية».

قلت: «هذا حسن.. ابتداء طيب.. والآن، ادئي مني.. التصقى بي».

قالت: «لماذا؟

قلت: «لتناولى العجلة وتتدربي على إدارتها بالضبط والإحكام الواجبين». فحاولت أن تتناولها من غير أن تلقى بجسمها على صدرى، وكان هذا متعدراً. وأدركت أنها متعددة، فقلت: «بالطبع ستزهق روحي وتتقصف أضلاعى وتحبس أنفاسى.. ولكن هذا لا مفر من احتماله».

قالت: «صحيح؟

خففت أن تدفعها الرقة والإشراق على، إلى إثمار العدول فقلت: «إنَّ في قولى هذا بعض المبالغة ولا شك، ولكنني أعني أنه إذا كان لأحد منا أن يتعدد أو يخشى شيئاً.. فإنى أنا الخلائق بذلك».

فظلت أني غضبت أو أنَّ ترددتها جرح إحساسى وألمنى، فقالت: «إنَّ آسفة». فابتسمت لها صافحاً عنها. وقلت: «تفضلى..» وتناولت كفيها فوضعتهما على العجلة وأنا أسأل الله أن يلهمنى القوة ويرزقنى القدرة على مقاومة هذا الإغراء. وصار كتفها على صدرى، وشعرها على وجهى، وأرجُه فى أنفى، وصفحة خدتها الغض المشرق تحت عينى.. فلو مطلت بوزى قليلاً للمسته شفتاي. وسرنا خطوات ترنحت فيها السيارة كأنها سكرى، وأحسب أن لها — أعني للسيارة — عذرها.. فما لست عجلتها كف بهذه، رخصة بضعة دقيقة.. وكانت أنظر إليها، فأشعر أنى أوشك أن أرتد إلى عصور الاستيقاش، وأحس أنى أريد أن أكلها لفترط حلوتها، ولم أكن أحس — وهى على صدرى — أن في بدنها عظاماً من فرط الرقة والطراوة. وكان شعرها يدير رأسى ويسكرنى بعطره الطبيعي. وكانت يدى اليمنى على كتفها، فكنت بجهد أردها عن ضمها إلىَّ.

وقلت لها — وقد وقفت قليلاً لنستريح، فقد كانت جلستها متعبة: «لن تستطعي
أن تختفي عنى بعد اليوم كما فعلتِ من قبل»
قالت: «كيف؟ مازاً تعنى؟»؟

قلت: «لا أظنك تعرفين ما أعني، فمن حرك أن تسألي وتعجبني.. لقد انتقلت فجأة من بيتك فأصبحت يوما فإذا أنت غير موجودة حيث أفت أن أراك.. لا أدرى كيف تستنى لك أن تنتقل من بيتك إلى بيتك من غير أن أشعر بذلك ونحن جاران متقابلان.. ولكنك نجحت.. غافلتنى، واختفيت».

فقالت: «علي فكرة.. كيف اهتدي إلى البيت الجديد؟»

قلت: «أوه.. هذه حكاية طويلة.. رأيت أخاك فتبعته من حيث لا يشعر.. لو كنت شمنت شعرك كما شمنتهاليوم.. لما احتجت إلى أخيك أو غيره».
فضحكت وقالت: «لم أكن أحسب أنك..» وأمسكت.

فقلت: «قوليها.. ولا تخشى أن تسيئي إلى». نعم، إن في بعض خصائص الكلاب.. ومن يدرى، لعل الله كان ي يريد في أول الأمر أن يخلق من طينتي كلبا ثم بدار له أن هذه الطينة لا تليق بكلب فصنع منها هذا الإنسان الذي يجلس إلى جانبك. ومن هنا بقيت لي حاسة الشم في الكلاب، ولكن قوتها في شيء واحد.. ما شممت شعرا إلا بقيت رائحته في أنفني.. ولو أنك وقفت بين عشرين فتاة وعصبت لي عيناي لاستطعت أن أهتدى إليك وأخرجك من بينهن لأنفني.. بمجرد شم الشعور».

فدهشت وقالت: «هل تتكلم حادا؟»

قلت: «في وسرك أن تجريبي. هاتي عشرين فتاة.. وأرسل ليهن شعورهن وقفى بيتهن وضعى على عينى ما شئت.. ودعينى أشمكتن. نعم، في من الكلب هذا.. وليت لي منه مزاياه الأخرى.. بل ليتنى كنت كلك على الخصوص».

فضحت وقالت: «ولماذا؟ لا تخاف أن تتكلم فإن حديثك لذيد».

قلت: «أشكرك.. لو كنت كلبك لكان من حقى المعترف به مثلًا أن أقعد بين يديك في حيث تكونين. لا أحرم ذلك ولا يستطيع أحد أن يقصينى عنك، ولو حاول أحد ذلك لغضضته ومزقت ثيابه ولحمه ولأدبته.. نعم.. ولكن من حقى أن أضع رجلى على.. على.. في حرك.. وأحس لك وجهك كلما شئت ذلك وأشتھيتك.. معذرة فإن الكلب لا يحسن التقبيل.. وهذا هو البديل عنده من القبل.. ولو كنت كلبك يا فتاتى الجميلة لكنك حارسك الأمين، وفارسك الذى لا يقصر ولا يغفل ولا يسهو.. ولو كنت كلبك لكان من حقي على الأرجح — فإنك رقيقة القلب — أن أنام على سريرك..».

فصرخت ووضعت راحتها على فمى فضحتك، وقلت: «لا تخاف فإنى لم أصر كلبا مع الأسف.. أبي الحظ هذه النعمة على المسكين الذى هو أنا.. واستأنفنا الدرس وعدنا إلى التدريب، وأقبلنا على ذلك بعزم لا يفتر وإرادة لا تلين أو تضعف، ثم وقفنا وأراحنا يديها وتنهدت وقالت: «تعبت».

قلت: «إنى آسف.. استريحى».

فسألتني: «هل تعبت أنت أيضاً؟

قلت: «كلا.. إنما تعبت من التفكير».

قالت: «في أى شيء كنت تفكّر؟

قلت: «هل تصدقينى إذا أخبرتك؟

قالت: «لم لا أصدق؟ هل هو شيء غريب جداً؟

قلت: «نعم.. جداً.. لقد كنت - وأنت على صدرى - أشتتهى أن أمرغ نفسي في هذه الرمال وأن أعودى كالكلب».

فضحتك حتى تررق الدمع في عينيها، وقالت بعد أن وجدت لسانها: «ولكن لماذا؟.. إن هذا شيء غريب».

قلت: «لا غرابة على الإطلاق.. ألم أقل لك: إن في من الكلب خصائص.. أشتتهى أن أفعل ذلك عسى أن تصنعني معي ما كان يمكن أن تصنعني مع كلبك.. تحمليني بين يديك.. عل ذراعيك.. وتدنين فمك الدقيق من وجهى وتقبلينى فألاعبك وأضع يدى على كتفك وأنظر في عينيك وأمسح خدى بخدك.. على فكرة.. وقبل أن أنسى».

فتركت الضحك، وأقبلت على تسألنى: «نعم...».

قلت: «هل تستطيعين أن تخبرينى أو تبينى لي كيف يسعك أن تأكل؟؟؟

فاستغربت، وقالت: «لست أفهم.. لماذا تظن أنى لا أستطيع أن أكل؟؟؟

قلت، وأنا أوضحك: «هل تسمين هذا فما؟ أنه أدق من أن يتسع لأصغر لقمة.. يصلح أن يكون قرنفلة أو ما يشبه ذلك».

فقطاعتنى، وقالت: «والآن اسكت قليلاً.. لقد دار رأسي.. لماذا تتكلم هكذا؟؟؟ فهممت بأن أقول شيئاً ولكنها أراحت كفها على شفتي فلثمتها، فابتسمت وقالت: «لقد كنت أفكر في جزاء لما علمتني وقلت لي لتملأنى غوراً.. ولكنك أفسدت كل شيء.. أخذت جزاءك بنفسك».

قلت: «لا.. لا.. نمسح القبلة».

التدريب الأول

قالت: «كيف يمكن»؟

قلت: «هكذا.. بشفتي».

فأطربت قليلا، ثم رفعت رأسها وقالت: «لو سألتك عما تحب أن يكون جزاؤك مني، ماذًا كنت عسى أن تطلب؟ أفهم أن هذه مسألة نظرية بحت».

قلت: «الجواب حاضر.. وما أظن بك ألا أنت تعرفينه.. وهل هو ألا أن تعذّيني كلبا لك»؟

قالت: «هذا سهل».

فصحت مسرورا وأنا لا أكاد أصدق: «إيه»؟!

قالت: «لا تتعجل.. على مهلك.. لا تنس أن كلامنا كله نظري».

فارتددت وتنهدت أسفًا محزونا، فقالت وهي تربت لي على كتفى: «لا تحزن يا كلبي العزيز.. أنت كلبي.. ألم تقل ذلك»؟

قلت: «نعم.. ولكن الكلب له مزايا.. لا تنسى ذلك».

قالت: «يسجن أن تتدرب عليها التدريب الأول...».

فقطاعتها وصحت بها: «لا.. لا.. إنني طول عمري كلب متدرّب من زمان.. كلب عتيق.. والله».

وضحّكتنا ...

وافترقنا على موعد للتدريب الثاني.

الفصل الثاني

الدكان

وقفت «جليلة» لا تدرى ماذا تصنع، فقد انغزرت إحدى العجلتين الخلفيتين في الرمل وأبىت أن تخرج منه.. وعجز المحرك عن جذبها، بل كانت العجلة تزداد غوصا كلما حاولت نزعها. وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ولم يجد أحد في الأفق، وكان الكشك الذي وقفت عنده منذ لحظة تشرب «الكاوزة» يبعد مسافة كيلو ونصف أو اثنين، فليتها ما جاوزته إلى هذا المكان القفر.. ولكنها أرادت أن ترى الطيارة الشراعية من مكان قريب والأرض بعد «الكشك» غير ممهدة. ولكن عنااء السير فيها محتمل ولا خوف من الغوص. وقد طوافت من قبل في أرجاء هذا الفضاء الرحيب. فهي تعرف صلابة الأرض ولا تخشى رخاوتها، غير أن الحظ خانها في هذه المرة.. فما كادت تقف بالسيارة وتتنأى عنها قليلا ثم ترجع، حتى ألت العجلة قد غاب نصفها في الرمال الخائنة. وكان تلاميذ الطيران الشراعي بعيدين عنها بعد «الكشك»، فهل ترك السيارة وتعود أدراجها إلى الكشك تتلمس من صاحبه المعونة، وتسأله أن يدعو إلى نجاتها بعض خفرائه؟.. لم يبق من هذا مفر على ما يظهر، وإلا صار خطبها أدهى بعد الغروب. وصح عزمها على ذلك، فأقبلت على السيارة تريد أن تأخذ منها حقيبتها وقبعتها وإذا بصوت يقول لها: «اسمحى لي...».

فالتفتت مذعورة.. فما سمعت وقع قدميه وهو مقبل عليها ولا رأته، وإن كانت قد دارت بعيتها في المكان ونفضته قبل أن تنوى الرجوع إلى «الكشك». ولم يسألها الرجل شيئا ولم ينظر إليها بل انطرح على الرمل بثيابه الأنثقة بعد أن ألقى طربوشة في السيارة، وراح يجرف الرمل بيده من خلف العجلة وقدمها.. ولما فرغ من ذلك ووسع للعجلة نهض ومشى مطروقا ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شيء، ثم انحنى وتناول حبرا كبيرا ولوحا من «الصالح» وعاد بهما فوضع الحبر خلف العجلة واللوح

أمامها وتحتها، ليكون دورانها عليه لا على الرمل. ثم نهض مرة أخرى، وقال: «أظن هذا يكفي.. فلنجرب على كل حال».

قالت: «أشكرك.. لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم تتجدني؟» فأشار بيده، وقال: «أجل الشكر حتى أستحقه.. إن العجلة المسكينة لا تزال غائصة، فلننقذها أولاً».

ومضى إلى آخر السيارة، وقال: «أدبرى المحرك وسيري بها، وسأدفعها من الخلف». ففعلت وخرجت السيارة ثم وقفت على مسافة أمتار، ونزلت منها جليلة متلهلة الوجه فصاح بها: «لماذا وقفت.. هل حدث شيء؟» قالت: «لا.. إنما جئت لأنشرك».

ففرك يديه ومد يمناه إليها، وقال: «آه صحيح.. صار الشكر الآن واجباً. أليس كذلك؟»

فضحكت وسرها منه أنه لا يبدو عليه أنه يريد شكرها، وأنه كان يتضرر منها أن تمضي عنه بلا كلام.

وقالت، وهي تبتسم له في عينيه: «ألا ت يريد أن أشكرك؟» فقال وهو ينفض الرمل عن ثيابه: «كلا.. إنه دين قديم أؤديه.. بعضه على الأقل.. فغاضت الابتسامة، وقالت مستغربة: «دين؟ لي أنا؟ ولكنني لا أذكر أنني أعرفك.. لا مؤاخذة..».

قال: «صدقيني حين أقول لك: إنه يسرني أن أراك ناسية.. إنها ذكرى خليقة إلا تثير في نفسك إلا الامتعاض والنفور بل المقت.. فالحمد لله».

فبدت منه مقدار خطوة، وقالت: «ولكن أرجو أن تريحني.. هل تعرفني؟» قال: «أعرفك؟ أظن ذلك.. وإن كنت لا أكتنك أنني نسيت اسمك. انتظري.. ورفع كفه الكبيرة الخليفة إلى جبينه.. اسمك يا ستي.. غريب أن تبقى الصورة كل هذه الأعوام ويذهب الاسم.. أوه.. جما.. جميلة.. وجذته.. جليلة.. أليس كذلك؟» فصاحت: «نعم.. نعم.. ولكنني آسفة لأنني لا أذكرك أبداً.. لا صورتك، ولا اسمك..».

قال بابتسام: «انهما جديران منك بالنسیان».

فألحت عليه أن يذكر لها اسمه، فقال: «هذا لغز سأترك لك حله وأنت عائدة».

فابتسمت، وقالت: «ألا تخشى أن أشغل به عن الطريق وما فيه فتتحدث لي حادثة؟»

قال: «صحيح.. صحيح.. إذن لم يبق لي مفر من التضحية. سأخسر ما صرت جديراً به من الشكر، وأسترد سخطك القديم».

فسألته وهي تضحك: «هل كنت فظيعاً إلى هذا الحد» فقال: «ستعرفين مبلغ فظاعتي حين تعرفين اسمى.. مراد البارونى». فأطرقتك، وقالت على مهل: «مراد.. البارونى.. (وهزت رأسها) كلا.. إن ذاكرتى لا يختج فيها شيء.. آسفة».

قال، وهو يضحك: «أما أنا فإن ذكرك يقشعر لها بدنى، فما أستطيع أن أنسى أنك صبيت على ماء قربتين من الماء في الشتاء. سلطت على خرطوم الحديقة وأطلقت على ماءه.. أهذه ذكرى تنسى؟ ألسنت معذوراً إذا ظللت متذكرة؟» فدنت منه، وقالت بصوت خافت كالهمس: «مراد؟ صحيح...». قال: «وكنت ظالمة لي...».

قالت: «كلا.. لقد تذكرت الآن، فقد وضعت لي دودة ميتة في قفاي.. الحق أنك كنت فظيعاً».

فأشار بيده إشارة المستنكر: «لا.. لا.. هذا كان سوء تفاهم.. أعني أنك كنت فرغت من اللعب بالدودة، وظننت أنك قد يسرك أن تأخذيها لتلعبى بها.. ولكنني أخطأت فوضعتها لك في قفاك بدلاً من يدك، بل كان الخطأ منك لا مني.. فقد جعلت تجرين خائفة وأنا أجرى وراءك، فلم يسعنى ألا أن أتركها حيث تيسّر لى.. فالذنب ذنبك يا جليلة».

قالت جليلة، وهي تضحك: «أتذكر كيف كنت تصيح بأعلى صوتك كلما رأيتني.. وكيف كنت تجري وراءى وتدبب برجليك كلما أدركتنى فتزيدنى رعباً؟» فقال: «نعم أذكر ذلك.. أذكر كل شيء.. إنه كل ما بقى لي منك.. لقد كنت أصبح وأدبب لأخفى عنك حبي لك».

قالت: «غريب.. أكنت تحبني؟ لقد كان نجاحك تماماً إذن في إخفاء هذا الحب». ونظرت إلى وجهه الذي لوحته الشمس وشعره الذي ظهر فيه الشيب هنا وهناك، وأخذت الصورة القديمة تسترد ألوانها وتبرز معالها شيئاً فشيئاً، ثم قالت: «لقد كبرت جداً.. طولاً وعرضياً.. وتغيرت أيضاً.. من الذي يراك الآن فيذكر ذلك الطفل الشقى الذي كان يسُود عيشه ويُرعبنى كلما ظهر فجأة من وراء شجرة.. أو من تحت الأرض - فيما كان يخيل إلى ماذا صنعت بنفسك كل هذه السنين؟»

قال: «أوه.. ماذا يصنع الناس بنفوسهم؟ يكتبون ويقعون على عمل يشتغلون به.. أنا أيضاً وجدت لي عملاً.. في تجارة رابحة والحمد لله.. وأنت؟»

قالت: «أوه.. كبرت مثالك».

فقططعها وقال: «كلا.. إنك لم تتغيري.. لو كان هنا دود لما خطر لي وأنا أنظر إليك إلا أنا ما زلنا طفلين، ولمهممت بأن أضع لك واحدة في ففاك».

فضحكت وقالت: «لقد صرت مهذبا جدا.. لم يبق شيء من ذلك الطفل اللعين.. غريب أن تلتقي هنا هكذا بعد كل هذه السنين.. ماذا كنت تصنع؟ أعني هنا». قال: «أتمشي.. للرياضة».

فتتبهت، وقالت: «إذن لا أقل من أن أحملك معى في السيارة».

وقال وهو يركب معها مسرورا: «ما قولك.. نحتفل بهذا اللقاء الذى لم يكن لي ولا لك فيه حساب، بالعشاء نتناوله في محل الحاتى.. هه؟»

فابتسمت لنفسها في مرآة السيارة وأصلحت شعرها الذي عبث به النسيم، ثم التفت إليه وهزت رأسها أن نعم.. ثم انطلقت تخطف بسيارتها الأرض.

ولم يكن في جليلة خفة أو طيش، ولكنها كانت فتاة وحيدة مدللة.. ورثت عن أبيها قسوة القلب واستقلال الطبع، وعن أمها سرعة الاستجابة لدعاعي الخير. وقد مات أبوها قبل سنوات، فلم يبق لأمها سواها ولم تهمل تربيتها.. ولكنها كان ينقصها حزم زوجها وحكمته، فألفت لها الحبل على الغارب وهي تحسب أنها لا تعدو ما كان يصنع أبوها. على أن الفتاة لم يكن فيها سوء ولم تثمر الحرية شرا، وإنما أكدت استقلالها وأورتها تمردا صريحا على كل قيد من القيود التي يفرضها العُرف حتى على الفتاة الحديثة. وكانت أمها وبعض أهلها يشق عليهم ذلك أحيانا، فتقول لهم إنني لا أفعلسوءا، ولا أسيءأدبي، ولا أتوقع على أحد، ولا قيمة لخروجى وحدى، أو مرفقة أصحابي وصوابحى إلى السينما أو غيرها.. وكانت أمها تسكت ولا تقول شيئا لعلمها أن الكلام لا خير فيه.

ولم تكن جليلة بارعة الحسن، ولكن صوتها كانت له حلاوة التغريد.. وكانت نظرتها الحالمه تفعل فعلين يبدوان متناقضين: تتعش القلب وتفتر الجسم، فإذا أدامت إليك كرة الطرف – على عادتها إذا سرها منك عمل أو قول – شاع الرضى في نفسك وفاضت بالسرور، ودار رأسك، وأحسست بالخذر في أعصابك. وكانت أقرب إلى القصر منها إلى الطول، وإلى الامتناع منها إلى النحافة والهزال، وقد حمتها كثرة الحركة والولع بالمشي في الهواء الطلق، وفطام النفس عن الأطعمة الدسمة الثقيلة، أن تصبح كأمها أكدادا من اللحم تلح على روحها. وكانت سمراء، ولكن سمرتها مشربة حمرة لا كدرة

فيها ولا نمش. وكان شعرها جداً وأثيثاً.. وكانت تفرقه وترسله إلى الوراء وتعقصه وتتأبى أن تقصه. كانت أنيقة بلا تكاف، ولم تكن رقيقة الحال أو مضطربة إلى حسن التدبير والاقتصاد. فقد ترك لها أبوها الحازم ثروة كافية، ولكنها كانت تؤثر أن تصنع ثيابها بيديها، فتجيء محبوبة التفصيل على قدها الجميل يبرز من تحتها ثدياتها الناهدان الراسخان كالرمانتين الصغيرتين. وكانت مجدولة الساقين لا عظيمة العضلة ولا مضطربتها ولا عرقوب لها. وجمال الساق في المرأة يشير بحسن القوم.. وكانت تكره الأحذية العالية الكعقوب نفوراً من بروز الفخذين. على أن هذا كلّه ما أكثر من يشاركتها فيه، ولو اقتصر الأمر على التكوين المادي لما كانت لها مزيه تنفرد بها، ولكن أنوثتها كانت قوية الجذب شديدة الإغراء.. فلولا استقلالها وشخصيتها لما استطاعت أن تنجو من المعاطب.

وقال مراد وهو عاكف على البيان الذي قدمه إليه الخادم: «معذرة، فإني أتضور جوعاً.. لم أكل في نهارٍ شيئاً. ماذا تريدين.. كتاب.. لحم رأس.. حمام؟ إنى أرى الحاتى عنده كل ما يؤكل.. لا الكتاب وحده.. ما قولك؟»

فأثرت الكتاب، وقالت: «إن هذا فنُّ الذي يمتاز به، فيحسن أن أفتصر عليه». وكانا جالسين في آخر القاعة ووجهها هي إلى الباب ووجهه إلى الناس. وشغلها برهة بالأكل وذكريات الطفولة، فقال لها وهو يضطجع: «أتذكرين يوم تحديتك أن تتسلقي النخلة؟ (فهذت رأسها) لقد كنت لا تطيقين التحدى.. فهل أنت ما زلت كذلك؟» فوضعت الشوكة على الطبق، ونظرت إليه وسألته: «ماذا تعنى؟»

قال بابتسام: «أعني أن وراءك.. بعد مائتين اثنتين.. رجلين أحدهما يحدق في ظهرك، لا يخالجني شك في أنك تحسين وقع نظراته على جسمك.. إنها نظرة حامية.. كاوية.. انتظري قليلاً وسأدعوك الخادم ليجيئنا بالقهوة، فأديري وجهك حين يقبل وانظرني».

ففعلت ثم اعتدلت في جلستها وقد علا وجهها الاصفار، فأكب مراد على بقية الفاكهة وتشاغل بها عما رأى في وجهها من دلائل التغيير. ولم تفت جليلة هذه الكياسة منه، ووقع من نفسها اتقاؤه الفضول.. فتماسكت وضبطت صوتها وهي تقول: «لقد تغيرت جداً.. من كان يظن أن ذلك الطفل الخبيث الذي كان يتعقبني وينغص حياتي يصبح هذا الرجل الوديع الظريف الكيس؟ أتعرف من هذا يا مراد الذي يكويني بنظراته؟ إنه خطيبى ذكي.. أفهمت الآن؟»

فقال بهدوء وبصوت متزن النبرات: «خطيبك زكي؟ هذه أخبار.. أظن أن من واجبي أن أقدم لك التهنئات».

ولكنها أحست من نبرات صوته على الرغم من اتزانها أن هذا الخبر لم يسره، فقالت: «لا داعي للعجلة.. ثم إن الزواج مسألة عادية جدا على كل حال.. أو كما يمكن أن تقول أنت.. هو شر يصيب كل إنسان.. عاجلاً أو آجلاً.. متى يصيبيك يا مراد؟»

قال: «أنا؟.. لا أدرى.. صاحبك.. أعني خطيبك لا يزال محملقا في ظهرك. فهل تستطعيين أن تنهضي وتذهبى إليه وتقولى له بكل هدوء إن لك حقا في أن تتناولى العشاء مع صديق قديم مثل وضع في طفولته دودة في ظهرك وصبت عليه عشرين قربة من الماء في الشتاء؟»

قالت ببساطة: «إنى أحب زكي.. وأنت لا تعرفه.. بالطبع ليس في كونى معك هنا ما ينبغي أن يسوءه، ولكنه لا يعرف أنك هذا الصديق القديم.. كل ما يعرفه أنه خطيبى.. وإنى — كما قال مرارا — طائشة.. مندفعة».

قال مراد: «اشربى القهوة.. لا تفسدى على نفسك الليلة.. سترحين له كل شيء، فيعود حملا وديعا ويعذر إليك من هذه النظارات الحامية».

فرشبت القهوة، ولكنها كانت ساهمة.. فقد كانت تحب «زكي» هذا، وكانت تكره الاضطرار إلى الشرح و تستثقل أن تحتاج حتى إلى ما يشبه الإعتذار.

وقال مراد: «لقد قام الرجلان.. خطيبك وصاحبه».

قالت: «يسألن أن نقوم إذن.. فسيودع صاحبه ولا شك ويقف في انتظارى.. أشكرك يا مراد.. نبهتنى إلى أنه خرج فلاحق بـه».

وخرجا.. وودعها مراد بعد أن عرفت منه عنوانه، وعرف منها عنوانها، وألح عليها أن تتصل به إذا جد أمر من جراء لقاءهما الليلة.

وقالت جليلة لزكي: «معي سيارتى، فلا حاجة إلى تاكسى».

فدخل في السيارة واضطجع.. ثم قال: «من هذا الرجل الذى كان معك؟». فقصت عليه وما وقع لها عند المطار، فقاطعها وقال: «كيف تكلمين رجلا غريبا؟ إن هذا كثير...».

قالت: «ولكنه ليس غريبا.. لقد نشأنا معا.. في حى واحد».

فنفخ وقال: «ولكنك لم تكونى تعرفي أنه هو صديق طفولتك».

فقالت بلهجة المستغرب: «هل كنت ت يريد أن أتقبل معونته ولاأشكره على الأقل؟» فترك هذا وقال: «ولماذا تخرجين إلى هذا المكان وحدك؟» قالت: «لأنك مشغول عنى بأعمالك الكثيرة التي لا تدع لك وقتا لمرافقتي.. ومع ذلك أى بأس هناك؟»

قال: «بأى؟ بأى؟ هذا الذى حدث لك من غوص العجلة أليس بأى؟»

قالت: «لا تكن متعنتا.. إن السيارات يمكن أن يحصل له أى شيء في أى مكان في الدنيا». فترك هذا أيضا وقال: «ولكن تأتين معه إلى الحاتى.. ماذا يقول الناس؟»

فقالت: «إذا كان الحاتى مكاننا لا يليق أن يدخله الشريف...».

فقطاعها بسرعة، وقال: «لست أقول هذا.. الأمر على العكس».

قالت: «اذن انتهينا».

فسكت، فما رأى حجة له تنهض. وسأله ذلك فقد كان شديد الاعتداد بنفسه، وكان عظيم الطموح واسع الأمل في المنازل الملوحظة.. فلم يسره أن الفتاة التي سيتزوجها تقع حجته بأقوى منها، وأحس أن في هذا تنقصا له وغضبا من مقامه وسقوطا لهيبة، ولكن الكلام خانه فأثر السكوت على مضض.

وكان زكي - أو إذا أردت اسمه كله زكي الدين حمد - من أصل تركي أو شركسى - سيان - وكان يطمع أن يبلغ بماله الموروث حيث لم يستطع أن يبلغ بالكافية الشخصية. وكان أمله الذي لا ينفك يحلم به في اليقظة والمنام أن يصبح يوما من أعضاء البرلمان، ومن أجل هذا كان يتقرّب إلى الزعماء السياسيين بوسائل شتى.. وكان يعنيه جدا أن يحسن رأيهم فيه وظنهم به ... وكان يحرص على المركز المأمول، ويحيط نفسه سلفا بكل مظاهر الأبهة والسمت والوقار، وينظر إلى الأمر كله كأنه واقع. وينتظر من الناس أن يعودوه كذلك، بل أن يبالغوا ويروحوا بمدون بصرهم إلى المستقبل، وأن يخالوه كما يتخيّل نفسه فيه وزيرا أو رئيس وزارة.

وقال جليلة - وهو يودعها على باب بيتها: «أرجو يا جليلة ألا تعرضيني لكلام الناس، واذكري أن لي مرکزا يجب أن أحافظ عليه».

فسحبت يدها من يده وقد آلمها كلامه، وأحسست أن سهما وقع في قلبها. كانت حساسة وذكية. ولم يكن يخفى عليها أن ليس له مركز سوى ما يفيده الغنى. ولم تكن هي تحتاج منه إلى مال فإن مالها كثير. وكانت تدرك أن ما يسميه «مرکزه» جانب ضعف فيه، ولكنها كانت تغض عن ذلك لحبها له، غير أنها لم تكن تتوقع أن يتهمها

بأنها تسيء إلى هذا المركز — وإن كان موهوما — فضلاً عما تنتطوي عليه عبارته من الترييض بها، بعد أن شرحت له الأمر كله ولم تُخف عنّه شيئاً. وماذا تخفي وليس في الأمر ما يستدعي الكتمان؟

وقالت له — وهي تهم بالدخول: «ليلتك سعيدة».

فسألتها: «متى نلتقي غداً؟

فأطرقـت شيئاً ثم رفعت رأسها، وألقت إليه ابتسامة ساخرة، وقالـت: «غداً لا..

إنـى على موعد مع مراد...».

ولم يكن ثم موعد ولا شبهـه، وإنـما قالـت ما قالـت مدفوعـةـ إـلـيـهـ بـضـجـرـهـاـ وـأـلـهـاـ.

ودخلـتـ..ـ وـتـرـكـتـهـ وـاقـفاـ وـفـمـهـ مـفـتوـحـ.

ولم تحاول أن تلتقي بمـرادـ فيـ الـيـوـمـ الـتـالـيـ،ـ فقدـ كـانـتـ تـدرـكـ أـنـ هـذـاـ لـاـ يـكـونـ مـنـهـ إـلـاـ خـرـقاـ وـحـمـاقـةـ..ـ فـلـزـمـتـ بـيـتـهـ إـلـىـ الـمـسـاءـ،ـ ثـمـ خـرـجـتـ فـيـ سـيـارـتـهـ عـلـىـ عـادـتـهـ وـجـالـتـ بـهـ جـوـلـةـ قـصـيرـةـ،ـ ثـمـ رـدـتـ بـعـضـ الـزـيـارـاتـ وـعـادـتـ فـلـزـمـتـ غـرـفـتـهـ.ـ وـكـانـ الـأـلـمـ لـاـ يـزالـ يـحـزـ فـيـ نـفـسـهـ،ـ فـسـاءـ نـومـهـاـ وـاضـطـربـ.ـ وـذـهـبـ يـوـمـ وـجـاءـ يـوـمـ،ـ وـلـكـنـهاـ أـحـسـتـ ثـقـلـاـ فـيـ جـسـمـهـاـ وـفـتـورـاـ..ـ فـبـقـيـتـ فـيـ فـرـاشـهـاـ،ـ وـأـوـصـتـ أـمـهـاـ أـنـ تـمـنـعـ أـنـ يـوـقـظـهـاـ أـحـدـ –ـ حـتـىـ لـاـ زـكـىـ –ـ فـشـعـرـتـ الـأـمـ أـنـنـ فـيـ الـأـمـ شـيـئـاـ،ـ وـلـكـنـهاـ حدـثـتـ نـفـسـهـاـ أـنـ خـلـافـ لـاـ يـلـبـثـ أـنـ يـزـوـلـ.ـ وـجـاءـ زـكـىـ يـسـأـلـ عـنـ خـطـيـبـتـهـ،ـ فـعـرـفـتـ الـأـمـ أـنـهـ لـمـ يـلـقـهاـ مـنـذـ يـوـمـيـنـ..ـ فـأـظـهـرـتـ تـعـجـبـهـاـ وـزـلـتـ،ـ فـقـالـتـ إـنـهـاـ كـانـتـ تـحـسـبـ أـنـهـاـ لـمـ تـخـرـجـ إـلـاـ لـلـقـائـهـ.ـ وـزـلـ زـكـىـ أـيـضـاـ فـقـالـ لـهـاـ إـنـ جـلـيلـةـ تـسـلـكـ مـسـلـكـ الـأـطـفـالـ،ـ وـأـنـ ذـلـكـ يـسـيءـ إـلـىـ مـرـكـزـهـ،ـ وـأـنـهـ كـلـمـهـاـ فـيـ ذـلـكـ فـغـضـبـتـ وـلـجـتـ فـيـمـاـ نـهـاـهـاـ عـنـهـ،ـ فـهـوـ يـرـجـوـهـاـ –ـ الـأـمـ –ـ أـنـ تـكـبـحـهـاـ قـلـيلاـ..ـ فـمـاـ يـلـيقـ أـنـ تـرـكـ هـكـذاـ –ـ حـبـلـهـاـ عـلـىـ غـارـبـهـاـ.ـ وـعـرـفـتـ جـلـيلـةـ هـذـاـ الـذـىـ دـارـ بـيـنـ أـمـهـاـ وـبـيـنـ خـطـيـبـهـاـ،ـ فـدـهـشـتـ لـهـ..ـ وـلـكـنـهـاـ لـمـ تـغـضـبـ وـلـمـ تـشـرـ،ـ بـلـ كـانـ مـنـ الـغـرـيبـ أـنـهـ أـحـسـتـ كـأـنـمـاـ وـضـعـ لـهـاـ فـيـ مـكـانـ الـقـلـبـ قـطـعـةـ مـنـ الثـلـجـ.

وجـاءـ الـعـصـرـ..ـ فـرـكـبـتـ سـيـارـتـهـ وـخـرـجـتـ بـهـاـ إـلـىـ مـصـرـ الـجـديـدـةـ.ـ وـكـانـ كـلـ هـمـهـاـ أـنـ تـكـوـنـ وـحـدـهـاـ وـأـنـ تـدـوـرـ دـوـرـةـ فـيـ الـهـوـاءـ الـطلقـ وـتـمـشـيـ قـلـيلـاـ،ـ عـسـىـ أـنـ يـنـفـعـهـاـ ذـلـكـ..ـ فـيـعـفـيـهـاـ مـنـ الشـعـورـ بـالـانـقـبـاضـ وـالـفـتـورـ.ـ وـإـنـهـ لـفـيـ بـعـضـ الـطـرـيـقـ،ـ وـإـذـاـ بـهـاـ تـرـىـ مـرـادـاـ يـمـشـيـ بـسـرـعـةـ كـأـنـمـاـ يـرـيدـ أـنـ يـدـرـكـ مـوـعـدـاـ..ـ فـوـقـفـتـ وـأـشـارـتـ إـلـيـهـ وـقـدـ أـحـسـتـ أـنـ جـسـمـهـاـ قدـ صـارـ أـخـفـ مـاـ كـانـ..ـ فـجـاءـهـاـ يـعـدـوـ،ـ فـسـأـلـتـهـ:ـ «ـإـلـىـ أـينـ؟ـ

فلم يجب عن هذا السؤال ولم يلق إليها تحية، بل ركب وهو يقول: «أرانا نلتقي في هذه الأيام.. حسن هذا.. أليس كذلك؟»؟

فأعادها ما في وجهه من البشر، وقالت ضاحكة: «غريب هذا.. تمضي سنوات لا نلتقي فيها مرة واحدة، وفي أربعة أيام نلتقي مرتين».

قال: «لا تغطى يا فتاتي.. ليست هذه مصادفة»..

فنظرت إليه مستغربة، وسألته: «ليست مصادفة؟»؟

قال وعلى فمه ابتسامته الوضيئة التي لا تفارقه: «كلا.. ليست مصادفة.. إنها إرادتي سلطتها عليك فجذبتك إلى حيث أنا.. نعم». فعاد إليها إشراق وجهها وأطمأنة، وقالت: «أوه.. آه.. إرادتك؟ طبعاً»..

قال: «لا تمزح.. إنني أتكلم جاداً».

فرمت إليه نظرة سريعة، فألفته لا يزال يبتسم.. فحولت وجهها إلى الطريق، وقالت: «هذا بديع.. تكلم، إن أذن لك».

قال: «نعم.. إرادتي.. لم أزل منذ عشر سنين أربى هذه الإرادة، فهل تستغربين أنها بلغت من القوة هذا الشأو؟ بالطبع لا، وأنت أول من ينبغي أن يكون من تلاميذ المؤمنين بي.. من حواري. هه؟ وسأفتح بك العهد الجديد».

وبلغا آخر الطريق إلى المطار – من ورائه – فجلسا على سلم السيارة، وأخرج مراد سيجارة وذهب يدخن في صمت.. فلما طال ذلك التفت إليه وقالت: «إنك لا تسألني ماذا حدث؟»؟

فلم يحول وجهه إليها وأدرك من كلامها أن شيئاً لابد أن يكون قد حدث. ولم يشأ أن يتطفل عليها بالسؤال، فاكتفى بأن يقول: «إن أذن لك.. أعرناك السمع».

قالت: «إنك قليل الفضول».

قال: «لأنني مشغول عنه بما في نفسي.. الدكان غاصة.. لا تحتمل زيادة».

قالت: «لغة التاجر، اسمع.. غصب زكي، أوه.. غصب جداً.. لم يقل شيئاً كثيراً، كل ما قاله إنني خفيفة طائشة، وأنني أسوء بسلوكى إلى مركزه».

فانتفض مراد واقفاً وقد تجهّم وجهه ورمى السيجارة، ثم التفت إليها وقال بلهجة صارمة: «من يكون زكي هذا؟»؟

وكتب نفسه عن الاسترسال، ورد لسانه بجهد، وضبط أعصابه، وعاد إلى مكانه من السلم والتفت إليها وقال – وقد وسعه أن يبتسم مرة أخرى: «معذرة.. ليس لي حق.. قولي إنك صفحت عنى».

فسرها منه أنه غضب لها، وفارت نفسه بالسخط على خطيبها من أجلها، فقالت له برقه: «أشكرك.. إننا صديقان قديمان». فقال لها — وهو ينهض مرة أخرى: «قومى نتمشى.. دعى السيارة، فلن يخطفها أحد».

وقطعا مسافة وهما صامتان، ثم وقف والتفت إليها وقال: «اسمعي يا جليلة.. إنى أعتمد على ما تخولنـى صداقتى القديمة من الحق في الصراحة... عشرون قربة من الماء تجعل لي هذا الحق، أريد أن أقول إنـى تحاشرت في مقابلتنا الأولى أنـى أكاشفك بما أضمـر لك من الحب كل هذه السنين الطويلة، لأنـك قلت عرضاً أنـك مخطوبة.. ولكن وجه المسألة تغير اليوم بعد أنـ سمعت منك ما قال هذا البغل».

فقطـعته ضاحكة: «اذكر أنه خطيبـى. لا يزال خطيبـى. وإنـى قلت لك إنـى أحبـه». فقال: «لم يعد هذا يعنيـنى.. لست أحـاول أنـ أصرـفك عنه.. كلا، ولكـنه لم يـبقـ لي بدـ من أنـ أقول إنـى أحبـك، وإنـى أحبـك مـذ كـنت طـفلـة، وـكـنت أعـابـثك وأـكـايدـك وأـصـرـخـ في وجهـكـ. وكانـ هذا مـظـهـرـ حـبـى الصـبـيـانـى.. أماـ الآـنـ، فإنـ مـظـهـرـهـ أنـى مـسـتـعدـ أنـ أـذـهـبـ إلىـ خطـيـبـكـ هـذـاـ وأـخـنـقـهـ بـيـديـ هـاتـيـنـ».

قالـتـ ضـاحـكـةـ: «لـقدـ توـهمـتـ لـحظـةـ أنـكـ صـرـتـ أـرـقـ». فقالـ: «كـلا.. أناـ كـماـ كـنـتـ.. وـاسـمـعـيـ ولاـ تـقـاطـعـيـ وإـلاـ بـحـثـتـ عنـ دـوـدـةـ وـوـضـعـتـهاـ لـكـ فيـ قـفـاكـ.. إـذـاـ حدـثـ يـوـمـاـ أـنـ صـارـ الدـكـانـ للـإـيجـارـ فـأـخـبـرـيـنـىـ».

قالـتـ: «لـغـةـ التـاجـرـ أـيـضاـ.. ولـكـنـىـ سـأـسـتـعـيرـهاـ منـكـ.. ثـقـ أـنـكـ مـفـضـلـ عـنـدـىـ عـلـىـ كلـ مـسـتـأـجـرـ لـهـذـاـ الدـكـانـ إـذـاـ خـلـاـ يـوـمـاـ مـنـ الـأـيـامـ.. لـمـ يـخـطـرـ لـىـ أـنـهـذـاـ مـاـتـنـطـوـيـ عـلـىـ لـىـ.. وـمـنـ الـتـىـ تـتـصـورـ أـنـ وـضـعـ الدـيـدانـ فـيـ قـفـاهـاـ يـكـونـ عـلـامـةـ حـبـ؟ـ وـلـكـنـكـ كـنـتـ دـائـمـاـ غـرـبـيـاـ.. عـلـىـ كـلـ حـالـ، الـمـسـأـلـةـ الـمـهـمـ أـنـ الدـكـانـ مـزـحـومـ. لـيـسـ خـالـيـاـ.. رـحـتـ أـسـتـبـضـعـ فـامـتـلـأـ.. صـحـيـحـ أـنـ اـمـتـلـأـ بـأـشـيـاءـ لـاـ قـيمـةـ لـهـاـ.. وـلـكـنـىـ لـمـ أـكـنـ أـعـرـفـ أـنـ مـاـ غـصـ بـهـ عـدـيـمـ الـقـيـمـةـ.. الـمـهـمـ أـنـ مـمـتـلـئـ، وـأـظـلـكـ تـدـرـكـ أـنـ مـاـ دـامـ مـمـلـوـءـ فـلـاـ مـكـانـ هـنـاكـ لـجـدـيدـ.. يـجـبـ الصـبـرـ حـتـىـ أـخـلـيـهـ مـاـ فـيـهـ.. هـذـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ وـقـتـ.. وـمـنـ يـدـرـىـ، رـبـماـ كـانـ الإـخـلـاءـ أـصـعـبـ مـنـ الـمـلـءـ.. وـلـكـنـ تـفـهـمـ.. قـلـ إـنـكـ تـفـهـمـ وـتـعـذرـ..».

قالـ بـيـسـاطـةـ وـهـدـوـءـ: «لـاـ بـأـسـ.. إـنـ دـكـانـيـ أـيـضاـ مـزـحـومـ.. وـلـكـنـهـ مـزـحـومـ بـالـنـفـيـسـ الـغـالـيـ.. وـلـسـتـ أـرـيدـ أـنـ أـخـلـيـهـ – لـاـ أـسـتـطـيـعـ أـنـ أـخـلـيـهـ حـتـىـ لـوـ أـرـدـتـ.. وـهـيـهـاتـ أـنـ أـرـيدـ أـوـ أـسـتـطـيـعـ.. أـنـ مـكـظـلـ مـنـذـ خـمـسـ عـشـرـةـ سـنـةـ، وـسـيـظـلـ مـكـظـلـ طـوـلـ الـعـمـرـ..»

وقد عرفت أن مفتاحه معك.. في يدك.. فادخل حينما تشاءين. وعسى أن تشاءي.. عديني أن تحتلي مكانك من الدكان بعد أن تفرغى من أمر دكانك.. وفي أثناء ذلك نبقى كما كنا دائماً.. صديقين حميمين».

ولم يسع جليلة إلا أن تفكـر في أمر الرجلـين — مراد الذى تعرفـه منـذ الطفـولة، والـذى كان يـسود عـيشـها بـعـبـثـه — لأنـ هـذا كانـ تـعبـيرـه الـخـاص عنـ حـبـه لـهـا — وقد ظـلـ بعدـ ذـلـكـ يـحـبـهاـ، ولـكـنـهـ أحـجـمـ عنـ طـلـبـ يـدـهاـ لـرـقـةـ حـالـهـ بالـقـيـاسـ إـلـيـهاـ. وقدـ صـارـ تـاجـراـ، ولـكـنـهـ لمـ يـُـثـرـ لأنـهـ لاـ يـرـبـحـ إـلـاـ الـكـفـاـيـةـ.. ومنـ هـنـاـ إـحـجـامـهـ إـلـىـ الـآنـ عنـ خـطـوبـتـهاـ كـماـ حدـثـهـاـ. وقدـ زـادـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـهـ كـانـ لـاـ يـتـصـورـ أـنـ تـرضـىـ بـهـ فـتـاهـ مـثـلـهـاـ، فـكـتمـ حـبـهـ وـطـواـهـ فيـ صـدـرـهـ، وـسـأـلـ اللـهـ الـمـعـونـةـ عـلـىـ اـحـتـمـالـ الـيـأسـ الـمـخـامـرـ. وهوـ ظـرـيفـ كـيـسـ لـبـقـ دـائـمـ البـشـرـ وـاسـعـ الـإـدـرـاكـ رـحـيـبـ الـأـفـقـ حـلـوـ الـفـكـاهـةـ.. وـزـكـىـ الـغـنـىـ الـذـىـ لـاـ يـنـفـكـ مـهـمـومـاـ بـمـرـكـزـهـ الـمـتـخـيـلـ وـالـذـىـ لـاـ يـتـقـىـ فـيـ سـبـيلـ الـحـرـصـ عـلـيـهـ أـنـ يـجـرـحـ قـلـبـ فـتـاهـ وـيـتـهمـهـاـ بـالـخـفـةـ وـالـطـيـشـ فـيـ سـلـوكـهـاـ، وـبـأـنـ سـيـرـتـهـاـ توـشـكـ أـنـ تـسـيءـ إـلـىـ مـرـكـزـهـ الـمـوـهـومـ هـذـاـ. وقدـ أـحـبـتـهـ.. هـذـاـ صـحـيـحـ، وـلـكـنـ عـيـنـهـاـ فـتـحتـ، فـهـىـ تـرـاهـ الـآنـ عـلـىـ حـقـيـقـتـهـ. وـلـيـسـ يـسـعـهـ إـلـاـ أـنـ تـفـكـرـ فـيـ حـيـاتـهـاـ مـعـهـ كـيـفـ يـكـونـ، إـذـاـ كـانـ كـلـ مـاـ يـبـالـيـهـ فـيـ الدـنـيـاـ هـوـ هـذـاـ الـمـرـكـزـ.. ولـكـنـهاـ خـطـيبـتـهـ وـقـدـ قـبـلـتـ أـنـ تـكـونـ زـوـجـتـهـ.. فـمـاـ الـعـمـلـ الـآنـ؟

وـسـأـلـتـ نـفـسـهـاـ: أـىـ الرـجـلـينـ أـحـبـ إـلـيـهاـ؟ وـحـيـرـهـاـ الـجـوابـ.. فـهـلـ هـذـاـ الـذـىـ تـشـعـرـ بـهـ مـرـادـ حـبـ؟ إـنـ يـكـنـ هـذـاـ فـهـوـ هـادـئـ جـداـ.. أـمـاـ زـكـىـ فـإـنـ الدـكـانـ كـمـاـ قـالـتـ مـرـادـ مـزـحـومـةـ.. صـحـيـحـ أـنـهـاـ مـزـحـومـةـ بـمـاـ لـاـ قـيـمـةـ لـهـ — كـمـاـ ظـهـرـ الـآنـ — وـلـكـنـهاـ مـزـحـومـةـ.. فـهـلـ تـخلـوـ يـوـمـاـ؟ هـذـهـ هـىـ الـمـسـأـلـةـ.. إـلـىـ أـنـ تـخلـوـ لـاـ سـبـيلـ إـلـىـ شـىـءـ.

وـلـوـ أـنـ زـكـىـ ذـهـبـ إـلـيـهاـ فـذـلـكـ الـوقـتـ وـلـاطـفـهاـ وـضـاحـكـهاـ وـمـازـحـهاـ وـاعـتـذرـ إـلـيـهاـ — وـلـوـ كـانـتـ هـىـ فـيـ رـأـيـهـ الـخـطـئـةـ — لـعادـتـ المـيـاهـ إـلـىـ مـجـارـيهـاـ كـمـاـ يـقـولـونـ، وـلـارتـفـعـتـ قـيـمـةـ ماـ فـيـ الدـكـانـ وـارـتـدـتـ إـلـيـهـ نـفـاستـهـ. وـلـكـنـهـ أـرـادـ أـنـ يـلـقـنـهـ درـساـ، فـأـعـرـضـ أـيـاماـ وـجـفـهاـ وـانـقـطـعـ عـنـ زـيـارـتهاـ، وـلـمـ يـكـفـهـ ذـلـكـ.. بلـ أـرـسـلـ إـلـيـهاـ خـادـمـةـ مـنـ عـنـدـهـ تـبـلـغـهـ تـحـيـاتـهـ وـتـسـأـلـهـ باـسـمـهـ عـنـ صـحـتـهـ، وـأـوـصـاـهـاـ أـنـ تـخـلـقـ مـنـاسـبـةـ لـتـقـولـ لـهـاـ أـنـ سـيـدهـاـ يـكـثـرـ — فـيـ هـذـهـ الـأـيـامـ — مـنـ زـيـارـةـ بـيـتـ خـالـتـهـ — وـكـانـتـ لـهـاـ بـنـتـ فـيـ مـثـلـ سـنـ جـلـيلـةـ — لـيـثـرـ غـيـرـهـاـ وـإـشـفـاقـهـاـ مـنـ أـنـ يـطـيرـ الـعـصـفـورـ مـنـ يـدـهـاـ، فـأـفـلـحـ وـلـكـنـ فـيـ اـسـتـثـارـةـ نـقـمـتـهـ عـلـيـهـ.. فـقـالـتـ لـنـفـسـهـاـ إـنـ رـجـلاـ يـهـيـنـهـاـ وـيـعـرـضـ بـهـاـ، وـيـرـمـيـهـاـ بـأـنـ سـلـوكـهـاـ مـنـ شـائـنـهـ أـنـ يـسـيـءـ إـلـىـ سـمـعـتـهـ وـأـنـ يـضـرـ بـمـرـكـزـهـ، ثـمـ لـاـ يـجـعـلـ هـذـاـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـاـ بـلـ يـفـضـيـ بـهـ إـلـىـ أـمـهـاـ،

ثم لا يكفيه هذا بل يجفوها ثم يغلو في تعمد الإساءة إليها فيرسل إليها خادمة تبلغها أنه انصرف عنها إلى سواها.. مثل هذا الرجل خير له ولها أن ينقطع ما بينهما.

على أنها لم تتتعجل – وإن كان عزماً قد صر على الفراق – فقد كانت شديدة الثقة بنفسها والاعتداد باستقلالها وإرادتها الحرة، فلم تر ما يدعو إلى العجلة بعد أن انتوت أن تفصم العروة. واستوى عندها أن يكون ذلك يوم انتهت إلى هذا العزم، وأن يكون بعده أيام أو أسابيع. فقد كانت واثقة أنه ما من شيء يستطيع أن يحولها عنه. وصار عجبها أن الدكان خلا بسرعة مما كان يغتص به. ولم تكن تلقى في تلك الأيام مراداً، لأنها أرادت أن تختبر نفسها للتعرف ما تتطوى عليه له.. فأدھشها أنها تحس وحشة، وأنها تشتهي أن تكون معه، وأن تستعيد ما تشعر به في مجلسه من سكينة النفس واطمئنان القلب والرضى الهدائ. وزاد شوقها إليه أنها كتمت الأمر كله عن أمها. ولو كان مراد إلى جانبها، لكان خليقاً أن يفهم ويغذر ويعطف وأن يسرّ عنها بفكا هاته التي لا تخونه، وأن يغذيها بقوته التي تجعله لا ينسى أن يضحك وهو يفجع في أمله الذي عاش به سنين وسنين..

وتعجبت لسرعة استيلاء مراد على هواها، فما لقيته إلا مرتين بعد طول الانقطاع والغيبة. فهل هذا هو الحب الذي يقال عنه أنه يكون من أول نظرة.. أم تراها كانت تحبه منذ عرفته وهي لا تدرى، وكان حبها له راقداً كاماً ينتظر فرصة للظهور؟ لاشك أنها كانت تحبه، كذلك قالت لنفسها وهي راقدة على سريرها بعد الغداء. نعم كان يقسوا عليها ويركبها بال滋味 المتعب، وكان يختبئ لها وراء الأشجار ثم يفاجئها بصرخة ترعبها فيضحك ويقهقه. وكان يجرى وراءها حتى تنقطع أنفاسها وتقع من الإعياء.. فيحملها، ولكنه لا يرحمها، ولا يترفق بها.. بل يقرصها ويعضها، فتصرخ وتصيح وهو يضحك ولا يبالي.. ولم تستطع أن تنتقم منه إلا مرة واحدة حين أرسلت عليه خرطوم الماء فأغرقته، فجعل يتنفس من البرد. ولكنه كان يضحك مع ذلك ولم يخطط عليها.. ولم ينطق بكلمة تشي بالألم أو النعمة أو الغضب، بل احتمل ذلك. ولما رق له قلبه وأقبلت عليه بالاعتذار إليه وطلبت الصفح منه، لم ينس دعابته وعبيه ونبحها كما يفعل الكلب «وو.. وو..» ففزعـتـ. فـماـ كـانـ تـتـوـقـعـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ،ـ ومـضـتـ عـنـهـ مـغـيـظـةـ مـحـنـقـةـ أـنـهـ شـرـ صـبـيـ فـالـحـارـةـ،ـ وـكـانـ هوـ يـقـهـقـهـ وـيـنـطـوـيـ مـنـ شـدـةـ الضـحـكـ غـيرـ عـابـيـ بـالـمـاءـ وـالـبـرـدـ..ـ فـتـاـلـهـ مـاـ أـقـواـهـ.ـ وـمـعـ ذـلـكـ كـانـتـ لـاـ تـلـعـبـ إـلـاـ مـعـهـ..ـ وـإـذـاـ

أقبل عليها غيره من الصبية نفتر. نعم، لا شك أنها كانت تؤثره، ولماذا لا تقول إنها كانت تحبه؟ صحيح أنها لم تكن تعرف الحب.. ولكنها تعرفه الآن، فقد صارت خبيرة مجربة.. فلماذا لا تسمى الشيء باسمه الصريح؟

وارتدت من الماضي إلى الحاضر، وذكرت كيف غاصت عجلتها في الرمل ووقفت حائرة.. وإذا به يظهر كأنما شق الأرض وخرج منها — كما كان يفعل وهو صبي — وينظر على الأرض بلا كلام أو سؤال، ولا يبالي ما يصيب ثيابه، ويجرف الرمل بيديه الكبارتين ويحمل الحجارة.. يفعل كل ذلك ولا يرفع عينه إلى.. ثم يعرفي فيتلطف في تذكيرى بنفسه. ويتظاهر بنسیان اسمى وهو منقوش ومحفور في قلبه.. وتنازعه نفسه أن يُفضي إلى بحبه، فيشير إليه من بعيد في معرض الكلام على ذكريات الحداثة.. ويعرف أني مخطوبة، فيفقد كل أمل. ولكنه يتجلد ويتكافف الابتسام ويمضي في مؤانستي بحديثه، كأنما لم ينهد ولم يتقوض بنيانه.. وهل أنسى كيف ثار وانتفض حين رويت له ما أهاننى به زکى؟ فقد كانت وثبته تلك دليلاً كافياً على عمق ما يجنب مني من الحب.. ومع ذلك أبى له الكياسة والأدب إلا أن يكبح نفسه ويردها عن النيل من زکى مخافة أن أكره ذلك منه.

وطلت تناجي نفسها على هذا النحو، ولا تكتحل عينها بغمض حتى كان العصر.. فقامت ولبست ثياب الخروج، واستقلتها سيارتها الصغيرة إلى دكان مراد، فأقبل عليها يرحب بها، فقالت: «أنت أولى من الغريب».

فابتسم وقال: «آه.. أهو ذاك؟

قالت: «نعم.. أريد شيئاً من الحرير.. قطعاً كثيرة. ألوانها شتى.. الوقت ضيق».

قال: «الوقت؟.. لست فاهماً شيئاً..».

قالت: «ألا تعرف أن العروس تحتاج إلى ثياب كثيرة؟

فامتقتع لونه، ولكنه تجلد وقال: «متى، إن شاء الله؟ لست أطمئن أن أدعى، ولكن أريد أن أحفل بليلة الجلوة وبسرورك فيها.. وحدى».

فسألته بخبث: «وحدى؟

قال: «نعم.. لن يكون معى سوى خواطري».

وأدأ وجهه إلى الباب ليختنق زفراً يعلو بها صدره، ثم التفت إليها وقال: «متى يكون هذا؟

فرفعت إليه وجهاً مشرقاً، ونظرت إليه نظرتها الحالم، وقالت: «متى تريد أن يكون؟

فقطب، وقال: «إيه؟»

فأعادت سؤالها: «متى ت يريد أن يكون؟»

فصدق في وجهها — في عينيها — ثم صاح وقد فطن إلى ما تعنى، وانحنى عليها فرفعها بيديه عن الكرسي غير عابئ بالعمال والزبائن، وأهوى على فمها باللثمات ثم ردها إلى الكرسي، وصاح بأحد رجاله: «اذهب. اذهب. حالاً. حالاً». فوقف الرجل كالبله لا يفهم ولا يدرى أين يريد منه أن يذهب، فصاح به: «هات المأذون.. ألا تعرف المأذون يا أبله؟ اذهب.. حالاً..».

فوقفت جليلة وأقبلت عليه تسأله: «ماذا تعنى؟ ماذا ت يريد أن تصنع؟؟

فقال: «ماذا أعنى؟ يا له من سؤال.. نعقد العقد.. هنا.. حالاً في الدكان.. هذا ما أعنى.. رجالى وزبائنى شهودى.. شهود سعادتى.. لقد كان التجار في الزمن السالف يجبيون برجال يقفون على أبواب الدكاكين ويدعون المارة أن يدخلوا ويزينون لهم البضاعة، وقد انقضى ذلك الزمن وحلت الإعلانات في الصحف محل هؤلاء المنادين.. ولكنى اليوم سأقف بالباب وأدعو الناس.. كل الناس.. أن يدخلوا، لا ليشتروا، بل ليشاركوني في سعادتى. لماذا لم يجيء المأذون؟ اذهب أنت وراءه واستعجله».

وفرحت جليلة بهذا الجنون وخجلت أيضاً. أفرحها أن عقله استطير من فرط الجذل، وأخجلها أن كل هؤلاء الناس من العمال والزبائن يرونها وأن عيونهم جميعاً عليها، وأنهم جميعاً يفحصونها ليعرفوا سر هذا السحر الذى ذهب بلب الرجل الذى ألقوا منه الرزانة والوقار والسكنية والظرف والعقل.. وأرادت أن تستمهله، فأبى.. فاقترحت أن يذهبا بالmAذون إلى البيت، فأبى أيضاً، وقال: إن ناساً في هذا الزمان يتزوجون في الطيارة.. فماذا يمنع أن نتزوج في الدكان؟ فقللت: إنه فرق ساعة، والم المسافة إلى البيت لا تستغرق زمناً. فأبى أيضاً، وقال إنه يخاف عليها أن تطير وتتسرب في الهواء.. كلا، ولابد أن يكون العقد هنا.

وراقتها هذا الجنون وألهب خيالها فرضيت..

وتزوجا في الدكان!

وقالت له وهما خارجان: «نسألك أن أقول لك إنني وجدت أن الدكان لم يكن خالياً فقط.. كان ما فيه مخزوناً من أيام الصبي.. فلما أدرت عيني فيه عرفت، ولهذا جئت». فقبلها على باب الدكان ... ولم يستح الرجل!

الفصل الثالث

الكَـٰبَـٰة

يقول بعض الأطباء بلهجة الجزم التي لا تردد فيها ولا تلعم: إن حيوية الجسم الإنساني تكون أدنى ما تكون بعد منتصف الليل. وفي تلك الساعة العصبية، يعجز العقل عن تدبر الحاضر بسکينة ورضى، واستشفاف المستقبل بشجاعة، ورجوع البصر في الماضي بغير أسف. ولكن كل امرئ غير هؤلاء الأطباء يعرف أن ساعة الكَـٰبَـٰة والهبوط لا وقت لها، وأنها قد تكون الأولى صباحاً أو الثانية مساء. كما قد تكون في العصر أو الغسق. فليس لها ثبات ولا أوان معروف، وأن ساعتها قد تكون ثوان أو دقائق. وقد تمتد وتطول، فينطوى فيها الليل والنهار جميماً وال عمر أو خيره في بعض الأحيان.

ومهما يكن من ذاك، فإن المحقق – على كل حال – أن كاتباً مثل لا يسعه إلا أن يشعر وهو يتأمل «سعيداً» بقصوره وعجزه، فإن مثل هذه الكَـٰبَـٰة لا يستطيع أن يوفيها حقها سوى مجمع من أعلام البيان. وقد يسع «زولاً» أن يصفها، وعسى أن يكون «جوركى» قادراً على تناولها بقلمه، ولعل «دستويفسكي» كان أقدر من سواه على ذلك، ولكنها فوق طاقتي وحدي. وشر ما فيها أنك لو سألت «سعيداً» نفسه عنها، ما سببها أو داعيها، لما وسعه أن يعلله.. ولكن الأرجح أن يتعجب لها، فقد كان حسن الحال ميسّر الرزق. ولا نكران أنه كان يك ويتعب في سبيل الرزق.. ولكن كل إنسان يفعل ذلك، حتى أصحاب الضياع لا مفر لهم من العمل والسرور والتعهد والعناية بما يملكون، وإلا نصب المعين وجف المورد. وكان فوق ذلك ذا زوجة صالحة فيها رقة وجمال وأدب وصدق ولها عقل، وكفى بهذا نعمة.

وكان في تلك الساعة في «قهوة» لها حديقة تشرح الصدر. والطريق أمامها واسع نظيف، واليوم يوم أحد، والغوانى يرحن ويجهن على الرصيف.. كل اثنتين أو ثلاثة أو أربع معاً، وهن في حفل من الزينة. وأخلق بالمرء حين ينظر إلى وجههن الصبيحة

وقدودهن البارعة وخطرتهم الرشيقه، ويسمع أصواتهن البلبلية أن يشيع البشر في نفسه! وكانت في حديقة القهوة نافورة صغيرة، ترسل الماء خيوطا دقيقة تعلو ثم تتناثر على صورة المظلة. وقد اجتمع الماء والخضرة والوجه الحسن – بل الوجه الحسان – فماذا يبغى سعيد فوق ذلك؟ أم ترى اجتماع ذلك كله هو سر الكآبة، من يدرى؟

وجاء ماسح الأخذية وقعد ومد يده بالصندوق إلى رجل سعيد بلا استئذان، فرفع هذا قدمه إلى الصندوق بحكم العادة لا بداع الرغبة.. فقد كان الحذاء نظيفاً تماماً. وقال الرجل بعد فترة صمت شغل فيها بغسل الحذاء بالماء والصابون: «من زمان ما جئت إلى هنا يا بك».

ولم يكن سعيد «بيكا» ولا كان له أمل أو رغبة في رتبة كهذه.. فإنه رجل عمل لا يحفل بالألقاب والرتب، ولكن كل امرئ «بك» عند ماسح الأخذية وسائلى المركبات. ولم يزد سعيد في جواب السؤال على «آه»، ثم أدار عينه في الجالسين بهذه القهوة فألفى ناساً يشربون وأخرين يلعبون «الطاولة» وحولهم كثيرون ينظرون إليهم وهم وقوف. وأخذت عينه رجلاً وامرأة جالسين تحت شجرة وأمامهما قدحان من «الزيبيب» فقد كان هذا أحد الشهور التي لا «راء» في حروفها – وهي مايو ويونيه ويوليه وأغسطس – والقاعدة المصرية أن شرب «الزيبيب» يحلو ويطيب في هذه الشهور الأربع. فاشتهرت نفسه قدحاً من الزيبيب.. وصفق فجاء الخادم، ولكنه تردد وخطر له أنه ليس معه من يشاربه. فنظر إلى الخادم الصبور، وسألته: «عنك إيه؟» ولم تكن به حاجة إلى سؤال بهذا، ولكن الخادم ألف هذا من الزبائن، ووطن نفسه عليه، فقال بلا تملل: «قهوة، شربات، كازوزة، شاي..» وأمسك. ثم كأنما تذكر، فزاد «خشاف، ليموناده».. ولم يأنس من سعيد قبولاً، فقال: «وييسيكي، كونياك..» فاستوقفه سعيد بإشارة، وسألته: «كونيك من أى صنف؟» فقال الخادم: «كمبا، كمبا عال، مارتل، كور فوازييه، انيسي..». فهز سعيد رأسه، وقال: «هات زيبيب».

ومضى الخادم، فقال ماسح الأخذية: «القهوة دي يا بك عال». فزاد صدر سعيد ضيقاً ولم يجب، ودار بنفسه أن كل إنسان سعيد إلا هو. وأنكر أن يكون اسمه سعيداً، ورأى في هذا الاسم تهكماً من الأقدار. وخطرت في هذه اللحظة فتاة أمامه وألقت نظرة سريعة على حديقة القهوة وهي تمر بها، فقال سعيد لنفسه إنه كان خليقاً أن يشعر ببعض السعادة لو كانت معه في هذه الساعة فتاة كهذه تؤنسه

بحديثها. ومررت فتيات آخريات وراءها، فقال لنفسه: «ما أكثر الفتيات اللواتي يمشين وحدهن ولا رجال معهن!»

وقال ماسح الأحذية: «شارع ظريف يا بك.. وخصوصا يوم الأحد..» وأشار بيده إشارة عامة يمكن أن تشمل المباني ومركبات الترام. ورفع وجهه الأسمر إلى سعيد وابتسم له ابتسامة لا تخلو من معنى.. فعبس سعيد، ثم بدا له أن التعبيس لا موجب له، فابتسم متكلفا ورد عينه إلى الشارع ومن يمشين فيه.

وقال الرجل: «بس سعادتك ما بتجيشه».

فاحمر وجه سعيد، فقد أدرك غرض الرجل. ولم يخف عليه ما يرمى إليه، وكان الزيبق قد جاء فصب عليه ماء، ورفع الكأس إلى فمه ورشف. وأقبلت إذ ذاك فتاة تعدد على الرصيف وكان جسمها لينا وثوبها محبوكا، فلم يسعه إلا أن ينظر إلى صدرها العاري، وخرصراها الهضيم وتحته رفافها يرتجان، وثنائيها اللؤلؤية التي تفتر عنها شفتاها الحمراوان.. فرفع الكأس مرة أخرى وشرب وقال لنفسه: إنه مسكين محروم محروم. ثم ارتد يقول — لنفسه أيضا — إنه ليس مسكينا ولا محروما فإن له زوجة جميلة، وإن في وسعه أن يُعجب ما يشاء بجمال النساء غيرها.. ثم يسكن بعد ذلك إلى زوجته، وأن حسنه من السعادة وفأها وبرها وإخلاصها. ثم هز كتفيه — وإن كان وحده — وقال: «وما قيمة أن يُعجب المرء بالجمال وما خير ذلك؟ وماذا يكون معنى هذا الإعجاب على مسافة أمتار؟ لكانى أنظر إلى شريط سينما.. ولا فرق بين أن أرى الفتيات يخطرن على الرصيف أمامي، وأن أرى صور النساء في شريط السينما. إنما تكون للإعجاب قيمة إذا جالس الرجل المرأة وحادثها ونعم بوجودها وحديثها وأنس بمحضرها على العموم. ولكن..» وهز رأسه مرة أخرى متحسرا. فقد كان فيه احتشام وحياء شديد. وكان من غريب أمره أنه يجتنب المجالس التي يختلط الرجال فيها بالنساء. وكان يدعى إلى سهرات من هذا القبيل عند من يعرف من الأجانب والمصريين، فيعتذر ثم يروح يقرع نفسه ويُسخط عليها. وكان حياؤه أو شعوره الشديد بنفسه يوهمه أنه ليس مقبول الشكل أو ظريفا، ولا أنس لأحد به. وكان كثيرا ما ينظر إلى نفسه في المرأة ويدور أمامها، ليرى كيف يبدو من كل ناحية.. فلا تعجبه الصورة التي تطالعه، فيمط بوزه ويقطب وينحط على أقرب كرسى ويروح يفكر في سوء طالعه، حتى أورثه هذا اضطرابا في الأعصاب.

وصفق، فقال ماسح الأحذية: «حاجة يا بك؟»؟

فقال سعيد: «لا..» وتردد فقال: «ناد الجرسون».

فوضع الرجل الفرشاة ونهض، ولما عاد جلس وهو يقول: «أنا خدامك يا بك.. تحت أمرك.. بس اؤمر. أتمنى خدمة.. والله يا بك».

فدار رأس سعيد، وقال لنفسه: «لم يبق إلا هذا.. نعم لم يكن ينقصني إلا أن أستعين بهذا الرجل.. مصيبة. مثل يخطر له أن يستعين على سد الفراغ الهائل في حياته الجافة برجل من هذا الطراز.. ومع ذلك، لم لا؟.. وماذا يستطيع مثله.. إنه لا يسعه شيء أعجز حتى أنا عنه، لأنه إذا كان يعرف أحدا فإنه لا يعرف ولا يمكن أن يعرف إلا الطبقة التي هي كالشمس لكل الناس.. أعود بالله.. لا.. ليس هذا ما أريد.. ومع ذلك من يدرى.. ألا يمكن أن أختبره؟»

وجاء الجرسون ثم انصرف ليجيء بالكأس الثانية، فخطر لسعيد خاطر، والتفت إلى الرجل وقال: «اسمع: إنى أريد شقة صغيرة.. غرفتين فقط.. شقة أشتغل فيها.. البيت ضجة وضوضاء.. شقة صغيرة هادئة.. في حي محترم...».

فأقبل الرجل على الحذاء يمسحه بهمة ونشاط، وقال: «كثير يا بك.. بس اؤمر».

فقال سعيد: «طيب ابحث وايق قل لي».

فقال الرجل: «حاضر.. من عيني».

فرمى إليه قرشين، فتقبلهما الرجل مسرورا داعيا مؤكدا صحة عزمه على خدمته بإخلاص، ومضى عنه.

وتناول سعيد الكاس وشرب وهو يحدث نفسه أن هذا جنون.. وماذا يصنع بالشقة؟ أما إنْ أمره لغريب.. وهم بأن يدعو الرجل ويصرفة عن البحث، ولكنه عدل وقال إن الأمر بيدي أنا لا بيده، فلا داعي للعجلة. غير أنه مع ذلك استثلق لأن يدع الرجل يظن به الظنون. وعاد يقول لنفسه إنه رجل لا قيمة له ولا لظنونه، فليظن ما شاء.. ولكن حملته على نفسه لم تفتر.

وكان الليل قد أظلم ولم تبد سواه المصايبخ.. وكان هو في النور، فقدرته على رؤية الشارع محدودة.. فصارت الفتيات كالأشباح، واتسع المجال بذلك للخيال، فالدميمة منها يحيطها الخيال فاتنة ساحرة. وساعدته الخمر على إتمام الصور، وجلاء غامضها، وعلاج عيوبها المرئية أو الملوهومة. وكانت الخمر قد أنعشته قليلا، فكان ينظر ويفكر ويتخيل بشيء من الارتياح.. ولكنه مع ذلك أحس أنه عاجز عن احتمال كل هذا الجمال، وإن كان أكثره مما رسم خياله، فنادي الجرسون ونهض..

ولقيه ماسح الأحذية وهو على الرصيف، فسألة: «تجى بكره يا بك؟»؟ ولكن البك لم تعد له أذن تستطيع أن تحتمل الإصغاء إلى مثل هذا الرجل، فقال له: «رح.. رح» فألح الرجل ومشى إلى جانبه، يقول: «ليه يا بك.. أنا خدامك.. بس استنى طول بالك.. إن ما كنتش أخدملك خدمة..». فقاطعه سعيد ونهره.. ومضى عنه.

والمثل يقول: «راح السكرة وجاءت الفكرة» ولكن الفكرة تروح أحيانا مع الصحو وتجيء مع السكر.. أو على الأقل، هذا ما كان من أمر سعيد، فقد قال لنفسه إنه إذا كان من العجز بهذا القدر.. فأولى به أن يظل عاجزا وأن يعترف لنفسه بذلك ويوطنهما عليه. ولم يكن هذا الخاطر مما يجلو الكآبة ويلطف الوحشة التي تحسها النفس، وأخلق بالاعتراف بضعف الحيلة وقلة الوسيلة وعدم الصلاح أن يزيد هبوط الروح! ولا عجب إذا كان سعيد قد عاد إلى بيته وهو يسأل نفسه لماذا شرب هذا الزبيب السخيف؟

ودخل على زوجته، وهو يقول لها: «اسمعى.. من الآن فصاعدا لا تدعيني أخرج ومعي فلوس.. بس الكفاية للانتقال.. فاهمة؟» فظنت أن ما معه سرقه النشالون، فقال: «لا.. بس شربت زبيب.. جنون بالطبع.. الرجال مجانيين».

وارتدى على كرسى، وهو يقول: «قال زبيب.. كلام فارغ.. مسخرة وقلة حيا..». وأتخذت كآبته صورة السخط على النفس، ولا نعرف كيف كانت أحلامه في تلك الليلة.. فإنه لم يقصها على أحد، ولكن الأرجح أنها لم تخل من «الزبيب والكلام الفارغ»!

الفصل الرابع

العقد الضائع

رجعنا من السويس على عجل — أختى وزوجها وأنا — وكنا نقضى فيها أياما، فقد تلقينا نبأ من خادمتنا القديمة الأمينة «فرحة» بأن عمدة قريتنا قادم.. وسينزل علينا ضيفا إجابة لدعوة قديمة نسيناها، فأسرعنا نحشو الحقائب حشوا بلا عناء، لنكون في البيت قبل أن يصل. ومضى ابن عمى — زوج أختى — فجاء بالسيارة. وكنت قد هضت ساقى قبل ذلك بيوم، فلم يبق مفر من أن يسوق هو السيارة وإن كان لا يحسن ذلك.. ولم يتلق فيه إلا بضعة دروس قليلة. وكان الأحجى أن نستأجر رجلا لهذا، ولكننا كنا نحرص على ألا يكون معنا غريب يحول وجوده دون حريرتنا في الكلام والضحك واللهو أثناء الطريق وقد عزيت نفسي بأن طريق السويس سهل والحركة فيه قليلة، فلا داعي للخوف. وفي وسعه أن يخطئ كما يشاء.. فلن يضره أو يضررنا ذلك، وإن كان يخشى أن يضيع وقتنا.

وجلست إلى جانبه، وجلست أختى على المقعد الخلفي، وطمأنتها بأنى وأنا معه سأكون السائق الحقيقي، وأنه لن يفعل إلا ما أمره. ولكننا لسوء الحظ، ألفينا الطريق غاصا بالسيارات.. فتعجبنا أولا، ثم تذكرنا أن هذا يوم الأحد، فلا عجب إذا كان الكثيون قد أقبلوا على السويس ليقضوا اليوم فيه.

وقطعنا بعض عشرات من الكيلومترات في سلام — وفي ضحك أيضا — ثم بلغنا أول مرتفقى في طريقنا، فأشرت على ابن عمى بأن يضع ناقل السرعة في محل الثاني.. ففعل، فوققت السيارة في منتصف الانحدار. وكنا لا نزال في مكاننا حين وقف المحرك للمرة العاشرة، فاقتربت عليه أن يكف عن العمل، وأن يضطجع ويشعـل سيجارة. ولكنـه هـز رأسـه وـقال: «ـهل أـرجع بهاـ الـقهـقـرىـ، ثم أـبدأـ منـ جـدـيدـ؟ـ فـقلـتـ لهـ: «ـكـلاـ، إـنـىـ أـفـضـلـ لـسـخـافـتـىـ أـنـ أـوـاجـهـ الـموتـ».ـ

فقالت أختي: «هل نستطيع أن ندفعها يأيدينا حتى نبلغ ذروة هذا المرفع؟..»
قلت: «كلا.. إن زنتها لا تقل عن طنين».

وقال ابن عمى؟ «لن أسألك عن السبب في وقوفها كلما حاولت أن أحملها على السير، فإنى أعرف جوابك.. ولكنى أؤكد لك أنى أضع ناقل السرعة في مكانه بأقصى ما يسع إنسانا من الترفق والبطء.. وإذا كنت تريد أن تعرف رأى فهو أن السيارة قد أصابها تلف».

قلت: «سيصيبيها التلف على التحقيق، إذا ظللت تحاول أن تدير المحرك ثم توقفه.. فستنفد الكهرباء وتحتاج كلما أردت إدارة المحرك أن تنزل وتديره «بالمنفلا». وقد ينفعك هذا، فيغريك بالتفكير قليلا».

فصاح بي: «أتظن أنى لم أفكرا؟ أتوهم أنى لا أفكرا الآن؟ إن رأسى يكاد ينفجر من فرط التفكير».

فضحت أختي، فصاح بها: «نعم أضحكى.. انظرى إلى الجانب المضحك.. ولم

لا.. قد يطير عقلى، ولكن هل يجوز أن يمنعك هذا من الضحك؟؟

ودأس برجله الزر ي يريد أن يدير المحرك.. ووقفت السيارة مرات أخرى لا أذكر عددها فاضطجع وأغمض عينيه وراح يقول: «لا فائدة.. لا فائدة.. قضى الأمر، وأنا واثق أنه كتب علينا أن نبقى هنا إلى الأبد.. ومن يدرى.. ربما كان في الطريق مارد في يده سيف مسلول.. والسيارة تراه وإن كنا نحن لا نبصره.. ومن العبث أن يقاوم المرء القضاء والقدر.. كلا.. لا تتكلموا.. فإنى أوثر أن أقضى نحبى في سلام وبغير ضجة».

وفي هذه اللحظة وقفت إلى جانبنا سيارة ونزل منها رجل لم نك نبصره حتى أيقنا أنه إنجليزى، وحقق هو ظننا فقال لنا بلغته: «هل أستطيع أن أساعدكم؟

فسرحت له الأمر وعرفته خطينا، فابتسم وهم بكلام ولكن ابن عمى قال له: «امض عنا.. اذهب.. وحدك.. إن أمامنا ماردا وقد حذر السيارة من المضى ففهمت عنه.. كان صريحا فيما قال لها، اذهب وأرجو لك السلامة».

فابتسم الرجل ودعاه إلى النزول، واتخذ مكانه.. وصعد بنا إلى رأس التل، ولم يكتفى بذلك بل ظل معنا - على مسافة منا.. وراءنا - حتى فرغنا من المربعات، وصار الطريق بعد ذلك سهلا منبسطا، فشكرا له ولكن أى شكر يمكن أن يفى بحسن صنيعه ومروعته؟

وكان مساء.. ثم كان صباح.

ولم يكن النهار قد ارتفع ولا كانت الشمس قد علت، لما دخلت على «فرحة» تواظن قبلي موعدى المألف بساعتين، وتخبرنى أن أختى تصبح علىٰ وتدعونى إليها فى غرفتها. وقد عجبت، وحق لى أن أعجب.. فما أعرف موجبا لإزعاجى فى مثل هذه الساعة المبكرة – السابعة من فضلك – ومع أختى زوجها، فما حاجتها إلى؟ وقد حاولت أن أهمل هذه الدعوة، ولكن «فرحة» أبت أن تمضى عنى وتدعنى أستأنف النوم.. فتمطيت وفركت عينى وتثاءبت وقلت لها: «ماذا هناك يا فرحة؟»

فقالت بلهجتها الهادئة المطمئنة وصوتها المتزن النبرات الذى لا أذكر أنه ارتفع عن هذه الطبقة مرة واحدة في عشرين عاما قضتها معنا مذ كانت طفلة: «إن الأمر يستدعي وجودك».

وفرحة عاقلة ذكية وحريصة دققة العبارة، قد رباهما أبي مع أختى وعُنى بتعليمهما أيضا، وجعل لها حصة في الوقف الذى وقفه قبل وفاته. وكانت هذه مفاجأة سارة لنا، فقد أحبابنا فرحة حب الأخت. وكانت هى – وما زالت – ربة البيت. ولسننا نعاملها معاملة الخدم وإنما ندعها واحدة منا لها علينا مثل الذى لنا عليها. وحسبك منها، أنها ما أخذت في حياتها معنا أجرا على خدمة، وأنها بعد وفاة أبيينا لم تحاسبنا قط على ريع حصتها وإن كنا نودعه البنك باسمها.. فإذا أرادت ثوبا أو خاتما أو غير ذلك طلبته منا، كما يمكن أن تطلبه أختى منى أو من زوجها. فإذا كانت تقول الآن أن الأمر يستدعي وجودى، فقد صار القيام لأبد منه.

ودخلت على أختى وورائى فرحة، فألفيتها مستلقية على السرير في منامة قرمزية مزركشة ومعتمدة بکوعها على وسادة وثيرة مربعة محشوة بريش النعام وخدتها على راحتها ويسراها على فخذها وبين أصبعيها سيجارة.. وكان منظرها فاتتنا فإنها جميلة مشوشقة، وكانت هذه الرقدة تبرز خطوط جسمها الرشيق وبراءة الانحناءات فيه. وكان زوجها قاعدا فوق السجادة، فنظرت منها إليه وقلت: «لا عجب أن تدللها.. لست بإنسان إذا لم تفعل».

فابتسمت مسروبة وأدنتنى منها وقبلتني، وقالت: «جلس هنا.. إلى جانبى على السرير.. وأنت يا فرحة.. قصى عليهم الحكاية» فأراحت فرحة أناملها على شباك السرير وأشارت بيدها الأخرى إلى منضدة صغيرة قريبة وقالت: «قبل أن أترك الغرفة وضعت بيدي عقدها – وأشارت إلى أختى – على هذه المنضدة، وفي الصباح دخلت عليها فلم أجده.. وسألتها عنه فقالت إنه في مكانه، فذهبت إلى البك – تعنى زوجها فإن

فرحة مؤدية — وسألته فجعل يضحك ويتحسّس عنقه ويقول إنه ليس هنا.. هذه هي الحكاية».

فقلت متمما لها كلامها: «فجئتم بشرلووك هولز ليحل اللغز ويضع يده على اللص.. أشك لكم هذه الثقة العظيمة».

فقالت أختى، وهى تضحك: «العفو.. الواقع أن كل ما ذكره هو أنى قمت بالليل، وغبت عن الغرفة دقائق، ومررت في عودتى بغرفة هذا الزوج الصالح.. ولكن شخيرة كان عاليا فهربت».

فنهض ابن عمى محتجا وقال وهو يتمشى: «شخيرى.. هل تريدين أن تقولى إنك أفردت لي غرفة من أجل شخيرى.. شخيرى.. ليتك ترين نفسك في المرآه وأنت نائمة. إذن لرأيت كيف ترميin اللحاف وتضربين برجلك هنا وبيك هناك، كالأطفال بلا أدنى فرق. لقد تزوجت طفلة حين تزوجتك.. تقول شخيرى.. مثل هذا الطعن القبيح على سيدها وتابع رأسها، هل يليق يا فرحة؟»؟

فابتسمت فرحة ولم تقل شيئاً. وماذا عساها تقول، وشخيره يزعج الجيران حتى لقد جلا السكان عن هذا الحي، وخربت بيوت أصحاب العمائر فيه. ... وانتهت ضجة الضحك أخيراً — ولكل شيء آخر — فقلت: «ماذا كان شرلووك هولز خليقاً أن يصنع في مثل هذه الحالة؟»

فصاح بي ابن عمى: «دع الفلسفة من فضلك.. الأمر واضح.. البيت موصد من كل ناحية والمنافذ كلها مسدودة، فالذى أخذ العقد لم يجيء من الخارج وإنما هو ولا شك واحد ممن في البيت».

فصحنا جميعاً — ما عدا فرحة فإنها مؤدية.. «برافو.. برافو..» فلم يعبأ بنا ومضى يقول: «الجديد علينا هو ابن العمدة.. فهو السارق».

فلما نطق بهذا، صحننا به جميعاً — حتى فرحة وإن كانت مؤدية — فلم ينهزم، وقال وهو يعود إلى الجلوس على الحشية: «لا بأس.. ولا داعي للصياح.. المسألة بسيطة، إذا لم يكن هو اللص فمن عسى أن يكون غيره؟»

فقلت: «أنت مثلاً.. لم لا؟»

ففقهه، فقلت: «ألا يمكن أن تكون قد أخذته لتضعه في مكان أمين ثم نسيته كعادتك؟ إنك هكذا وأنت تعرف ما يكلفنا نسيانك. قم انظر أين وضع العقد، واذكر الأسفنجه.. قبل أن تعرتض وتحتج.. قم من فضلك».

فقالت أختي وهي تعتلل في مجلسها: «يا سليم.. إني لم أخطئ حين أزعجتك.. كلا، وأنا الآن واثقة أن ابن العم قد نسي أين وضعه».

فصاح بها محتاجاً: «ولكنى يا ستي لم أدخل غرفتك.. ودعوك - أعني قبلك ولا مؤاخذة يا سليم، فهذه عادة الأزواج - ثم لم أعد.. فكيف يمكن أن أكون قد أخذته؟»

قالت وهي تقف: «تذكر.. حاول أن تتذكر..».

وزدت أنا على قولها: «جرب مرة واحدة أن تكلف هذا الرأس عملاً.. لا تخاف أن تتعب».

فمضى عنا إلى الباب وهو يقول: «إني ذاهب إلى الحمام..».

وهنا ينبغي أن أقول إن العقد الذي غاب مما ورثناه عن أمي، وهو من اللؤلؤ النفيسي.. وكانت حباته نحو مائتين، وأكثراها من الكبار في حجم الفولة، وقد رأينا أن نجعل منه عقداً واحداً صغيراً أعطيناه لفرحة، وبقى الكبير وأخر صغير لأنّي..

فكان إذا لبست أحدهما تلفه على نحرها الجميل، وغير معقول أن يسرق منها وهو على نحرها. على أن الأمر لا محل فيه للتخمين، فقد قالت فرحة إنها وضعته على المنضدة.. وفرحة صادقة، ثم أن ذاكرتها لا تخونها أو تعابثها كما تعابث ابن عمى -

أحمد - ذاكرته. ولم يكن أسفخ من قوله - وإن كان يمزح على عادته - إن ابن العمدة «حسن» هو الوحيد الذي تتجه إليه التهمة، فإن «حسناً» هذا من سرة الناس، وهو فوق ذلك من أقرباء أحمد الأذنين. وقد ذكرت ذلك لأريك إلى أي حد يذهب أحمد في مزاحه.

ولا أحتاج أن أقول إننا استقبلنا يومنا مكتبيين مهمومين محزونين، فإن العقد قيمته الذاتية والمعنوية.. وقد كنا نتكلّف المرح ونبدي صفحة البشر ونتلقى الأمر بما يشبه الاستخفاف، لأننا اعتدنا أن نواجه الأمور على هذا النحو، وربانا أبوانا على الجلد وضبط الإحساس. أما أحمد فكان بطبعته هزاً لا يركب الحياة بالدعاية والبشاشة والعبث، وقد أحبنا وأحببناه وأنس بنا وأنسنا به، فعاش معنا وأثر بيتنا على بيت أبيويه، وانتهى الأمر بما كان لابد أن ينتهي به - أي أن يتزوج أختي - ولست أعرف أسرة أخرى تعيش هذه العيشة السعيدة الرغيدة. وحسبك أن المال موفور وأن الطياع رضية والأمزجة متطابقة.

ومن عادة أحمد أن يغنى وهو في الحمام. ولست أعني أنه يغنى الأصوات الشائعة، وإنما أعني أنه وهو في الحمام يصف كل ما يعلم، ويرفع الصوت بالغناء بهذا الوصف..

فإذا كنت على مقربة من الحمام لم يسعك إلا أن تسمعه يقول — أو يغنى على الأصح: «أين الأسفلنجة يا سيدي.. لابد أن تكون هذه الزوجة المهملة قد ضيعتها.. ومن يدرى يا حبيبي.. فعلها خبائتها عمدا.. آه يا روحـي.. وأين الكبريت.. أظنـني نسيـته.. هذا خازوق يا حـبيـبي.. وكيف أـسـخـنـ المـاءـ الـآنـ؟ يا لـعـنـةـ اللهـ اـنـزـلـيـ عـلـىـ رـأـسـ الذـيـ اـخـتـرـ التـدـفـقـةـ بالـغـازـ.. آهـ ياـ عـيـنـيـ.. وـالـلهـ وـحـسـهـ.. نـجـدـ الـكـبـرـيـتـ فـلـاـ نـجـدـ الـقـرـشـ الـذـيـ نـضـعـهـ فـيـ الثـقـبـ لـيـنـطـلـقـ الغـازـ.. وـيـسـخـنـ المـاءـ فـلـاـ نـجـدـ الـأـسـفـنـجـةـ.. وـأـجـدـ كـلـ ذـلـكـ وـأـنـامـ فـيـ الـحـوـضـ، وـيـبـدـأـ الشـعـورـ بـالـرـاحـةـ إـنـذـاـ بـالـغـازـ قـدـ فـرـغـ.. وـأـخـذـ المـاءـ يـبـرـدـ.. وـيـجـبـ أـخـرـجـ مـنـ الـحـوـضـ لـأـضـعـ قـرـشاـ أـخـرـ فـيـ الثـقـبـ وـأـبـحـثـ عـنـ الـكـبـرـيـتـ.. وـالـكـبـرـيـتـ مـبـلـولـ.. مـعـلـومـ يـاـ سـيـديـ.. أـوـ الـكـبـرـيـتـ فـرـغـ.. طـبـيعـيـ.. أـصـيـحـ.. وـمـنـ يـسـمـ.. أـلـبـسـ الـبـرـنـسـ وـأـخـرـجـ لـأـجـيـءـ بـكـبـرـيـتـ.. خـازـوقـ أـخـرـ يـاـ حـبـيـبـيـ.. لـقـدـ سـيـبـتـ الغـازـ مـفـتوـحاـ.. فـالـحـمـامـ كـلـهـ غـازـ.. وـسـتـخـنـقـ يـاـ وـلـدـ إـذـاـ لـمـ تـفـتـحـ النـافـذـةـ.. اـفـتـحـ يـاـ سـيـديـ وـابـرـدـ.. وـحـوـحـ يـاـ حـبـيـبـيـ مـنـ الـبـرـدـ.. الـذـيـ سـمـىـ هـذـاـ حـمـامـاـ كـانـ وـلـاـ شـكـ اـبـنـ حـرـامـ».

وهـكـذـاـ إـلـىـ غـيرـ نـهـاـيـةـ.. وـمـنـ تـحـصـيلـ الـحـاـصـلـ أـقـوـلـ إـنـنـاـ اعتـدـنـاـ أـنـ نـقـفـ قـرـبـ الـحـمـامـ كـلـمـاـ دـخـلـ فـيـهـ أـحـمـدـ لـنـعـرـفـ مـاـ يـجـرـىـ فـيـهـ، فـنـقـعـ عـلـىـ الـأـرـضـ مـنـ كـثـرـةـ الـضـحـكـ.. وـلـابـدـ أـنـ يـحـدـثـ لـهـ شـيـءـ لـاـ يـحـدـثـ لـسـواـهـ، لـأـنـهـ كـمـاـ أـسـلـفـتـ سـرـيـعـ النـسـيـانـ.. يـنـسـيـ أـيـنـ وـضـعـ الـإـسـفـنـجـةـ وـأـنـهـ رـمـىـ الـكـبـرـيـتـ فـيـ الـحـوـضـ، وـيـنـسـيـ أـنـهـ نـسـيـ مـعـهـ بـقـرـوشـ لـيـضـعـهـ فـيـ الثـقـبـ.. إـنـهـ يـبـقـيـ فـيـ الـحـوـضـ سـاعـةـ وـسـاعـتـيـنـ وـهـكـذـاـ.. وـلـوـلـاـ أـنـهـ نـسـاءـ لـعـابـثـنـاهـ عـامـدـيـنـ لـنـضـحـكـ، وـلـكـنـهـ أـغـنـانـاـ عـنـ ذـلـكـ.

وـكـانـ حـسـنـ قـدـ اـسـتـيقـطـ وـنـهـضـ لـيـلـحـقـ بـنـاـ وـيـجـلـسـ مـعـنـاـ، فـأـلـفـانـاـ عـنـ الـحـمـامـ وـاقـفـينـ وـإـنـ كـانـتـ المـقـادـعـ فـيـ الدـهـلـيـزـ، فـحـيـاـ بـيـدـهـ.. فـأـشـرـنـاـ إـلـيـهـ أـنـ اـسـكـتـ.. وـرـأـنـاـ نـبـتـسـمـ وـأـحـسـ مـنـ هـيـئـتـنـاـ أـنـنـاـ نـتـسـمـ، فـمـشـىـ عـلـىـ أـطـرـافـ أـصـابـعـهـ وـوـقـفـ مـعـنـاـ يـصـفـيـ أـيـضاـ، وـكـانـ أـحـمـدـ يـقـولـ: «الـعـقـدـ ضـاعـ.. قـالـ ضـاعـ.. كـلـمـ فـارـغـ يـاـ حـبـيـبـيـ.. وـالـلـهـ مـاـ أـخـذـ إـلـاـ هـذـاـ الـحـرـامـيـ الـذـيـ نـزـلـ فـيـ ضـيـافـتـنـاـ.. بـالـطـبـعـ سـرـقـهـ فـيـ عـمـرـ أـمـهـ مـاـ رـأـتـ مـثـلـ الـأـقـارـبـ عـقـارـبـ يـاـ سـيـديـ.. ضـاعـ الـعـقـدـ يـاـ سـتـىـ.. أـنـاـ مـلـاـعـنـ يـاـ حـبـيـبـيـ.. هـاتـ لـىـ عـقـدـ غـيرـهـ يـاـ سـيـديـ.. طـبـعاـ يـاـ مـامـاـ.. مـنـ يـدـرـىـ.. لـعـلـ الـعـقـدـ لـمـ يـضـعـ.. أـيـوهـ يـاـ سـيـديـ.. لـمـ يـضـعـ.. الـأـرـجـحـ.. وـالـمـعـقـولـ أـنـ يـكـونـ فـيـ الدـوـلـابـ.. أـخـفـتـهـ الـزـوـجـةـ الـصـالـحـةـ لـأـشـتـرـىـ لـهـ عـقـدـاـ سـواـهـ.. النـسـوـانـ مـلـاعـنـ يـاـ رـوـحـيـ.. قـالـوـاـ الـعـقـدـ ضـاعـ.. ضـاعـ فـيـنـ يـاـ أـهـلـ الـقـوـنـطـةـ، لـاـ يـاـ سـتـىـ الـعـقـدـ فـيـ الدـوـلـابـ، وـالـغـرـضـ مـرـضـ».

وكان يبدئ ويعيد في هذه المعانى.. فأما حسن فلم يفهم وكان ينظر مني إلى أختى، وكان يرانا نضحك فيتكلف الضحك مثنا.. وأما أختى فضحك أولًا ثم لما سمعته يتهمها بأنها خبأت العقد لتطالبه بحلية.. تجهمت، فشدت على ذراعها، فنظرت إلى مبتسمة وهزت رأسها، وعاد إلى وجهها الإشراق.. ولكنها لم يسعها إلا أن تقول لنا ونحن نمضى عن الحمام قبل أن يخرج هو علينا: «شف.. ينسى أين وضع العقد ثم يدعى أنى خبأته.. طيب...».

وقال حسن: «ألا تقول ما هي الحكاية؟»؟

فضحكت، وقلت: «الحكاية باختصار إن أختى لا تجد عقدها.. وأحمد يتهمك بسرقة العقد.. لقد سمعته بأذنك.. والآن أفهمت؟»
وكانت هذه صدمة، فإن معرفة حسن بأحمد يسيرة، وإن كان من أقاربه الأدنى.. ولكنه احتمل هذه الصدمة، وأسرعنا نحن فعرفناه بأساليب قريبه، فضحك معنا.. ولكنه مع ذلك صار يطرق من حين إلى حين.

وخرج أحمد أخيراً ودخل علينا وفي يده صحيحة يتأملها وينظر إلى الصور التي فيها فما كانت له عناية بقراءة الصحف.. وجلس إلى المائدة وأدار عينه فيما عليها، ثم سأل: «ماذا أعددت لنا يا امرأة؟»؟

فاغتنمت أختى هذه الفرصة، وصاحت: «ألا تنتظر حتى يستعد الباقيون للأكل؟ ما هذه الشرارة؟ ثم كيف تزعم أنى أخفيت العقد لتشترى لي سواه؟»؟
فقال بيضاء: «الجواب على السؤال الأول باللفى.. النفي البات.. أما الشطر الثاني من السؤال، فإن الرد عليه يكون بعد الأكل.. فإنه يحتاج إلى عقل، والعقل يذهب به الجوع». فعادت تصريح به: «ولكن كيف تجرؤ؟»؟

فقال بهدوء: «من الغريب أنى جئت إلى هنا لأكل لا لأتكلم أولاً يا امرأة». فقالت: «هل عنيت بالبحث في ثيابك؟ بالطبع لم تعن..».

فالتفت إلى حسن، وقال: «شف يا حسن.. شف.. احذر يا ابني أن تتزوج.. لا عذر لك وقد رأيت بعينك ما تصنع الزوجات ببعولتهن».
فقال حسن: «أظن أنى سأتزوج.. وعلى فكرة كيف تسمح لنفسك أن تتهمنى بالسرقة؟»؟

فرفع أحمد يديه إلى السماء، ثم التفت إلى حسن وقال: «وأنت أيضاً؟ لم يبق لي عيش في هذا البيت.. فلأرحل». ونهض، وقال: «يا امرأة، إنى في المكتب».

لم ندع مكانا في البيت إلا بحثنا فيه، ولا ثوبا في خزانة أحمد إلا نفضناه وقلبنا جيوبه.. حتى السجاجيد رفعناها ونظرنا تحتها. حتى الستائر نحيطناها وأجلنا عيوننا فيما وراءها وفيها أيضا مخافة أن يكون حبل العقد قد علق بشيء منها. فلم نجد عقدا ولا حبة من عقد، فبيئتنا وحل الاكتئاب محل البشر، فقد كنا إلى ما قبل ذلك نعتقد أن العقد موجود في مكان ما ولكن أعيننا لا تراه. وقد أعدنا البحث مرة أخرى لظننا وتوهمنا أننا تخططنا بعيوننا ونحن ندبرها كما هي العادة في حالة الاضطراب. ولم يكن أحمد يعفينا من مزاحه في خلال هذا البحث المتعب.. فلما كفينا، قال وهو يضطجع ويشعل سيجارته: «لا فائدة.. لقد كنت أعلم من أول الأمر أن لا فائدة.. قلت لكم مائة مرة أن هذه الزوجة تعرف أين يوجد العقد.. نعم، هي خبأته». فصاحت به: «الآن يمكن أن تسكت؟»

فقال: «أسكت كيف.. وأنت تحمليننا كل هذه المشاق من أجل خرزات؟.. ولم يتمها.. فقد هاجنا به احتجاجا على وصف حبات اللؤلؤ بأنها خرزات.. ولما هدأت الضجة، قالت أختي: «اسمعوا.. إنني لم أعد أطيق البقاء هذا النهار في البيت، فلنذهب إلى أي مكان آخر ولننعد هناك».

وكان هذا اقتراحا حسنا، فإن بقاءنا في البيت كان خليقا بأن يغرينا باستئناف البحث مرة أخرى، فنشقى على غير جدوى. فمن الخير أن نخرج وأن نقضي النهار في مكان آخر ثم نعود.. ومن يدرى؟ فقد نجد العقد تحت عيوننا حين نعود كما يحدث كثيرا. وما زلت أذكر كيف كنت أبحث مرة عن قلمي وكانت أختي معى، فلما تعبنا جلسنا على الكراسي وهممت بأن أخرج سيجارة وإذا بالقلم بين أصابعى.. ومن الغريب أن أختي لم تره في يدي كما لم أره.. وقد ذكرت أختي بهذه الحكاية أو الحادثة، وفي مرجوى.. أن أبعث في نفسها الأمل، فلا تقضى النهار يائسة، وإن كانت تتتشجع وتتجدد ولا تبدي جزعا.

وسمت إلى حمامي على حين راح غيري يلبس الثياب استعدادا للخروج.. وكان طبيعيا أن يفرغوا من شأنهم قبل وأن يستبطئونى، فإني أنا في حركة دائمة في الحمام، وهم لا يصنعون شيئا بعد أن لبسوا الثياب ووقفوا ينتظرون.. وليس أشد على المضطرب القلق من الانتظار. فأقبلوا على باب الحمام يدقون عليه بأيديهم وينقرون بأصابعهم، ويدعونى أن أسرع..

وأخيرا خرجت.. فما يمكن أن تكون لست محظوظا أو لذة وعلى بابه من يصيحون به ويُسمعونه ما يكره، فلتحقوا بي في غرفتي ولكنني أخرجتهم منها بجهد.. فإني

مستعد أن أحتمل كل شيء إلا أن يحيط بي هؤلاء الصائدون الصاخبون وأنا ألبس. على أني أسرعت وعجلت لأتقى شر هجومهم على كمة أخرى، وكانت ساقى لا تزال أحسها ثقيلة مما أصابها في السويس وهاضها، وإن كانت لا تؤلمنى. فلما صرت إليهم في الردهة وقفت هنيئة أدعكها بكفى لاليتها، فسألتني أختي: «ألا تزال تؤلمك؟» قلت: «كلا.. لا ألم ولكنني أحسها ثقيلة.»

فقال ابن عمى: «كلك ثقيل يا أخي.. تعال..».

فقلت: «ولكنى حقيقة أشعر أنها أثقل مما كانت أمس.»

فقالت أختى: «طبعى.. هذا من الجهد الذى تكلفته اليوم فى البحث..».

فاقتنتع ونزلنا إلى الباب، وكان ابن عمى قد جاء بالسيارة قبل ذلك وتركها أمام الباب، فجلست أختى ومعها حسن على المendum الخلفى، واتخذ أحمد مكان القيادة، وقلت له وأنا أفتح الباب الآخر لأجلس إلى جانبه: «لعل درس الأمس نفعك، فلا تكرر أخطاءك المعتادة..».

فزان أولا، ثم قال: «ولكن إذا كنت ت يريدون أن أشرفكم بتولى القيادة العامة.. أفلأ يحسن أن أعرف إلى أين يراد منى أن أحملكم؟»

فقالت أختى: «أوه.. إلى أى مكان.. إلى القناطير الخيرية إذا شئت أو إلى أى مكان تحب..».

قال حسن: «إلى القناطير إذن. اركب يا هذا.. ألم ت يريد أن أنزل وأحملك؟» وكان الركوب يحوجنى أن أحمل ساقى بيدى، لأن ثنيها كان يؤلمنى في موضع الركبة.. فجلست على المendum ووجهى إلى الباب وملت على ساقى وهى ممدودة لأحملها وأدور بها لأدخلها في السيارة. ثم ارتدت ضاحكا، فسألتني أختى عن الخبر، فقال لها زوجها: «دعى.. إنه يحلم. لا يزال نائما.. ألا تريدين؟.. أعني ألا تسمعين؟»

فمسحت أولا الدموع التى ترقرقت في عينى من فرط الضحك، ثم مسحت بطنى التي صارت توجعني.. ثم تنهدت وقلت: «أخ.. مسألة طريفة جدا..».

فقالت أختى: «ولكن ما هي الحكاية؟ أتظن أن من اللائق أن نقف ساعة أمام الباب؟»

قلت: «أظن أن الواجب أن ندخل.. نعود إلى البيت دقائق قبل أن نخرج إلى رحلتنا.. فنهضت أختى عن مقعدها قليلا وزحفت إلى الأمام مقدار شبر ووضعت كفها البضة على كتفى، وقالت: «لا تعذبني انطق». قلت: «لا حاجة بي إلى الكلام.. خذنى».

وانحنیت فأخرجت العقد المفقود من طية البنطلون عند حرفه، ورفعته إلى عينها
وقلت: «لقد كنت أظن أن ساقى اليوم أسوأ مما كانت أمس لأنى أحسها أثقل.. فالآن
عرفت السبب، ولكنى لا أعرف كيف سقط العقد في طية البنطلون..».
ولا أزال إلى الآن أجهل كيف أمكن أن يحدث هذا، وإنما الذى أعرفه أن أختى
نعمت فى يومها هذا، وأن ابن عمى حاول أن يرکبنى بعثة المألف.. فوضعت كفها
على فمه، فقبل أصابعها، ثم عضها، فصرخت. فقال: «هذا جزاء من يدافع عن السّراق
واللصوص والخونة»!

الفصل الخامس

الجارة

كثيراً ما أطلب العزلة والهرب من الناس لا لأنى أكرههم أو أنفر منهم، بل ليتسنى لي أن أخلو بمنفسي وخواطري. ولست أعنى أنى أشتهرى أن أكون في مكان خلاء.. وإنما أعنى أنه يحلو لي أحياناً أن أرى أن كل من حولي ممن لا أعرف. ولا أدرى كيف هذا.. ولكنه يخيل إلى حين يتتفق لي ذلك، أنى خلعت ثيابى على ساحل بحر ورميت نفسي على مائه ورحت أسبح فيه، وأضرب بذراعى ورجلى، وأفعل غير ذلك مما يفعل السابح. وما أعرف من السباحة شيئاً.. وأنى لشبيه بابن الرومى الشاعر الذى يقول في بعض شعره إنه لم يتعلم من السباحة سوى «الغوص» وأنه لو ألقى به في الماء لسبق الحجر. ولكن هذه هي الصورة التي ترسم بذهني حين أراني في حشد كبير ممن لا أعرف من الخلق. وكثراً ما يسألنى أخوانى: «أين كنت البارحة؟» فأقول: «كنت في السينما» فيسألوننى: «وحدرك؟» فأقول: «نعم مع الأسف» ولا داعى للأسف، ولكننى أقول ذلك لهم على سبيل المjalma، فيقول قائلهم: «ولم لم تخبرنا؟.. إذن لذهبنا معك وأنس بعضنا ببعض» فأقول: «أى والله.. ولكن هذا هو الذى كان، فلندعه إلى الحاضر الذى نحن فيه».

وفي نوبة من هذه النوبات، ركبت سيارتي وانطلقت بها إلى سينما «المتروبول» وأنا أحذث نفسي بما أرجو أن أفيده من السرور والمتعة حين أرى تلك الطفلة الفاتنة «شيرلى تمبل» من غير أن يكون إلى جانبي أحد يقول لي: «انظر.. يا سلام أما إنها لراقصة.. يا للبراعة. كيف استطاعت أن تجيد التمثيل إلى هذا الحد؟ ترى كم ينقدونها أجراً لها في الأسبوع؟.. إلى آخر هذا الهدر الفارغ الذى يفسد على كل متعة.

ووقفت أمام الشباك ومددت يدي إلى الفتاة بثنين التذكرة، وإذا بيد على كتفى.. فأبكيت أن ألتقت إلا بعد أن آخذ التذكرة، ويحل غيرى محلى محل الشباك مخافة أن يكون هذا صديقاً فيلازمنى، وماذا يبقى لي حينئذ من الوحدة التي أطلبها وأحدث

نفسى بحلوتها. ومن يدرى أى صديق هذا؟ فقد يكون من أحب وآنس بهم وأرتاح إليهم، وقد يتفق أن يكون من الثقلاء الذين يفرضون أنفسهم على الناس، فلا مهرب لمن يقعون عليه. وأحسست أنى نجوت فقد اخترت مقعداً بين مقاعد أخرى ليس واحد منها خالياً، فأنا على الأقل في أمان من جيرة هذا الذى وضع كفه على كتفى. ووسعنى أن التفت إليه وأنا مطمئن لأرى أى إنسان هو.. فلم يخب ظنى، فقد كان من ينبغى أن يهرب المراء منهم ويسائل الله السلامة من صحبتهم، فسألنى: «وحدك؟» فكرهت أن أكذب واكتفيت بأن أشر بيدي، وأنا أمضى عنه، إشارة قد يكون معناها أن معى غيري أو أنى ذاهب إلى مكان ما أو غير ذلك، مما يمكن أن يفهمه الإنسان من إشارة غامضة كهذه.

ونجوت بنفسي، وكان في الوقت متسع.. فقلت لنفسي: إنى أخشى أن يلحق بي فلابعد. فرحت أتمشى على الرصيف في شارع فؤاد – وهو يغص بالناس في مثل هذه الساعة – فجعلت أنظر إلى الرائحين والغادين أو لعل الأصح أن أقول الرائحات والغادييات وهن مقبلات ومدبرات في ثيابهن المحبوكة التفصيل. التي تبدى منهن أكثر مما تستر. نعم تستر الجسم، ولكنها تعرض على عينك صورة للقوم هي أربع من صورة البدن العاري. فقد يكون الثدى مسترخياً فيرفعه ويبرزه الرباط، وقد يكون الخصر أكثر امتلاء مما يجب.. فيرده حسن التفصيل أهيف ويبرز من تحته الردفين. ولم أزل أتمشى حتى آن أعود، وإذا فتاة أعرف وجهها ولا أجهل أين بيتها، فإنه قريب من بيتي.. وكثيراً ما رأيتها في شرفتها أو داخلة أو خارجة من البيت أو نازلة من الترام. وأحسبها تعرفني كما أعرفها، فقد لفت وجهها وأطللت النظر إلى – في عيني – فيبينا معرفة يسهل جداً أن تصبح وثيقة في أوجز وقت، إذا أمكن أن يفتح أحدهنا فمه بكلمة. ولكن من هو الذي ينبغي أن يبدأ؟ أما أنا فإنه من العسير على – بل من المستحيل كما تبيّنت ذلك بالتجربة المرة – أن أبدأ إنساناً لا أعرفه بكلام، رجلاً كان أو امرأة. وقد خطر لي وهي تنظر إلى – لا بل تتحقق في وجهي – أن في وسعي على الأقل أن أبتسّم. ولم لا؟ إن الابتسامة تحيةٌ طريفة، فإذا قابلتها بمثلها انتهى الأمر، واستطعت أن أنتقل أو أترقى إلى الكلام. وإذا أغضت عنها كأنها لم ترها، ففى مقدوري أن أعزى نفسى بأنها خجلت أو أنها خشيت ألا تكون هي المقصودة بها. وإذا قابلتها بالعبوس أو غير ذلك من مظاهر الامتعاض والنفور، ففى إمكانى أن أزعم لنفسي مغالطاً أنى لم أكن أعنيها حين تبسمت، وأن أهز كتفى استخفافاً بها كأنما أريد

أن أقول إنها ليست المرأة الوحيدة في هذه الدنيا، وإنها ليست أجمل الفتيات، وإنها حرة.. ولها إذا شاءت أن ترفض نعمة الاتصال بي.

دار كل هذا بخاطري، وأنا أنظر إليها وهي تنظر إلى، وكان ينبغي أن أتبسم.. فما في ذلك بأس، ولكنني لفطر شعوري بنفسي خشيت أن أبدو كالآباء، وووبيت في هذه اللحظة لو أن معى مرأة فأنا أنتظر فيها إلى وجهي، وأرى كيف يكون حين أبتسم لفتاة لا أعرفها. ولكنني أرجو أن تفتئنها الابتسامة وتغريها بمثيلها – على سبيل التجربة – وأين المرأة؟ ومتى كان الرجال يحملون المرايا معهم كالنساء؟ وهب مع الرجل مرأة، فهل يستطيع أن يخرجها ويتأمل وجهه فيها ويروح بيتسم وحده وهو يفعل ذلك كالمحظون!

وذهبت الفتاة وغابت عن عيني، وأنا أحذر نفسي بهذه السخافات.. وضاعت الفرصة وأزف الوقت، فعدت إلى السينما وأنا أقول لنفسي: «ألم يكن في وسعي أن أدنو منها وأقول لها مثلاً إننا جاران من قديم أو كلاماً آخر كهذا ... كلاماً أربع من هذا وألطف وأوقع في النفس فإن كونها على طريقى إلى البيت لا يستوجب أن تعرفي وأعفرها؟»

وذهبت أنشئ أحاديث وأتخيل حواراً بيني وبينها من أظرف وأرق ما يمكن أن يخطر على البال، وكانت وأنا أتخيل ذلك أحس أن وجهي ترتسم عليه المعانى التي تدور في نفسي.. فخجلت وخفت أن يرى الناس ذلك مني فيتعجبوا ويشكوا في عقلـي – أعني في صحته – وكانت قد بلغت المدخل، فدفعت «التذكرة» إلى العامل فتقدمني ووقف عند صـفـ، وأشار إلى موضع الكرسى وقال: «ال السادس» فسألته على سبيل التثبت: «الثالث؟» قال: «لا.. لا.. السادس...» فاستأذنت الجالسين ودخلت بظهرـى – أعني أن ظهرـى كان إليـهم وأنا أخطـو أمامـهم متـحرـزاً – فلم أر وجـوهـهم ثم جـلست وبدأت أـلتـفتـ، فـما راعـنى إـلاـ أنـ الفتـاةـ جـالـسـةـ إـلـىـ جـانـبـيـ..

ولا أدرى لماذا فـزـعتـ.. وقد كان المـعـقـولـ أنـ يـسـرنـىـ هـذـاـ لـأـنـ يـتـيـحـ لـىـ فـرـصـةـ جـدـيدـةـ، فقد تـلـقـىـ يـدـىـ بـيـدـهـاـ أوـ تـقـعـ رـجـلـهاـ عـلـىـ رـجـلـهـ فـأـعـتـذـرـ بـأـدـبـ وـأـعـرـبـ لـهـاـ عـنـ الأـسـفـ فـيـفـتـحـ بـابـ الـكـلـامـ الـمـوـصـدـ. أوـ قدـ تـضـحـكـنـاـ «ـشـيرـلىـ»ـ بـنـكـاتـهـاـ أوـ بـحـسـنـ أـدـائـهـاـ فـأـلـتـفـتـ إـلـىـ جـارـتـىـ فـأـرـاهـاـ تـضـحـكـ مـثـلـ،ـ وـيـمـنـعـهـاـ السـرـورـ فـهـذـهـ الـلـحـظـةـ السـعـيـدةـ أـنـ تـعـبـسـ أوـ تـقـابـلـنـىـ بـالـجـفـوةـ.ـ وـلـكـنـىـ فـزـعـتـ كـمـاـ قـلـتـ وـلـمـ أـشـعـرـ بـسـرـورـ.ـ وـإـنـمـاـ كـانـ فـزـعـىـ لـأـنـىـ تـوقـعـتـ أـنـ أـعـجزـ عـنـ اـغـتـنـامـ هـذـهـ فـرـصـةـ الطـوـيـلـةـ.ـ وـهـىـ إـذـ ضـاعـتـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـعـودـ

— فأروح أوسع نفسي بعد ذلك تأنيبا وتقريعا وذما وهجاء. وأدرت عيني في المكان لأرى هل فيه من يعرفني.. أو على الأصح من أعرفه أنا؟ فإن من عوامل التشجيع أن يشعر المرء أنه غير معروف، وخجل المرء من يعرف أقوى من خجله من لا يعرف في مثل هذه المواقف.. على أنني لست على يقين من هذا، فقد يكون وجود الإخوان دافعا إلى الجرأة، والإنسان لا يسره أن يعرف أصدقاؤه أنه جبان.

ولم أر وجهها أعرفه، فأخترت سيجارة وأشعلتها، ورحت أدخن. وخطر لي وأنا أفعل هذا أنه يحسن أن أستاذها.. فلعلها لا تحتمل الدخان، وهذا أدب لا ضير منه، ثم أنه مألف. ولكن الوساوس لم تترك لي راحة. فقد قلت لنفسي إنني أستطيع أن أستاذن أي فتاة أخرى فلا تستغرب ولا تستريب، أما هذه فإنها خلقة أن تتوجه أني أتحك بها وأحتال للكلام معها. ثم عدت فقلت لنفسي إنني أريد أن أكلمها، وما أظن بها إلا أنها تعرف ذلك. نظرت إليها تishi بهذه الرغبة. ولماذا لا أكلمها؟ أى بأس هناك في ذلك؟ ولماذا أقدر أن يسوءها كلامي؟ ومن يدريني أنها لا ترغب في كلامي؟ ولكن ماذا بالله يدعوها إلى الرغبة في قزم دميم الخلقة مثل؟ سخافة... كلا، لست دميميا إلى هذا الحد المنفر، ثم إن رأى المرأة في الجمال غير رأى الرجل.. أو هههه.. لقد وصلت إلى الكلام في الجمال. أما إنني والله. لسخيف..

وضحكت.. فالتفتت إلى مستغربة، فليس من المألف أن يضحك العاقل وحده ومن غير أن يكون هناك ما يوجب الضحك. فلها العذر إذا كانت قد استغربت.. ووجمت أنا، وخيل إلى أنها تنتحت قليلا. ومن المحقق على كل حال أنها لمست طرف المعطف وكان متديلا، فجعلته على فخذها. فسخطت على نفسي وصبت وجهي في قالب صارم من الجد، وجعلت عيني إلى الستار لا أحولها عنه.

وبعدات الرواية ووضعت كوعي على المسند — عفوا — وكانت كفها عليها أيضا.. فلمسها كم، فجذبت يدي وتمتمت بالفاظ اعتذر لم أسمعها أنا، فكيف بها؟ ولم يسعني إلا أن أضع يدي على ساقى. ولم أعد أرى أو أسمع شيئاً من الرواية. وكانت نفسى تقول لي بصوت غليظ فيما أحس: «إنك بليد.. هذا أنت.. وحمار أيضا.. أين جرأت؟ لماذا تجفل من هذه الفتاة الوديعة التي تتوقع منك أن تكلمها والتى وطنت نفسها على ذلك واستراحة إليه؟ هل بلغ من سخافتك وجبتك أن تتوقع أن تبدأك هي بالكلام؟ اجرئ يا شيخ، لقد كان أجدادك الأولون يخطفون النساء خطفا ولا يبالون شيئاً، وكان النساء يسرهن ذلك. وقد ذهب الخطف بالقوة، ولكنه بقى — وسيظل

باقياً – أن المرأة تنتظر من الرجل أن يهاجمها، بالكلام – على الأقل – ثم بعد ذلك بالقبل والضمات والعناق».

فقلت لها: «استحى يا نفس.. إننا في سينما.. وهذا الكلام.. هذا التحرير على الأعمال الفاضحة لا يليق.. إنني رجل متمدين ولست وحشاً كما كان آبائي».

فسخرت مني نفسى، وضحكـت.. نعم ضـحـكت الملعونة ضـحـك السـخـرـ والـزـراـية.. فـكـدت أـجـنـ، ولـكـنـها لم تـعـبـأـ بـذـلـكـ وـذـهـبـتـ تـقـوـلـ: «أـينـ المـدـنـيـةـ؟ـ سـبـحـانـ اللهـ الـعـظـيمـ!ـ وـهـلـ المـدـنـيـةـ تـمـنـعـ أـنـكـ إـنـسـانـ وـأـنـ شـعـورـكـ بـالـمـرـأـةـ هوـ نـفـسـ شـعـورـ جـدـ الـأـعـلـىـ الـذـىـ كـانـ يـسـكـنـ الـكـهـوفـ وـالـغـيـرـانـ؟ـ أـوـ تـخـشـىـ أـنـ تـغـضـبـهـاـ بـالـتـطـفـلـ عـلـيـهـاـ؟ـ فـاعـلـمـ أـنـ المـرـأـةـ إـنـمـاـ يـغـضـبـهـاـ أـنـ تـرـىـ الرـجـلـ بـلـيـدـاـ جـبـانـاـ..ـ هـذـهـ يـدـهـاـ عـلـىـ مـسـنـدـ الـكـرـسـىـ فـضـعـ يـدـكـ عـلـيـهـاـ..ـ نـعـمـ لـاـ تـخـفـ..ـ وـمـاـذـاـ تـخـافـ؟ـ إـنـهـاـ لـنـ تـأـكـلـ،ـ بـلـ سـتـرـكـ كـفـهـاـ تـحـتـ كـفـ وـتـنـعـمـ بـمـلـامـسـتـكـ لـهـاـ..ـ أـدـنـ سـاقـكـ مـنـ سـاقـهـاـ..ـ اـنـقـلـ إـلـيـهـاـ بـعـضـ الـحـرـارـةـ الـتـىـ فـيـ جـوـفـكـ.ـ قـرـبـ فـمـكـ مـنـ خـدـهـاـ..ـ يـاـ لـهـ مـنـ خـدـ أـسـيـلـ..ـ هـلـ رـأـيـتـ أحـلـيـ مـنـهـ؟ـ دـعـ أـنـفـاسـكـ تـصـافـحـ هـذـاـ الـخـدـ.ـ قـدـ اـنـتـهـيـ الـفـصـلـ الـذـىـ لـمـ تـرـ مـنـهـ شـيـئـاـ وـأـضـيـئـ الـأـنـوارـ،ـ فـادـعـ هـذـاـ الـبـائـعـ وـاشـتـرـ مـنـهـ قـطـعـتـينـ مـنـ الشـكـوـلـاتـةـ الـمـلـوـجـةـ وـقـدـمـ لـهـاـ وـاحـدـةـ وـتـبـسـمـ تـبـسـمـ يـاـشـيـخـ هـلـ أـنـتـ قـطـعـةـ مـنـ جـلـيدـ الـقـطـبـ الـشـمـالـيـ؟ـ».

ولـكـنـيـ استـحـيـتـ أـنـ أـفـعـلـ مـاـ تـشـيرـ بـهـ هـذـهـ النـفـسـ..ـ فـظـلـتـ تـقـرـعـنـىـ طـوـلـ الـفـصـلـ الثـانـىـ وـتـفـسـدـ عـلـىـ قـصـةـ «ـشـيرـلـىـ»ـ.

وـانـتـهـتـ الـرـوـاـيـةـ،ـ فـنـهـضـ النـاسـ وـنـهـضـتـ..ـ وـأـوـلـتـنـىـ الـفـتـاةـ وـجـهـهاـ،ـ فـأـفـسـحتـ لـهـاـ لـتـخـرـجـ قـبـلـ،ـ فـقـالـتـ «ـمـرـسـىـ»ـ فـابـتـسـمـتـ اـبـتـسـامـةـ عـوـجـاءـ وـتـحـرـكـ شـفـتـاـيـ،ـ ثـمـ فـتـحـ اللهـ عـلـىـ فـقـلـتـ لـسـخـافـتـىـ:ـ «ـتـفـضـلـىـ»ـ فـابـتـسـمـتـ وـقـالـتـ مـرـةـ أـخـرىـ:ـ «ـمـرـسـىـ»ـ وـالـخـطـوةـ الـأـوـلـىـ هـىـ الصـعـبـةـ،ـ كـلـ شـيـءـ يـسـهـلـ بـعـدـهـا..ـ فـلـاـ غـرـابـةـ إـذـاـ كـنـتـ وـجـدـ لـسـانـىـ الـذـىـ كـأـنـمـاـ كـانـتـ بـهـ عـقـلـةـ،ـ فـقـلـتـ لـهـاـ:ـ «ـأـظـنـ أـنـاـ جـارـانـ»ـ قـالـتـ وـهـيـ تـضـحـكـ:ـ «ـأـظـنـ ذـلـكـ»ـ.

قـلـتـ:ـ «ـإـذـاـ كـانـ طـرـيقـكـ إـلـىـ الـبـيـتـ،ـ فـإـنـ مـعـىـ سـيـارـةـ صـغـيرـةـ تـحـمـلـنـىـ..ـ فـإـذـاـ خـربـ حـمـلـتـهـاـ أـنـاـ»ـ.

قـالـتـ:ـ «ـأـعـرـفـهـاـ..ـ لـاـ تـطـعـنـ عـلـيـهـاـ..ـ رـأـيـتـ فـيـهـاـ كـثـيرـاـ»ـ.

قـلـتـ:ـ «ـسـنـجـدـ الـسـيـارـةـ تـرـقـصـ»ـ قـالـتـ:ـ «ـوـلـمـاـذـاـ تـرـقـصـ؟ـ»ـ قـلـتـ:ـ «ـطـربـاـ..ـ أـلـسـتـ تـثـنـيـ عـلـيـهـاـ؟ـ لـيـتـنـىـ أـنـاـ السـيـارـةـ»ـ.

وـفـتـحـتـ لـهـاـ بـابـهاـ وـقـلـتـ لـنـفـسـيـ وـأـنـاـ أـدـورـ إـلـىـ الـبـابـ الـآـخـرـ:ـ «ـأـرـأـيـتـ؟ـ إـنـ أـسـالـيـبـ الـمـتوـحـشـينـ لـاـ تـصلـحـ لـهـذـاـ الزـمـانـ..ـ إـنـكـ نـفـسـ قـدـيـمـةـ..ـ عـتـيقـةـ»ـ.

في الطريق

فقهقت اللعينة وقالت: «لولا درسى! على كل حال العبرة بالخواتيم».

الفصل السادس

البحث عن الذهب

ووجدت صديقى ينتظرنى — كما وعد — فدخلنا معا وجلسنا متقابلين إلى مائدة صغيرة، وبدأنا بأيدينا ففركناها.. فقد كان البرد شديداً، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش، وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفى لانتقال الدفء إلى أبداننا. ثم أكب صاحبى على البيان الذى فيهألوان الطعام، وجعل يسردھا ليأتخىر ما يطيب لى منها. وفرغنا من ذلك بعد طول التردد، وانصرف العامل بذاته الذى دون فيه ما طلبنا، فقال صديقى وهو يميل على المائدة: «والآن ما العمل؟» قلت: «هذا هو السؤال الأبدى.. وما أظن بنا إلا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر — طال أم قصر — المسألة مسألة حظ يا صاحبى..».

قال: «كلا.. لابد أن هناك وسائل لاكتساب المال بسرعة.. كثيرون يفعلون ذلك.. وهذا دليل على أن الوسائل موجودة، ولكننا نحن — لسبب ما — لا نهتم إليها..». قلت: «فليكن الأمر كما تصوره، فلست أرى أن هذا يجدى شيئاً..».

قال: «ولكن لابد أن تكون هناك وسيلة..». قلت: «إذا كان ينفعك أو يريحك الإيقان من ذلك.. فأيقن وأرح نفسك..». فقال وهو يهز رأسه: «نحن اثنان.. كلانا يحتاج إلى مبلغ حسن من المال.. والحاجة ملحة والسرعة لا مفر منها. لا سبيل إلى الاقتراض، لأن الذين يقرضون يطلبون ضمانا.. شيئاً يطمئنون به على مالهم.. سخافة.. ولماذا ينبغي أن نرد شيئاً؟ أنسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكترونه ويدفنونه في خزانات أو في قدور يدسونها تحت الأرض؟».

فضحكت، وقلت: «هذه ب לשفيهية..».

قال: «لا تصدق.. آه لو كنت غنيا، إذن لصارت الدنيا أرغم وأهناً..».

قلت وأنا أبتسم: «ماذا كنت تصنع؟»

قال: «أصنع؟ أتسأل؟ كنت أضع المال في صرر وأرمي بها ملء أتوسم فيهم أنهم أهل لأن يكون في يدهم مال» — وأطرق شيئاً ثم رفع رأسه وقال: «هل تعرف أنني زرت اليوم أختي؟ إنها غنية كما تعرف.. وكيف لا تكون غنية وهي لا تنفق شيئاً؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمي لأتكلم، رفعت يدها وقالت: «ولا مليم» فغضبت وصحت بها ونهرتها عن هذا السلوك. أكدت لها مائة مرة إنني محتاج إلى قليل من المال، فوقفت وأكملت لي أنني سأكون محتاجاً إلى هذا المال حين أخرج من بيتها.. سلوك يطير العقل.. فهل تسمى هذه أختاً؟ أنت أتصور أختاً ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطيني وهي تعترض وتملاً يدي وهي مغضية. هكذا تكون الأخت».

فقلت: «لماذا لا تفك في طريقة لكسب المال؟»

فقال بلهجة الاستنكار: «أفكرة.. وما الفائدة من التفكير؟ لا فائدة ما دامت الدنيا مقلوبة. آه لو كان لي سلطان في هذه البلاد، إذن لعقدت امتحاناً كل ثلاثة شهور للأغنياء.. يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغنى، فيقول لهم أحدهم: «كم تملك يا مولانا؟» فيقول: «ألف فدان ونحو مائة ألف جنيه في المصرف، وعمارتين — كل منهما ذات سبع طبقات في شارع الملكة نازلي». فيقول أحد الأعضاء: «وماذا تصنع بكل هذه الثروة؟» في يقول: «أوه لا أصنع شيئاً.. كل ما زاد على حاجاتي الضرورية جداً أضيفه إلى المدخر» فتقول اللجنة: «شيء جميل.. وهذارأيك فيما ينبغي أن يصنع المرء بالمال؟.. لا بأس.. اسألوا أحمد — أى العبد الخاضع للطبيع — ماذا يكتفي»، فأقول رداً على السؤال: «أوه يكتفي القليل.. خمسون ألفاً.. كفاية.. أعني مؤقتاً» فتقول اللجنة: «أحمد هذا رجل يحسن إنفاق المال.. أعطوه ما يطلب» فأقبض المبلغ وأشكراً لهم وأفرك يدي وأقول: «إذا سمحتم لي يا حضرات الأعضاء الموقرين، أستأنذكم في لفت نظركم إلى رجل يعرف كيف يعطي.. بارع جداً في الإنفاق» فيسأل أحدهم: «من هذا؟ قل بسرعة» فأقول: «إنه المازن» فيقول: «آه صحيح.. كيف نسيناه.. هاتوه حالاً.. علينا به.. أقبضوا عليه في حيثما تجدونه» فيقبض عليك الشرطة ويجررونك مصطفاً إلى اللجنة، فيضحك الأعضاء ويقولون: «خذ.. خذ.. خذ أيضاً» فتخرج معى مسروراً.. وتروح تنفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالي. ما قولك؟»

فقلت وأنا أضحك: «شيء عظيم جداً.. ولكن إلى أن يتيسر أن تل أمور الناس، ماذا تصنع؟

قال: «آه هذه هي المسألة.. ما رأيك أنت؟»

قلت: «يمكننا أن نكتب الورقة الأولى الرابحة من يانصيب المواساة أو اليانصيب الإرلندي».«.

قال: «هذا ممكن.. ولكن ذلك يتطلب أن ننتظر بضعة شهور والعجلة من الشيطان..».

قلت: «صدمت.. يمكن أن نخترع شيئاً ونحتكر بيده - وصنعه بالطبع - فنعتني..».

قال: «صحيح.. فكرة لا بأس بها.. سأدون هذا في مذكرتي.. تنفع في المستقبل.. وعلى ذكر ذلك، ماذا نخترع؟»

قلت: «باب الاختراع واسع.. واسع جداً: مثلاً نخترع طريقة تجعل السيارات تستغنی عن البنزين وتكتفى بالماء - أو حتى بالهواء - أو نخترع بديلاً من النقود فإن النقود هي أصل البلاء في هذه الدنيا.. أو نخترع..».

قال: «يکفى.. يکفى.. ولكن هذا كله يحتاج إلى زمن.. والمطلوب هو الاهتداء إلى وسيلة تكفل بإعداد المال اللازم في أربع وعشرين ساعة.. أنا أقول لك!»

فقلت وأنا أضطجع وأرسل الدخان من فم خيطاً ملتوياً، بعد أن فرغنا من الطعام: «يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقة».

قال: «معلوم... اسمع، أترى هذا الرجل القاعد هناك في الركن الأيمن؟ أترى كيف يأكل؟ أترى كرشه المدور كالكرة ووجهه المنتفخ، وكيف يفتح عيناً ويغمض أخرى، وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة في فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد؟ الحق أقول لك أكره وجهه ولا أرتاح إلى النظر إليه..».

قلت: «يا أخي لا تتنظر إليه.. دعه وحول عينك عنه..».

قال: «ولكنني لا أستطيع.. إنه وجه سوء، لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل الخير.. إنه من لا يؤمنون على القُصر والأيتام والأرامل.. هذا الرجل لابد أن يكون منظواً على أسرار يكره أن تداع.. لأن وجهه ناطق بأنه شرير.. فلو قمت إليه الآن وهمست في أذنه أنى أعرف سره الذي يجاهد لإخفائه، ألا تظن أنه يفزع ويضطرب ويشترى سكوتى بأى ثمن؟»

فقلت: «أها! أهذه طريقتك؟ أتريد أن تبتز المال من الناس بهذه الوسائل؟»؟

قال: «المصيبة أنى لا أستطيع.. تنقصنى الشجاعة، ولكنني واثق أنى أنجح إذا استطعت أن أصنع هذا.. ومع ذلك لكل إنسان سره القبيح.. ولو أن واحداً جاء إلى

وقف على رأسى الآن وحدق في وجهى، ثم هز رأسه هزة العارف بكل ما هناك، ثم قال: إنى أعرف سرك يا أحمد، لما وسعنى إلا أن أضطرب.. على كل حال يظهر أنه لا فائدة.. لا أمل في مال كثير نحصل عليه بالسرعة الازمة..
قلت: «صدقت لا أمل».

قال: «خسارة.. سأظل أتحسر لأنى لم أجد الشجاعة الكافية للوقوف على رأس هذا الجرم — هو جرم ولا شك — وإبلاغه أنى أعرف باطنـه كما أعرف ظاهرـه البادى لنا ... خسارة، نهايتها.. نقوم»؟. قلت: «تفضل».
ودفع إلى الخادم ثمن الطعام وخرجنا.
وقلت لصاحبي وأنا أودعه: «على فكرة.. من قبيل الاحتياط للمستقبل ما هو الجواب الصحيح أمام اللجنة»؟

قال: «آه.. أنفق ما في الجيب يأتـك ما في الغـيب».
قلت: «أهو ذاك؟ أما ما في الجـيب فلست أحـتاج في أمر إـنفاقـه إلى التـكلـف.. وأما ما في الغـيب فهل تـعرف متـى يـأتـي»؟
فأشارـ لي بـيده.. ومضـى عـنـي وـهـو يـضـحكـ.

الفصل السابع

تفيدة

نشأت في بيت لم أكن أجد فيه من يكلمني، لا لقلة في أهله ولا لبكم يعقد أستتهم.. بل لأن مشاغلهم كانت تصرفهم عنى. فهذه جدتي، لأبي، كانت لا تفارق السجادة – أو الفروة على الأصح – وفي يدها السبحة التي لا أذكر أن الخيط الذي ينظم حباتها انقطع، وشفتها لا تكفان عن الحركة والتتممة بما لا أعرف من الأدعية والصلوات على النبي. وما أكثر – وأطول – ما كنت أقعد أمامها محدقا في هاتين الشفتين الدائبتين دؤوب الليل والنهر. وكانت ربما التفتت إلى فتبتسم وتدينيني منها وتمسح لي رأسى، ثم تبسط يديها بالدعاء إلى الله بصوت يبريه الضعف وتبجه الحسرة ويهدهجه الألم والأسف لما صرنا إليه بعد وفاة أبي، ثم تربت على كتفى وتميل على وجهى الصغير بفمها الأدرد وتقبلنى، فتخرج شفتها صوتا كهذا «مق».

وتكل أمى لا تزال مصروفة عنا بشئون البيت من طبخ وغسل وكنس ونفض، ومن حمام تسقيه وتطعمه، ودجاجات لا تنفك تجس حويصلاتها أو تصبعها لترى أفيها أم ليس فيها بيض أو تتنف ريشها. وكثيرا ما كنت أقف أنظر إليها وهى تتناول فراخ الحمام وتزفقها، أى تمج في مناقيرها الماء والحب.. ولا آخر لعمل السيدة في البيت. ولم يكن لنا في ذلك الوقت خادمة، وكانت أمى تنهض بالأعباء كلها اقتصادا في النفقه.. فكانت هي تطبخ الطعام، وتكنس الغرف، وترتب الأثاث، وتحيط لنا الثياب، وتصنع كل شيء إلا أن تخرج لتشتري الأشياء التي نحتاج إليها لطعامنا. فقد كان رجل من أتباع أقاربنا الذين يقيمون في أجنبية أخرى من هذا البيت الكبير، يقوم لنا بذلك. وكانت عمة أبي معنا، ولكنها كانت عجوزا ناهزت المائة.. وكانت تجلس وساقها مدودتان أمامها ورأسها مستند إلى وسادة، ولسانها لا يمل الدوران، وكان كلامها هذيانا فكنت أضحك منها أحيانا ثم أمل ذلك فأتركها لهذرها الذى لا ينقطع.

وكنت إذا شعرت بالشوق إلى مكالمة أحد، انحدر إلى فناء البيت.. وكانت فيه غرف كثيرة، يقيم فيها أتباع الشيخ قربينا ويحيون الليل بقراءة الأوراد. وكانت هناك أيضاً ميضة ومصلى، فكنت إذا رأيت الشيخ مقبلاً أندس بين المصلين وأروح أقف وأركع وأسجد كما أراهم يفعلون. ولكن هؤلاء كانوا يرونني صبياً صغيراً، فينظرون إلى وبيتسمون — لأن أفواههم مشغولة بالتمتمة — ولكن لا يكلمونني. غير أنه كان هناك في أكبر غرفة في الفناء، رجل ليس من الأتباع ولا هو يعنيه أمرهم أو يشاركون فيما يصنعون. ولا أدرى إلى هذه الساعة كيف سكن هذه الغرفة.. فما كان يعطى الشيخ شيئاً، وكان الشيخ يستنكف أن يؤجر بيته أو بعشه. وكان هذا الرجل يصنع أزمار الطرابيش، فكان يطيب لي أن أجلس إليه لألاحظه وأحاديثه أو أستمع إلى حديثه وقصصه وكان يحادثني كأنني طفل كبير لا طفل صغير، وكان يبرم خيوط الحرير المصبوبة ويفتلها ويعقد أطرافها ويجمع كل بضعة خيوط معاً ثم يثنّيها ويربطها ويصمغها ويدقها على قالب من القوالب التي تتخذ لكتي الطرابيش. وكانت لهذه الخيوط رائحة لا أزال أذكرها، وإنني لأجدها الآن في أنفني وأنا أكتب ذلك. وقد علمني صناعته، فكان يدع لى الخيوط فأفتلها وأرتبها وأعقد أطرافها وأفعل مثل ما أراه يفعل بالدق على القالب. ثم يعود إلى فيننظر فيما صنعت ويصلاح لي أخطائي، أو يثنّى على حذقي. وكان يكل إلى ذلك كلما قام لإعداد طعامه أو خرج لشرائه. وفي وسعه أن أقول بلا مبالغة إنني قلماً تعشيت إلا معه، فكنت أصعد فأجئه بطعامي وأضيفه إلى ما عنده، فنأكل معاً. ولكنني لم أكن أصنع هذا إلا إذا كان عندنا طعام يليق أن يقدم إلى غريب.. أما إذا كان فولاً أو عدساً أو ما هو من هذا القبيل، فقد كنت أخرج فأشترى زيتونات وشيئاً من الجبن «والحلوة الطحينية» وأعود بها إليه، فيؤنبني على فعلتي وينهانني عن العود إلى ذلك، فأصارحه بأن طعمنا الليلة فول أو عدس... وإنني لا أحبه. فكان يحدث أن يقول لي إنه يحب هذا الطعام، ويرجو مني أن أصعد وأجيئه بشيء منه، فاستغرب.. ولكنني أطبع. فلا عجب إذا كنت قد أحببته وألفته. ولم يكن أغرب من هذه الصداقة بين رجل جاوز الأربعين وطفل في التاسعة من عمره. وقد ألفني كما ألفته، وتعلق بي كما تعلقت به.. فكان يناديني إذا أبطأت عليه، فأستبطئ النزول على الدرج وأركب الدرابزين لأن التزلق عليه أسرع..

وكان له بنت أخت تزوره من حين إلى حين.. رأيتها أول مرة في ليلة شتوية كثيرة المطر شديدة البرد، وكانت ألعب في الحارة.. فلما أخذ المطر ينهر فجأة ذهبت أعدو

إلى البيت. ولحت، وأنا أجري، ضوءاً في غرفة صديقى.. فاشتهرت أن أخبره أن السماء تمطر وأن الريح تعصف. ودخلت الغرفة ثم وقفت على العتبة، فما رأيت المصباح المألوف وإنما رأيت ناراً موقدة، وكانت السنة اللهب عالية.. فرأيت، أول ما رأيت، كفافاً بدت لي كأنها - ولسان النار من ورائها - مرجان شفاف. وطالعنى محياناً فتاة صغيرة على هذا الضوءالمضطرب، فرأيت شعراً أسود يتوجه هنا وهاهنا، وضفيرتين في طرفيهما خيوط من الصوف نسج عليها الشعر واستراحتا على جانبي الصدر، وأنفها في عينيهن نتوء قليل، وفي مارنه لين، وفي أربنته انتشا إلى فوق، وعينين ضيقتين مائلتين بعض الميل. وكانت الحدقتان تلمعان كأنما تطلان من شقين، وفي نظرتها من وراء الأهداب الوطفاء معانى الرضى التام والسكون العميق والاغتراب الذى لا سبيل إلى العبارة عنه. وكانت هذه المعانى على الفم أيضاً، وكانت الشفتان رقيقتين وفي العلية منها نثلاً بينة، وهنـة دقـقة نـابتـة في وـسـطـها، وكانت عـلـيـها ابـتسـامـة أـبـلـغـ في العـبـارـةـ عن السـرـورـ من الضـحـكـ المـجلـجـ، وكان خطـ الشـفـتـينـ موازـياً لمـيلـ العـيـنـينـ، وقد خـيلـ إـلـىـ وأـنـاـ أـنـظـرـ إـلـىـ هـذـهـ الـابـتسـامـةـ المـرـتـسـمـةـ عـلـىـ الشـفـتـينـ الـتـلـامـسـتـينـ كـأـنـماـ هـىـ مـعـلـقـةـ عـلـىـ ما تـغـضـنـ عـلـىـ جـانـبـىـ الـفـمـ، وكانت صـحـيـفـةـ الـوـجـهـ عـرـيـضـةـ عـنـ الـوـجـنـتـينـ وـلـكـنـهاـ تـنـتـهـىـ بـذـقـنـ دـقـيقـ، وـفـيـ الـدـيـبـاجـةـ حـسـنـ، وـفـيـ الـخـدـينـ رـىـ وـأـسـالـةـ وـبـضـاضـةـ. أـمـاـ الـعـنـقـ فـطـوـيـلـ مـسـتـدـيرـ، وـأـمـاـ الـذـرـاعـانـ - وـكـانـاـ مـعـتـمـدـيـنـ عـلـىـ الرـكـبـتـيـنـ - فـمـسـتـدـقـانـ.

وقفت أحدق في هذا الوجه الذي أضاءته لى النار المضطربة الخفافة اللمعان، وخيل إلى وأنا أنظر أنى لم أر قط أجمل ولا أبرع من هذا الحسن، وراغبى على الخصوص ما على الوجه من آيات السرور الباطن.. فألفيتني أتسائل: ماذا ترى يسرها وهى قاعدة وحدها تتداً؟ ومن أين جاءت ياترى هذه السعادة التي تومض بها عينها وتتشى بها هاتان الشفتان الصامتتان؟ وأحسست أن أنفاسى أسرعت وأن الدموع تجول في عينى، فقد كانت الفتاة جميلة وكانت الروعة قد غمرت صدرى، بل ملأ قلبى الخوف كأنما أشهد الحياة نفسها لا إنساناً فانياً مثلـىـ. وارتـفـعـ لـسانـ النـارـ فـجـأـةـ وـخـفـقـ ضـوـعـهاـ عـلـىـ مـحـيـاـهاـ الـمـبـتـسـمـ، فـخـيلـ إـلـىـ أـنـ الدـمـ يـجـرـىـ كـالـجـنـونـ تـحـتـ جـلـدـهاـ الرـقـيقـ. وـكـانـتـ هـىـ سـاـكـنـةـ لـاـ تـتـحـركـ، وـلـاـ تـرـازـيـلـهاـ اـبـتـسـامـتـهاـ الـهـادـئـةـ الـمـرـتـسـمـةـ عـلـىـ عـيـنـيـهاـ الضـيقـتـينـ الـمـائـلـتـينـ وـفـمـهاـ الـمـطـبـقـ الشـفـتـينـ. نـعـمـ.. كـانـتـ الـحـيـاـةـ نـفـسـهاـ تـنـظـرـ إـلـىـ مـنـ عـيـنـيـهاـ.. وـبـعـيـنـهاـ.

رأيتها بعد ذلك مرة أو مرتين في نحو عام، وعلمت من صديقى - حالها - أنها يتيمة وأنها تقيم مع عمها وتزور خالها أحياناً، وأكثر ما تكون الزيارة في الصباح

حين أكون أنا في المدرسة.. ولكنها لا تبقى معه إلا ساعة أو بعض ساعة. وقد حاولت أن أكلمها، ولكنني كنت أستحيى أن أطيل الوقوف معها أو الجلوس إليها، وكانت هي تتحقق في وجهي ولا تطرف حين تكلمني، ولا أذكر ما كانت تقول وإنما أذكر كيف كانت لهجتها هادئة وحالها بادي الوثاقة.. كما ينبغي أن تكون الحياة.

وكنت أسألها أحياناً – وأنا لا أجد كلاماً أقوله لها غير ذلك: «هل تلعبين الحبل؟» ولا أصغي إلى جوابها، بل أروح أفكر في جمالها وأعجب له.. وأسائل نفسي مستغرباً ماذَا وراء هذه العين يا ترى؟.. ماذَا أراها سعيدة دائمًا بلا سبب أعرفه؟ وأشتئى أن أسأّلها عن ذلك، ولكنني آنس من نفسي جينا فأمسكت.

ومضت الأيام وتعاقبت السنون وكبرتْ وعرفتُ الأدب والقراءة، فصار كل ما أقرأه عن الحب في شعر الشعراء وفي وصف الروائيين، يدور حول ذكرياتي القليلة منها، وابتسامتها الساكنة ووجهها الجميل وسعادتها الهدائة. وكان زملائي في المدارس يذكرون مغامراتهم ويتحدثون بها ويباهون، وكانت أسمع وأسك特 وأتعزى بأن هذا الذي يلهجون به ليس من الحب في قليل أو كثُر، وأقول لنفسي إنني أعرف ما لا يعرفون، وأعرف ما أعرف بالتجربة. ومع ذلك لم يخل هذا الصدر من أيامٍ مما يسمونه المغامرات، ولكنها لم تكن كثيرة أو باعثة على الرضى.. بل كانت على النقيض سبباً في السخط على نفسي واحتقارها، فآمنت لأنصرن عن هذا العبث. وأقبلت على الدرس والتحصيل واشتغلت بالشئون العامة، فصرت أحضر جمعيات الخطابة بل أفتَ مع إخوان لى جمعية للخطابة. وعنيت بقراءة الصحف فكنت على صغرى أقرأ كل يوم ثلاثة جرائد سياسية، وكنا جميعاً من أنصار «مصطفى كامل» وعشاقه في ذلك الزمان.

ثم جاءت الحرب العظمى، فشغلتُ بأنباءها وبالاختلاف على نتائجها المحتملة وبالخوف على أنفسنا من الجوسيس والاعتقالات التي كان لا نأمنها ولا نستطيع أن نعرف الطريق إلى اتقانها.. ولكن يوماً من أيام تلك الحرب أذكره ولا أنساه. وكان لي صديق داره قريبة من داري، ولم يكن معه أحد في بيته وكان السهر محراً بعد الساعة التاسعة، فكنت أقضى عنده السهرة في الأغلب، ولا سيماء في الصيف، فأرانى يوماً مسدساً ورصاصات، فجعلنا نتدرب على إطلاقها ونرمي بها باب الحمام، ولم نكن نخشى أن يسمعنا أحد لأن البيت كان بعيداً عن العمارة. ثم افترقنا، واتفق أن زارنى بعد ذلك ونسى عندي مسدسه.. ولا أدرى كيف كان يجرئ على حمله معه؟ فوضعت المسدس في درج المكتب ونسيته فيه، وتقدست فوقه الأوراق على مر الأيام. فحدث يوماً

أن جاءنى صديق وثيق الصلة بالسلطة العسكرية، وأخبرنى أن بيته سيفتش الليلة.. فشكرته، ولم أعر الأمر اكتراثاً. لأنه ليس في بيته ما أخشى على نفسي منه. فلما كان العشاء، جاء ضابط إنجليزى ومعه من المصريين ضباط وجنود، فدخلوا المكتب أول ما دخلوا. ورأى الإنجليزى الكتب الكثيرة على رفوفها، فأقبل عليها يتأملها.. فألفاها كلها كتب أدب، فجعل يقلبها وينظر إلى ثم سألنى عن عملى، فقلت: «مدرس» فاطمأن واعتقد مما رأى أنى رجل مأمون الجانب، وأرسل المصريين يفتشون بقية البيت، ووقف هو معى في غرفة المكتب، ثم دنا من المكتب وجعل يقلب ما عليه من الأوراق المنتشرة بغير احتفال، ثم فتح درجاً وألقى عليه نظرة ثم رده وشد الدرج الثانى.. ولم تكن للأدراج مفاتيح، فحمد الدم في عروقى، فقد تذكرت المسدس فجأة، ولم أستطع من فرط الجزء أن أدعوه أن ينقذنى. وكان الإعدام عقوبة من يحمل سلاحاً كهذا بلا ترخيص – أو هكذا أعلنا – ولكن الله سلم.. فرد الرجل الدرج وكان زملاؤه قد عادوا مخياً وانصرف وهو يبتسم، ولعله كان يعتقد أن تكليفه تفتيش هذا البيت سخافة مطبقة.

وما كادوا يذهبون حتى أسرعت إلى المسدس، فقذفت به في بستان مجاور لبيتنا، وتشهدت.. ولم أطق البقاء في البيت بعد ذلك من فرط الاضطراب، فخرجت أتمشى على غير هدى وإذا بي في بعض الطريق – طريق حدائق القبة – التقى بفتاتي القديمة. عرفتها على الرغم من طول الزمن.. وعرفتني هي كذلك ولم تنكرنى، فصحت بها كالأبله: «تفيدة.. أنت..؟

فابتسمت لي ابتسامتها القديمة الهادئة ولم تزد، فقلت لها: «من أين، وإلى أين؟» قالت: «إلى البيت» فمشيت معها إليه. وكان شقة في عمارة عند «المحمى» فدعوتني إلى الدخول فلم أتردد.. فإنّا صديقان قديمان. ولم أر في بيتها غيرها فلم أستغرب فإنها يتيمة، ولكنى لم أعرف من أين جاءت بهذا الأثاث الحسن وإن كان قليلاً وعلى قدر الحاجة، وانافت معها على يوم نخرج فيه للتنزه في القنطرة أو حديقة الحيوانات، فهزت رأسها أن نعم.. فتركتها ولم أسأّلها عن حالها وكيف تعيش.

والتقينا في الموعد المضروب.. وكان النساء يتقنعن في ذلك الوقت ولا يخرجن إلا في الندرة القليلة بوجوههن سافرة، فركبنا عربة يجرها جوادان هزيلان، ومضينا إلى حديقة الحيوانات، وجلسنا على دكة منعزلة.. وقضينا أكثر الوقت صامتين، ثم فتحت فمى فحدثتها عن الزمن الماضي وحبي الصبيانى لها، وكيف طال عمر الحب وامتد

إلى الحاضر، فلم تزد على أن تبسمت — كعادتها — وقالت: «لا أدرى لماذا أرى الناس يجنون بي».

فأحسست أن لوها كبيرا من الثلاج يوضع على قلبي.. الناس يجنون بها.. الناس ... إذن هناك مجنون، أو مجاني بها غيري ودار رأسى، وذهبت أسأل نفسى عنها كيف تعيش. ولم يخطر لي هذا من قبل، ولكنه خطر الآن نعم كيف تعيش هذه التي يجن بها الناس؟ وأين وكيف ترى هؤلاء المجانين كلهم؟ لابد أنهم كثر ... فمن أين يجيئون.. إنى أنا صديق صباحا، فلا عجب إذا كنت أعرفها.. ولكن غيري .. غيري.

وقطع على هذه الخواطر المزعجة سودانى في ثياب الردنجوت. وكان كهلا، ولكنه يمشى معتملا القامة كالرمح.. فدنا منها وحياتها باسمها وسألها عن حالها وعينه تومض، فرددت عليه بروزانة وسكون ومن غير أن تفارقها ابتسامتها المطبوعة. ولم يطل الوقوف، فمضى عنا وقد عرفت منها أنه ضابط في الجيش وأنه الآن فيما يسمى الاستيداع، وأن بيته في العباسية — قرب «المحمدى» فلم أقل شيئاً ولكنني قلت — أو على الأصح زدت قلقاً وصرت أناجى نفسي بأن لعل هذه طريقة حياتها.

وتععددت المقابلات بيننا والخروج إلى الحدائق العامة، و كنت أعود بها إلى بيتها في الليل، فتدعونى إلى مقام قليل، فألبى ونذهب نتحدث كأننا رجال لا رجال وامرأة. فرأيت منها — شيئاً فشيئاً وعلى مر الأيام — ما أفنعني أنها ليست الفتاة التي أحببتها في صغرى، وأنها لا أكثر ولا أقل من امرأة كغيرها من النساء. ولا أدرى الآن وأنا أكتب هذه السطور أى شيء كنت أحسبها قبل أن أتبين أنها ليست سوى امرأة، ولكن الذي أدرىه أنى ظللت أحبها على الرغم من ذلك وأنى جعلت أحاول أن أقنع نفسي بأنها كما كنت أتصورها — على الأقل في حقيقتها الكامنة، ولكن حبى القديم لها تغير.. فلم يعد فيه تعلق بخيال، بل صار حباً لأمرأة معينة. وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، فإن الرجل يحب المرأة لأنها امرأة ولأن فيها من بواعث الإغراء ما يكفى لإثارة الرغبة فيها والتعلق بها، ولكن هذا شيء لم أكن قد تعلمته في تلك الأيام، فرزقنى الله في شخص «تفيدة» معلماً لا يفتر ولا يتزدد ولا يترفق بالمثل العليا وصور الكمال وغير ذلك من الأفلاطونيات السخيفة. وكان أول ما تعلمته — أو من أول ذاك — أن من الممكن أن يحب الرجل حباً عميقاً طاغياً امرأة لا يحترمها ولا يرى لها مزية ولا ينطوى لها على إكبار أو مودة أو صداقة، ولا يستطيع أن يتفاهم معها ويشركها في نفسه وخواطره وأماله ومخاوفه وعواطفه.. امرأة لا يرى فيها إلا أنثى منحطة.. بل امرأة يشعر بالشقاء

وهو إلى جانبها وبالملل والضجر من قربها وحديثها. نعم تعلمت ذلك.. وكان هذا لما تعلمه شيئاً فشيئاً يبدو لي مدهشاً، ويحيل إلى أن الحال فيه مقلوب والأية معكوسة، ولكنني الآن أضحك من نفسي وأسئلتها: ولم لا يعيش الرجل بالله امرأة كهذه؟ وأين تراني كنت أعيش يومئذ؟ فلم أر أن كثريين من الرجال يعشقون نساء ليست لهن أية مزية.. نساء هن في الحقيقة كوم عظيم من صنوف الانحطاط.. ونساء يحببن رجالاً ساقطين منحطين لا يساوى الواحد منهم ملء ذنه نخالة ولكنني كنت في ذلك الوقت أعتقد أن الحب شيء سامي جداً، وأنه سماوى لا ينبغي أن يخالطه إلا الإعجاب والعبادة.

وكانت كل لحظة أقضيها مع تفيدة، تزييني إيقاناً بأنها عاجزة عن السمو ب نفسها إلى المرتبة التي وضعتها فيها في حداثتي. وكان يزعجني وينغص عيشي ويسود الدنيا في عيني هذا التباين بين الواقع والصورة القديمة التي احتفظت لها بها في نفسي.. وتغير حبى لها كما قلت واستهيتها وصبوت إليها، ولكن هذا التحول لم يعفني من التنغيص والعقاب. وقد كنت أخلج مما صرت أحسه لها، وأعترف نفسي على ذلك وأزجرها عنه.

وكانت هي ترى ضبطي لنفسى ورياضتها على العفة، وتعلقى بخيالاتى وسخافاتى، وأوهامى، فتتمتع وتطهر لتألف والتبرم ولا تكتمنى الضجر الذى يثيره حديثى، ولها العذر. وقد كنت أرتفع بالكلام عن طبقتها.. وأنتركها على الأرض، وأنذهب أحلق في أجواء لا تستطيع أن تذهب وراءها فيها. وكانت أنشدتها ما أقوله فيها من الشعر، فيسرها أنها وجدت شاعراً يحبها كل هذا الحب ويتنفس باسمها، وأن يقرأ الناس ما يقوله فيها وما يصف به وجده لها. ولعلها كانت ترى في هذا إعلاناً. ولكنها لم تكن تفهم ما أنظم أو تقدره، وكثيراً ما كانت تمطر شفتتها ساخرة. وربما قالت لي: «الآن تستطيع أن تقول كلاماً حسناً؟ فأهتز رأسى وأقول لنفسى إنى وقعت وقعة سوداء، وإنى يجب أن أصد عنها فإنها لا تصلح لي ولا أصلاح لها لأنها لا تفهمنى.. ولا أنا أيضاً مع الأسف، أستطيع أفهم هذه الطبيعة المادية التى يكون فيها الجمال ستاراً لكل ما هو منحط.. وكانت تدعونى كل ليلة إلى دخول بيتها حين نعود إليه، وكانت ألبى في بعض الأحيان.. فأقعد معها كالصنم من شدة الكبح، فلا تثبت أن تتشاءب فأقوم وأنصرف فلا تعنى بأن ترافقنى إلى الباب.. فييسوعنى ذلك، ولكنني أراجع نفسي وأقول: إنه ليس بيننا كلفة فإننا صديقان قديمان. وقالت لي ذات ليلة، وقد دنومنا من البيت: «لا تغضب إذا لم أدعك إلى الدخول» فسألتها بوقاحة: «هل هناك غيري؟» فلم يسؤالها ذلك ولم يظهر عليها الامتعاض منه، وقالت بابتسامتها الهاوائة: «يحيل إلى أنك لا تحب

الوجود معى في البيت.. إنك شاعر، تحب الرياض والبساتين والماء والسماء والنجوم.. أليس كذلك؟ فضحتك وإن كنت لم يفتنى ما في كلامها من التهكم والزراية، وحدثت نفسى أن هذه دعوة صريحة لا يليق أن أغضى عنها مخافة أن يؤدى الإغصاء إلى القطيعة والجفوة.. وكانت هذه مغالطة مني لنفسى، فقد كنت أنا أريد ذلك ولكنى كنت أصرف عنه نفسى وأفطمها بجهد، فقلت لها: «بل سأدخل الليلة – إذا سمحت بالطبع – وسترين أنى أحب بيتك كما أحبك».

قالت: «صحيح؟

وأحسست من نبرة صوتها إنها ارتاحت إلى كلامى، وإنها استغربته في الوقت نفسه.. ودخلنا، وأغلقت الباب وراءها كعادتها.. فلم أمهلها بل طوقتها بذراعى في الدهليز وقبلتها على خدها، فأدارت وجهها ومنحتنى فمها..

وكنت أخطى على نفسى بعد كل ليلة وأرميها – نفسى – بالانحطاط، ولكنى ألغت ذلك – فصار الأمر عادة كالتدخين وغيره مما يعتاده المرء ويتألف منه ويؤيد لو كف عنه، ويمضى فيه مع ذلك ولا يكلف نفسه جهد المقاومة وعناءها. وبقيينا هكذا زمانا غير قصير، وعرفت أن لها أصدقاء غير قليلين.. فقد كانا نلماهم في الطريق، فيؤمنون إليها بالسلام فتبتسم لهم، ولكنهم كانوا لا يذنون منها ولا يكلمونها كما فعل الضابط السودانى في حديقة الحيوان. ولم أكن أعبأ بذلك، فقد كنت أرى أنى منفرد بها وإن كنت لا أعلم ماذا تصنع في غيابى؟ فما كان يسعنى أن أظل معها كل ساعة. وكانت أروض نفسى على الاطمئنان والثقة لحاجتى إليهما، لا لأنى واجد ما يدعى إلى الثقة والاطمئنان..

ولم يكن هذا المنطق يقنعني أو يريحنى، ولكنه كان المنطق الذى اضطررت إليه.. على أن الأمر لم يطل، فقد جاء يوم اعتذرنا لـ فىي بأنها مسافرة.. فاستغربت، فما أعرف لها من تسافر إليه، ولكنى سكت ولم أقل شيئاً. ورأيتها بعد أيام، فسألتها عن رحلتها ورجوت أن تكون كما أشتھى لها.. فقالت بضرج متکلف لم يخف على: «أوه أبداً.. كانت رحلة مملة.. إنك تعرف هؤلاء الفلاحين وكيف يعيشون.. ليس في حياتهم أى تسلية».

ومضت أيام، فعادت تعذر من التخلف عن لقاءي لأنها مدعوة في بيت صاحبة لها. فلم أجادل، وتركتها، وتكرر بعد ذلك الاعتذار، وتوالى انقطاعها عنى. وكانت أحياناً أقسم أن أهملها وأبقى أياماً لا أسأل عنها، لأنعرف أعادت أم هي لا تزال مع هؤلاء

الذين ظهروا فجأة في حياتها، ولم أسمع بهم مرة واحدة قبل ذلك كل هذه الشهور. وأحياناً كنت أضعف فأذهب إلى بيتها، فتفتح لي وتقاني لأنها كانت معى قبل ساعة، ولا تسألني لماذا غبت ولا ماذا كنت أصنع وكيف كنت أقضى الوقت.. لا.. لا شيء من هذا على الإطلاق، فأشعر بالغصة ولكنني أكتم الألم..

وكنا قد دخلنا في الشتاء، وكنت أعرف أنها لا تحب أن تكون في غير بيتها بعد العشاء على الأكثر.. فذهبت إلى قهوة قريبة من مدخل الحارة، كي أرى ما يكون. وانحدرت الشمس وأنا لا أرى شيئاً.. نعم رأيت ناساً كثيرين راكبين أو ماشين وباعة متوجلين ومركبات الخ الخ، ولكن لم أرها تدخل أو تخرج. وكانت نفسي لا تفتأ تنزع عنى أن أنهض منصراً، وكنت أحدهما بأن من السخافة والحمامة أن أتعب نفسي بهذه الجلسة المضنية لأعرف ما أعرف.. وهل في الأمر سر؟ أليس قد ملتني ونبت بي وجفتنى واعتاخصت منى سواى كائناً من كان هذا السوى؟ وما حاجتى إلى علم ما أعلم؟ ولماذا أحقر نفسي وأمرغ وجهى في التراب وأضعه عند قدمى امرأة سوء كهذه؟ وأهم بالنهوض ولكنى أحس أنى قد سمرت إلى الكرسى أو لصقت به.. ويتجسد وهمى ويضحكنى أمري أحياناً ثم تغلبني الكآبة والحزن – على نفسى وعليها – ثم أراني غضبى وثرت وهاجت نقمتى على هذه المستهترة التى لا تبالي ولا تدرك.. ثم أراجع نفسى فأسألها: «ماذا تريدين منها أن تبالي.. أمن العدل أن أطالبها – أو أتوقع منها أن تحفل ما لا تدرك»؟ وأستسخف من نفسى أن أروح أنتظر من هذه العامية – على الرغم من أنها تعلمت شيئاً – أن ترتفع بنفسها إلى حيث ارتفعت أنا.. ثم أرجع فأقول: إن المسألة ليست مسألة تعليم أو ثقافة، وإن كان التعليم يهذب.

وانقضى النهار في هذه الهواجس أو الخواطر، وأقبل الليل ومعه البرد.. فاحتاجت أن أقوم وأن أتمشى لأنشر بالدفء، فرحت أتمشى في الحارة وعينى على بيتها وأنا في حماية الظلام. فسمعت بعد قليل صوت باب يفتح ويغلق فدنوت على أطراف أصابعى فإذا هو بابها، وإذا الخارج منه هو الضابط السودانى. وكاد يختفى في الظلام، ولكن الباب فتح مرة أخرى وخرج منه صوت كهذا: «هسسس» فوق الرجل وتلفت ثم كر راجعاً ووقف أمام الباب. وكانت على مسافة مترين منه، فأدرت ظهرى إليه ولويت عنقى لأكون أقدر على السمع، فسمعتها تقول له: «الساعة الثالثة تماماً.. فإنى أخشى أن يجيء ذلك الثقيل للسؤال عنى».. فمشيت.. ولم أقف لأنسمع رده..

الفصل الثامن

الهارب

دخل «سعید المیدانی» علی مدیر دار الكتب — حين أذن له — وهو يحيى وينشر الجريدة التی كانت مطوية تحت إبطه، وقال وهو يقدمها له: «هل قرأت هذا يا بك؟ إن الحملة واضحة التلفيق، ولهذا جئت وفي مرجوى أن أظفر منك ببيان للرد عليها». فتناولوها منه المدير وألقاها على طرف المكتب، ولم يكتم ضجره وهو يقول: «تفضل.. تفضل.. إن كل ما يعني رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون — كل ما يطلبون — فيها وأن يهتدوا إليه بسرعة وسهولة وبغير عناء أو تضييع وقت. ومتى كان هذا حاصلا فلست أبالي ما تكتب الصحف أو يقول غيرها. وهذا حسبي وحسبك بيانا، فإذا اقتنعت به فذاك.. وإلا فأمرى إلى الله، فما أستطيع أن أضيف وقتي في الكلام الفارغ».

وكان أمامه وهو يقول هذا كتاب ضخم وضع بين صفحتين منه قلما أحمر غليظا. وكان ينظر إلى إحدى الصفحتين ويشير بأصبعه إلى سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به. بل لقد خيل إلى سعيد أن الأمر كذلك، ولكنه هز رأسه كأنما يريد أن يطرد هذا الخاطر، فقد استأذن من غير أن يبين الغرض من المقابلة. وكان سعيد من أحدث خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية، ومن أنشطهم وأشدتهم إقبالا على التحصيل والاطلاع ونزوا إلى الاستقلال والعمل الحر. وحال فيه صاحب جريدة «الأحوال» الخير من لحاته، آنس الرشد من أعماله.. فألحقه بمساعديه الكثرين، وما لبث أن صار يعتمد عليه في تعقب الأخبار وتقصي الحقائق.

ورأى المدير أن سعيدا ينظر إلى الكتاب الذي بين يديه، فمسح جبينه العريض بأنامله ثم قال: «على فكرة.. هل عندكم في «الأحوال» ملفات خاصة بترجمة المشهورين؟ ثم كأنما تذكر أمرا، فقال: «متى أسمست جريدة الأحوال؟

فقال سعيد: «بعد الحرب العظمى.. سنة ١٩١٩ م — أو ١٩٢٠ م».
وقال المدير: «إذن لا فائدة..».

فقال سعيد: «هل تسمح لي أن أسأل ما هي الحكاية لعلى أستطيع أن أساعد». ف قال المدير: «الحقيقة أنها مسألة غريبة.. كنت أمس أقرأ كتاباً لعبد القادر التميمي، وهو كاتب مصرى وشاعر أيضاً.. وإن كان شعره قد ضاع بإهماله — أو على الأصح — لأنه هو أبى أن ينشره لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأى الناس فيه. وقد كان مشهوراً منذ أربعين سنة، ثم اختفى فجأة ولا يدرى أحد أهو حىٰ فُرجى أم ميت فيُبكي.. وقد رجعتاليوم إلى المستدرك — وأشار بيده إلى الكتاب الذى بين يديه — وهو كما تعلم الجزء الرابع من كتاب الأعلام للزركلى، فوجدت فيه نبذة عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه إلى آخر ذلك، وليس فيها تاريخ لوفاته. والمفهوم من هذا بداهة، أنه كان حياً حينما صدر الجزء الرابع من الأعلام — أعني المستدرك. ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاته إذا كان قد مات، ولكنه كان حينئذ خليقاً أن يذكر تاريخاً تقربياً لوفاته على عادته. لهذا أرجح أن الرجل كان حياً وقت صدور الكتاب. ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل... فهل هو لا يزال حياً؟ أم تراه مات؟ وأين؟ هذه هي المسألة. ولست أعتقد أن في وسعي أن تساعدنى، ولكن أدر المسألة في خاطرك عسى أن تهتدى إلى شيء فتخبرنى؟ إذا سمحت ولد الشكر».

ونهض واقفاً إيداناً بانتهاء المقابلة.. ولكن سعيداً كان مطرقاً، وكان يفرك جبينه بأصابعه، فلم ير المدير يقف.. فعاد ذاك إلى مقعده على مهل وقد جال بذهنه أن لعل هذا الشاب يعرف شيئاً أن يصفعه إليه، وتتبه سعيد ورفع رأسه وقال وعيشه على السقف: «عبد القادر التميمي؟ أى نعم.. أذكر هذا الاسم، وإن كنت لم أقرأ له شيئاً. قرأت عنه ولكن لم أقرأ له، وسمعت من أستاذنا في الجامعة أن الناس في عصره كانوا في حيرة من أمره، وكان أكثرهم لا يعرف له جداً من هزل.. وكان يتهكم بكل شيء.. كل شيء حتى نفسه. وكان أسلوبه جديدًا في بابه فأخذ الناس على غرة وكثير مقلدوه، ولكنهم أخفقوا فأقصروا».

وهنا تململ المدير، فما كانت به حاجة إلى من يصف له الرجل.. وإنما كانت حاجته إلى من يدله عليه أو على مكان قبره. ومضى سعيد في كلامه غير عابئ بضرر المدير، فقال: «نعم.. وأذكر أن أستاذنا قال: إنه رحل من مصر وخلف أسرته بها، وترك لها كل ما جمع من مال. وكان ابنه

قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه، ولم يرجع الأب بعد ذلك.. ولكن من الحق أنه لم يمت وإن كانت أخباره قد انقطعت.. نعم أذكر هذا.

فقال المدير: «أواثق أنت من ذلك؟

قال سعيد: «كل الثقة.. ولكن أين هو؟ لا يدرى أحد».

قال المدير: «ولكنه إذا كان لا يزال حيا – لابد أن يكون الآن قد جاوز الثمانين.. انتظر.. ولد.. نعم.. سنة ١٨٥٠، فهو الآن في السادسة والثمانين؟ يأله! أتظن؟ أنى لا أكاد أصدق، لقد كان معروفا عنه أنه مسرف في إنفاق حياته.. لا يبالى أعيش أم مات.. فكيف يمكن..؟»

فقال سعيد: «مثل هؤلاء الذين لا يبالون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يعمرون».

فقال المدير وهو شارد: «ربما.. ربما.. ولكن ٨٦ سنة.. هذا عمر.. هذا..».

فنهض سعيد ومد يده إلى المدير، وقال: «سأعنى بالبحث.. وإذا وفقت إلى شيء فسأخبرك..».

فمد المدير إليه يده، وهو يقول كالمحدث نفسه: «٨٦ سنة.. أما لو كان حيا؟ ولكن كيف يمكن؟ كيف يمكن؟»

مضى شهراً على هذا الحديث لم يسمع في خلالهما كلمة من سعيد، ولم يكف هو أثناءهما عن البحث والتقصي – عبثاً – فأقصر يائساً وصرف نفسه أسفًا عن عبد القادر التميمي. وكان جميل بك – أو إذا شئت اسمه كاملاً، جميل بك أحمد القناوى – رجلاً مخلصاً عطوفاً رقيق القلب، وقد شق عليه جداً أن يحدث في القرن العشرين أن يختفى أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحو من أربعين سنة، فتنساه الدنيا التي يسرها ويملئها حبوراً وجذلاً، ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما يبغى أن يعرف: «أهو حى أم تراه ميت؟» وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة إنسانية لأنه لم يشك في أن اختفاء هذا الأديب وانقطاع أخباره سببهما يأس عميق آخذ بالكاتب، وهو مع ذلك الذى يرفرف بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويهدبها بفكاشهه ويفيض على حياتهم البشر والسرور كما تفعل الشمس، ولم يسعه إلا أن يعجب لاختفاء رجل مشهور في عالم لا يكاد يختفى فيه شيء في هذا العصر، ورجح عنده لهذا أن الرجل لابد أن يكون قد لقى حتفه في أول مراحيل هجرته – إذا صح أن تسمى هجرة – ولا يبعد أن يكون قد تنكر واتقى ألا يحمل معه ما يدل على حقيقته. وأخلق به حينئذ أن يكون قد دفن

حيثما اتفق بالاسم الجديد الذى تنكر به، وهز جميل بك كتفيه ونمط شفتيه، ثم زفر زفرا طويلا وقال: «إيه لا حول ولا قوة الا بالله» وشرع يشعل سيجارة وإذا بالتليفون يدق إلى جانبه، فتناول السماعة متأثلا وقال: «نعم» ولكن ما عتم أن أعتدل في جلسته، وصاح: «أيه ماذا تقول؟»

ولكن الذى خاطبه اكتفى بما قال، فوضع جميل بك السماعة، وقام يتمشى بسرعة ويشعل سيجارة ويضعها في الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع في الطبق أربع سجائر بعضها أقصر من بعض وهو ناھل عنها جميعاً. وأنه ليهم بإشعال الخامسة، وإذا بالخادم — فقد كان في بيته — يتبئه أن «سعيد أفندي الميدانى» قد حضر، فيقول له بلهفة: «أدخله.. أدخله» ويسقه هو إلى الباب.
ويدخل سعيد أفندي ويده في يد جميل بك، وهو يقول: «نعم وجدته.. في غرفة في ربع قديم في اعتق أحيا هذه المدينة.. أو هو من اعتقاها..».

فيقول جميل بك: «وكيف وجدته؟»

فيقول سعيد أفندي: «أوه.. هذه حكاية طويلة. وليس المهم كيف وجدته، بل المهم أنى وجدته. ويمكننى أن أقول لك إنى استعنت بابنه، وقد كان اعتقاده أنه مات لا محالة، ولكنى زعزعت له هذا الاعتقاد بعنف بل بقوس.. هل تعلم أن ابنه أحيل على المعاش منذ سنتين، وإن له حفيدة تزوجت وولدت بنتا..».

فيقول جميل بك: «ليس عجيباً أن يعتقد ابنه أن أباً مات وشبع موتاً، ولكن كيف وجدته؟».

فيقول سعيد مرة أخرى: «لقد قلت لك أن هذه الحكاية طويلة..»
فيقول جميل بك: «إنما أعني كيف حاله».

فيقول سعيد: «حاله.. وماذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين وأقعدته شيخوخته العالية عن العمل.. فقر وضعف وعمش... حال لا يعلم بها إلا الله..».

— ولكن كيف يعيش؟

— كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون شخصيته لأنه يسمى نفسه عبد القادر ناجي.. أليس اسماً غريباً؟ إن اختياره له يشي بثقته بالله وبحسن المال على كل حال.. لقد أدهشنى منه أنه لا يزال يبتسم للدنيا ويؤمن بحسن حظه في الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقه الشديدة.. ولكن من يدرى؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه. فسألته جميل بك: «ألا يعرف أن ابنه موجود؟»

فقال سعيد: «يعرف، ولكنه أبي أن يذهب إليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يجعل نفسه حمillaة عليه، وخشى أن يأنف ابنه من الانتساب إليه إذا وقف على حالته الزرية».

- وهل قابل ابنه؟

- بالطبع ... وقال له حين رآه: من يصدق أنك ابنى؟ إنى أبدو أصغر منك.. على كل حال، يمكنك دائماً أن تنسى أنني مازلت على قيد الحياة.. فما أشك في أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتي. وأحسب أن بعثي الآن قد خيب أملي في.. كذلك قال لابنه.. مدهش.. إن ذهنه لا يزال حافظاً لقوته.. قال لابنه في جملة ما قال: إنى لما كبرت كنت أقول: لو عاش أبي لما عاشرته، لأنى أستنكر أن أكون فرعاً وأحب أنأشعر أننا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعما غذاه ونمراه. ولكن ذهنه يشرد أحياناً فيخلط في كلامه، لأنه يكر راجعاً إلى ذكرياته الطويلة في حياته الحافلة، من غير أن يشعرك بالانتقال أو الرجعة.. فتحس أنك تهت وضلل طريقك، وقد تظنه بهذه ولكنه ليس هذياناً بل كر الذهن إلى الوراء فجأة بغير انذار. ولما قلت له أنك تبحث عنه، ضحك وقال هل يريد أن يغلبني ويضعنى على رف.. وقال عن كتابه لما عرض ذكرها: إن خيرها ما لم يكتبه.. ولا تزال أستانه باقية بعضها، وقد قال لي إن متناتها وسلمتها من الآفات هما السبب في بقاءه حياً إلى الآن.. ولما قلت له إن من واجبه أن يمل مذكراته على بعضهم، صاح بي: «أعوذ بالله يا شيخ.. حرام عليك.. اتق الله في يابني».

فسائل جميل بك: «وماذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة؟»؟

- أوه كل شيء.. قال لي أنه لم يعش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب، وأن كل ما كان يرى نفسه تشتهيه كان يرى أنه محروم منه. وكان مما يشق عليه جداً أنه لا يرى نفسه يفعل إلا ما يكره فهو لا يحب المجالس التي يكثر فيها الناس ولا يرتاح إلى أحاديثها ولا يغبط بالزوار ويحب أن يشعر أن بيته حصن منيع لا يقتصر، ويجد ألا يجلس إلا الذين يصطفونه من الإخوان ويأنس بهم ويطمئن إليهم، ولكنه كان يجد - لسبب خارج عن إرادته بل ضد إرادته - أنه يعيش كما يعيش الناس، ويفعل ما يستقل، ويحرم ما يحب، وقد كبر في ظنه أنه سيظل حياته هكذا. ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى هذه الحياة أو أن يوطنها على احتمال هذا التقيد الذي لا يعرف ماذا يفرضه عليه، وشق عليه أن يظل هكذا.. يعرف أنه حر ولا ينعم مع

ذلك بحريته، فكره هذه الحرية الظاهرية، ومل السخط على نفسه.. وود لو أنه مقيدحقيقة بإرادة غيره ليتسنى له على الأقل أن ينحي باللائمة على هذه الإرادة الخارجيةويجعلها غرضاً لذمه وطعنه. ولهذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبية للملاحة، وركبعلى باخرها البحار.. وأقام في الموانئ متذوباً لها، ثم ترك ذلك وعمل وكيلاً تجارياًيجب المدن ويذرع الأرض داعياً مربغاً، ثم انقلب مدرساً للغة العربية في بلاد الأفغانحتى أقعدته الشيخوخة ولم تقعده في الحقيقة. ولكن الناس كانوا يرون أن سنه علتفهم يزهدون فيه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سناً، وكان قد جمع مالاً فيرحلاته الكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاد فعاد إلى مصر فدخلهاو معه نحو تسعين جنيهاً. قال لي — وهو يضحك: إنه حدث نفسه أنه ينبغي أن يموتبعد أن تنفذ، فما له رزق سواها. ولكنه كان يخرج ويتردد على المكاتب التجارية، فأنسبه أصحابها وأدركوا أنه عالم وأن في وسعهم أن يستغلوه، فكان يضبط لهم الكتبالقيمة التي يعيدهم طبعها، وساعدته ذلك على إطالة عمره، فقد أغناه عن الإنفاق منرأس ماله أو ما بقى منه. ومعنى ذلك عنده أن عمره طال لأنه يحسب عمره بما لديهمن المال، فعلى حسب كثرته أو قلته يكون ما بقى له في الدنيا من السنين.. فهلرأيت
أعجب من هذا؟

فأطرق جميل بك شيئاً، ثم رفع رأسه وقال: «لا شك أن الأمر عجيب ولكن ابنه... ألم يأخذ بعد أن اهتدى إليه؟»

قال سعيد: «أوه.. إن الرجل شاذ كما تعرف وقد أبى كل الإباء أن يذهب إلىبيت ابنه، لأن هذا خليق أن يحدث في رأيه اضطراباً لا داعي له في حياة ابنه. وقد أطال النظر إلى البذلة الأنثوية التي يلبسها ابنه، ثم ألقى نظرة على الجلباب البسيطة الذييرتديه هو وأشار بيده المعروقة إلى الثوبين، وقال: «دعني لشأنى، فإنه غير شأنك» ولمزيد بعد على الابتسام كلما ألح عليه ابنه في القيام معه».

قال جميل بك: «والآن لا نستطيع أن نصنع شيئاً لهذا الرجل الذي كشفنا عنه؟ إن رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلما وقعوا على حجر قديم، أفلًا ينبغي أننبه الناس إلى حقيقة هذا الرجل الذي لا يزال حيا وإن كان محسوباً في أهل القرونالخالية؟»

قال سعيد: «بالطبع نستطيع.. يمكن مثلاً أن نقيم احتفالاً كبيراً في أكبر الفنادقندعوا إليه رجال الأدب والعلم والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقدم إليهم صاحبنا.. غرابة الموضوع نفسه كفيلة وحدتها بنجاح الحفل».

فهز جمبل بك رأسه، وقال: «لا شك.. ولكن صاحبنا لا يبالى هذا ولا فائدة له منه على كل حال، وأنا أخشى إذا دعونا إلى الاكتتاب أن لا نفوز بشيء يستحق الذكر.. فنكون قد أهان الرجل بلا داع.. ثم من يدرى.. فقد يأبى هذا وذاك...».

فقال سعيد، وهو ينهض: «أقول لك.. دع هذا لي.. والله الموفق».

لم يكن الأستاذ عبد القادر التميمي يربح بيته، وكان يجلس طول النهار على سريره الضيق تحت النافذة ويطل منها ولا يكاد يحول عينه عنها. ولم يكن يرى شيئاً في الحقيقة إلا أشكال المباني القرية، وذاك لضعف بصره.. ولكنه لم يكن ينظر ليري شيئاً، ولا كان يعني بأن يرى أو أن تأخذ عينه المناظر، وإنما كان يحقق كالذاهل. وكانت أسرار وجده المتعدد تنبسط أو تعمق الأخاديد التي حفرها الزمن، فيخيل إلى الناظر إليه أن هذا وقع ما يشاهده. ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك وعلى نقشه، فما كان يبصر شيئاً وإنما كان يدبر عينه في قلبه أى في ماضيه، فيبدو عليه السرور أو الألم أو غير ذلك، كما يبدو على وجهه من يشاهد قصة معروضة في دار السينما. وكان سعيد يزوره كل يوم مرة – وأحياناً مرتين – في اليوم ويصفى إليه – أكثر الوقت، وهو يهضب ويصح بذكرياته التي لا آخر لها وقال له مرة: «ما رأيك يا أستاذ.. أن خبر عودتك قد شاع وذاع بين الأدباء ورجال الصحف وكلهم متلهف على رؤيتك».

فقال بإيجاز: «فليتلهفوا». فقال سعيد: «ولكنهم لابد أن يصلوا إليك في النهاية.. كما وصلت أنا.. ولا سبيل إلى صدهم». فتجهم الرجل وقال: «ولكن يجب أن يمنعوا.. إن المكان لا يليق.. ما العمل.. أشر..» قال: «اسمع منى وأطعنى.. خير ما يمكن أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة». قال: «ولكن كيف يتمنى ذلك؟ هذا مستحيل». قال: «كلا.. الضرورة تتفق الحيلة.. وقد رأى المعجبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا حفلة يدعون إليها الأدباء والعلماء ورجال الصحف ورجال الدولة أيضاً.. فنفرغ من الأمر كله في ساعة». قال: «ساعة؟ يا حفيظ». قال: «هذا أهون من أن تظل كل يوم ساعة معرضاً لحضورهم إلى هنا وإزعاجك.. فكر..». قال: «صحت.. ولكن حفلة؟ حفلة. إن هذا صعب».

قال: «لماذا.. أين الصعوبة؟ ما عليك إلا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم تصرف جميماً، وكفى الله المؤمنين القتال».

فأطرق الرجل قليلاً ثم قال: «ولكنني لا أريد أن أختصر حياتي.. إنني أستطيع أن أعيش.. دعني أنظر..».

فعالجه سعيد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحفلة من النفقات للثياب، فقد كان هذا هو الذي يفكر فيه ويستغله خوفا على عمره. ولكن المشكّل لم يُحلّ مع ذلك، فقد كان ابنه على بك — فقد صار بيكا — عبد القادر التميمي، في حيرة شديدة من أمره من جراء عناد أبيه، فإنه — أى على بك — رجل ذو مركز ومقام في المجتمع، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب لرجل له مركز ومقام في المجتمع أيضاً، وليس يليق أن يكون أبوه — أى أبو على بك — هذا الرجل الرث الهيئة الزرى للباس الرقيق الحال الساكن في غرفة حقيقة في ربّع عتيق أو جديد إذا أمكن أن يكون هناك ربّع جديد — وقد استطاع أن يرجئ لقاء بنيه ونسبيه لهذا الأب الذي جاء من حيث لم يكن يحتسب، فقد زعم لهم أن العثور عليه أو الاهتمام إليه أحدث له رجّة عصبية يحسن معها اتقاء إزعاجه إلى حين. ولكن الصحف بدأت تكتب وتفيض، ولا سبيل إلى كبح الصحف أو صرفها عن الموضوع.. فما كل يوم يختفى أديب كانت له شهرة واسعة، ثم يظهر بعد أربعين سنة. وقد حرص جميل بك وسعيد أفندي على إخفاء مسكن الرجل، ولكن الصحف لا يسعها أن تصبر على ذلك.. ومن حقها أن تعرف أين يسكن أو يقيم وإلا كانت معدورة إذا هي استربت في الأمر كله. أضف إلى ذلك أن حفلة ستقام ويشهد لها مئات من الخلق. وقد كانت فكرة الحفلة هي التي أعاّنت جميل بك على إقناع الصحف بالصبر والانتظار، وجعلت الموضوع شيئاً وخليقاً أن يجد القراء فيه مثل لذة الأساطير. ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر للأمر من كشف الحقيقة كلها، فما العمل؟

لهذا لجأ إلى سعيد وجميل بك ورجا منها أن ينقداه ويحولا دون الفضيحة التي يرجع منها ولا يعرف له قدرة على احتمالها، فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل — ظهر يوم الحفلة — بعد أن يلبسوه بدلة إلى بيت ابنه، ومن هناك يذهبون به إلى الحفلة في المساء.

وجاء يوم الاحتفال، فذهب إليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسها إليها.. فأبى واستكبر وغضب أيضاً، وقال إنه ليست به حاجة إلى ثياب ولا إلى أحد من الناس، وإنه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه إنسان، وإنه ما يعيّب ثيابه على كل حال؟ أليس قد قابل بها الناس في مصر وفلسطين والشام والجاز والأفغان والعراق وإيران.. فإذا كانت لا تكفي هؤلاء المعجبين به والذين يريدون أن يحتفوا ببعته، فإنه

يحسن بسعيد أن يحمل إليهم ما جاء به من الثياب على مشجب، ويقول لهم إن هذا ما يطلبون وهو كل ما يستحقون أن يروا.

ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها، بل فاه بما هو أعنف. وكان صوته متهدجاً وكلامه متقطعاً، وكانت لحيته الطويلة الكثة تضطرب وأسنانه الباقية تصطك، فلم يجد سعيد بُدًّا من السكوت والكف عن الإلحاح عليه بعد أن وضحت له قلة جدواه، وسائل الله في سره الستر والسلامة في هذه الليلة.

وخرجًا من الغرفة.. سعيد في ثيابه الإفرنجية التي يلبسها الأفنديه من أمثاله، والأستاذ التميي في جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل فكانه مركوب أبي القاسم، وطريوش مصرى سوى أنه طرى وعليه لغة كانت في الأصل مزركرة فأصبحت ألوانها حائلة باهتة.

وكان سعيد قد جاء في مركبة وتركها تنتظر في الطريق أمام الباب، فأحاط بها غلمان الحارة.. هذا ينط على السلم وذلك يعبث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك مرات، والسايق يصبح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التي دخل فيها هذه الحرارة، ويقرع بسوطه ليزجرهم ويختفهم فينفضون متضاحkin ثم يعودون إلى غيئهم حتى كاد عقل السائق يطير. فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون، والسايق يلوح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج إلى الطريق العام.

ولا نطيل.. ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رأه أعضاؤها وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورثاثتها. وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل وأشدتهم قلقاً واضطراباً، ولا سيما حين عرف إصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لقد أشفع على سعيد أفندي أن يفلج، فراح يحاور الأستاذ التميي ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله.. ولكن الرجل كان جيلاً لا يتزعزع، ولا قال: «أنا كما أنا.. فمن كان يقبلني على علاتي فأهلاً به، وإنما أرجع إلى غرفتي..» مما طلبت أن أجيء ولا أردت أن يعرف ابني أو سواه أنى على قيد الحياة، عندئذ أمسك سعيد أفندي وأقصر.

وكانت الحفلة في فندق من أكبر فنادق المدينة وفي أوسع قاعاتها، وقد دُعى إليها – أو على الأصح اشتراك فيها – نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة. وكان أكثرهم قد بكر وجاء قبل الموعده.. وجاء غير المدعوين – أو المشتركون

— كثيرون، وقفوا بحيث يرون الداخلين، واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذي بُعث بعد أربعين سنة، والذى دأبت الصحف عدة أيام متواتلة على الكتابة عنه. واستعد المصورون لاستقباله وتصويره في القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية.

ثم أقبل أحد الشبان يudo، وقال: « جاء الأستاذ »، فساد السكون وانقطع حتى الهمس وتعلقت الأنفاس وشاربت الأنفاس، واتجهت العيون إلى الباب لرؤيه هذا الذى كأنما قام من القبر. ودخل الأستاذ في الثياب التى أبي سواها، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد أفندي، وأقبل ابنه وراءهم. ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات وإنما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذى الثياب العتيقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة للملائمة وإن كانت لا ترى إلا قليلاً. وكان قد ثقل عليه مارأى من ابنه، فآل ليرجعن إلى غرفته. وعرض جميل بك المدعون على الأستاذ بأسمائهم، فصافحوه واحداً بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه وإن كانوا جميعاً قد ترافقوا به وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته. ولم يبد عليهم ما خشيء ابنه من الاشمئزاز أو الاستخفاف، حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاليه.

وأدبرت ألوان الطعام، فكان الأستاذ يسأل عما يعرض عليه، ما اسمه؟ وكيف يصنع؟ ولا يتناول إلا بقدر. وكان المدعون في أول الأمر يحدجونه بعيونهم، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفا إلى الطعام والحديث. ولكل شيء آخر — انتهى الأكل وببدأ الخطب والقصائد والأستاذ مطرق كأنه يصفع، وكان يهز رأسه من حين إلى حين كمن سره شيء — أو ما يسمع.

وانتهى هذا أيضاً على طوله، فهمس جميل بك في أذن الأستاذ: « لا تحب أن تتفضل بكلمة ترد بها عليهم؟ »

فقال الأستاذ مستغرباً: « أنا؟.. أقول كلمة؟.. أرد على مازا؟ الحقيقة أنى لم أكن مصغياً.. لم أكن مصغياً.. لم يكن بالى إليهم ».

فذعر جميل بك — فما كان يتوقع هذا — وقال: « ولكن يا أستاذ. لابد من كلمة.. لا نستطيع أن نقول لهم إنك لم تكن مصغياً إلى كلامهم.. أرجو يا أستاذ.. كلمة شكر قصيرة.. القليل منك كثير ».

فهز الأستاذ كتفيه، وقال: « إن هذا غريب! لقد كنت أفكـر في ليلة قضيتها في كهف... ».

فقال جميل بك مقاطعا: «فيما بعد الحفلة نسمع ما كنت تفكير فيه.. لابد أنه كان شيئاً غريباً.. ولكن الآن.. أرجو يا أستاذ».

فالتفت إليه، وقال: «ماذا قلت إنهم كانوا يقولون؟ إنى لم أكن مصغياً».

فقال جميل بك: «كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتب العديدة ويصفون ما فيها.. كلام كثير يصعب أن الخصه لك الآن. أنا أيضاً قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف.. نهايته.. لابد من الرد، فاصنعوا معرفوا».

وكان سعيد - حلال المضلات - قد أدرك وهو في مكانه أن في الأمر شيئاً، فخف إلى جميل.. فلما عرف المسألة انحنى على الأستاذ، وهمس في أذنه: «إن هؤلاء الناس خليقون أن يتوهموا أننا ضحكتنا عليهم أو أننا مخدوعون، وأنك لست الأستاذ التميمي وأنت رجل غيره ينتحل اسمه، فقم قل كلمة وإلا...» ولم يتمها فقد نهض الأستاذ معبساً، ورفع رأسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن، وكانت لحيته تضطرب، وشفته تختلج، وكفاه لا تثبتان على المائدة التي وقف معتدماً عليها، وظل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح في أثنائها أنه يعالج نفسه ليردها إلى السكون، ويحاول أن يضبط أعصابه ويفيء بها إلى الاتزان ثم فتح فمه، وقال بصوت خافت: «أيها السادة» وسكت شيئاً وثبت حملقه فكانه تمثال نصب في مكانه، ثم ابتسم فجأة وببدأ يتكلّم بلا توقف. ولم يشكّرهم كما رجا منه جميل بك، بل قال لهم في صراحة سرت فريقاً وساعات آخرين، إنه وجد بالتجربة الطويلة أن من العسيرة أن يهرب المرء في هذه الدنيا من الناس - ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص - المخلصين والمتكففين والذين يظلون يوحون إلى نفوسهم أنهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك. كلا، لا سبيل إلى الهرب.. وطالب الفرار لابد له من الجرى الطويل والذهاب إلى أبعد مما كانت الحاجة تدعوه إليه قبل نصف قرن. وهو يتكلّم عن خبرة فيجب أن يصدقه، بل إن وجوده الليلة بينهم دليل مادى على تعذر الهرب في هذا الزمان الذي امتد به العمر إليه. وكيف يهرب الإنسان؟ إلى أى مكان يذهب وكل مكان فيه ناس؟ وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل.. ومن أى مكان يهرب؟ إن الهرب الصحيح مستحيل.. وقد يستطيع المرء أن يعيش في الصين، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والإسكندرية ودمشق والقدس موجودة. والهرب من الزمان أصعب. نعم، يتوهם المرء أنه يعيش لا في الحاضر بل في المستقبل وللمستقبل، ويروح يعزى نفسه عما هو كائن بما يزعم أنه سيكون، ويذهب يعمل ليقلب الدنيا ويجعلها كما ينبغي أن

تكون، «إنى أؤكد لكم أنى أعرف هذا. فقد فعلته — أعنى توهّمته — وعشت في سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بما سيكون».

وقال لهم إن هذا كله عبث في عبث، وأكد لهم أنه لا مسوغ على الإطلاق لأن يفترض الإنسان أن للجنس الإنساني مستقبلا.. هذا أولاً. وثانياً أن ما ننسى له ونلح في طلبه أو تمنيه، قد يكون مستحيل التحقيق. وهب أن تحقيقه ميسور، فقد يتبيّن أنه ليس مما يسيّغه أو يرتاح إليه أو يرضي به الجنس الإنساني. وسألهم هل هم يعتقدون أن الإنسان ينشد السعادة؟ ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التي لا تزول ولا تتغيّر ممكنة، ألا يستفطعها الإنسان ويفرق من تحقيقها؟ على أن التفكير في المستقبل والسعى له لا يمنع أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده.. وهناك مهرب آخر إذ يتعلق المرء بالمثل العليا وصور الكمال، ولكن اللجوء إلى الخيال لا ينفي الحقائق المحيطة بالإنسان. وانتهى إلى أن المهرب الوحيد الصحيح لا يكون في الحياة وهذا لا يعد مهرباً، لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بإداركه أنه استطاع الهرب.. ولو كان هذا مهرباً حقيقياً للجأ إليه! وابتسم وقال إنه يرجو أن لا يلتجئوا إلى هذا الذي ليس مهرباً..

واستطرد بطريقة ما إلى كتبه وما يلقى التكريم من أجله، فقال إنه واثق أن أكثر الموجودين لم يسمعوا باسمه، ولم يكونوا يعلمون أن له كتاباً، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أراده، وقد يكون هذا عبيه هو كما قد يكون عبيهم هم، ولكنه الواقع على كل حال. والمجتمع لا ينتظم أمره إلا بالمجاملة وهي شيء حسن في ذاته، ولكنه هو فرغ من ذلك كله وأخرجه سنه من المجتمع وأعفته من ضروراته. وهو ليس من هذا الزمن، فيحسن أن يرتد ويتراجع إلى ما أخرجوه منه لأنه ليس إلا قطعة متخلفة من زمن سابق، ولا شك أنهم أدركوا غلطتهم حين خرجوا به إلى زمانهم.

وظل يهضب على هذا النحو الذي لم يكن منتظرًا ولا كان في حساب أحد. وطال الأمر فمل الناس وأحس هو الهمس.. فلم يترفق بالذين ضجروا لأنما أراد أن ينتقم لنفسه أو أن يبغضها إليهم فيتركوه بعد ذلك في سلام. ولم يطق البعض المقام أو طوله، فتسلى خارجاً وتبعه غيره وغيره حتى لم يبق إلا ما دون النصف.

ولكل شيء آخر.. عاد الأستاذ إلى غرفته لا إلى بيت ابنه واستلقى على فراشه بثيابه، فقد أضناه الكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة.

وفي الصباح جمع ثيابه وأشياءه، وانتقل إلى ربع آخر.

وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة التي ظلت أيامًا تدعى لها وتروج، وفي صدر أكثرها خطبته التي عنى سعيد بتدوينها.

فلم يجد الأستاذ، وأعياده أن يعرف أين ذهب.. فأسرع إلى ابنه على بك يخبره
ويسألة ما العمل، فقال على بك وهو يرسل الدخان في الهواء: «أظن أن الواجب أن
نحترم إرادته ونعفيه من الإثقال عليه».
فمضى عنه سعيد وهو يهز رأسه ويفكر في على بك، أكثر مما يفكر فيمن عاد
فاختفى.

الفصل التاسع

النسیان

- إنك قاس..

- أنا؟ يا خبرأسود! وهل في هذه الدنيا الطويلة العريضة من هو أرق مني قلبا؟

- ولكنه أبي.. أنا أتألم.

- أعرف أنه أبوك.. وأعرف أيضاً أنه نادر، وأنه منقطع القرین.. أيفى هذا الثناء
أم تريدين الزيادة؟ يكفى؟ حسن.. ولكن ذهوله يضحك الثكلى، فماذا أصنع؟.. ما
حيلتي؟

فقالت الفتاة بلهجة مبطنة بالعتاب: «ولكن هل من الضروري أن تقلده؟ إن هذا
هو الذي يسوعني منك». .

فقلت: «فكري يا فتاتي.. قولى لي كيف يمكن أن أقص عليك الحكاية وأصف لك
ما حدث بغير ذلك.. إنى لا أريد تقليدك، ولكن الصدق في الرواية والفن في عرضها
يتطلبان ذلك.. بل يجئ من التقليد عفواً وعلى غير عمد» فاقتنعت أو هي لم تقنع،
ولكنى كنت قبل أن يدور هذا الحوار، قد شرعت أقص عليها حادثة جديدة من حوادثه
التي لا آخر لها.. فلما احتجت إلى تقليدك في بعض مواقفها ضحكت، ثم انقلبت تعاب
وتستهجن التقليد وتعيب المحاكاة. وهذا بعض ما يحيرنى من المرأة، فقد كان ضحكتها
وعتابها في وقت معا، وكانت تضحك وتشير إلى بيدها منكرة ماترى وتسمع منى.

وقد عرفتها من أبيها، وبفضل ذهوله العجيب. وكانت تخرج معه لتقيه عواقب
ما يقع منه. فكأنها وهي ترافقه وتزوره وتجيء معه، ذاكرته الذاهبة. واتفق يوماً أن
نسيها - نعم نسيها - وخرج وحده، واهتدى - لا يدرى أحد كيف؟ - إلى نادٍ لم
أكن أعرف أن مثله موجود في بلادنا، فإن حياة الأندية طارئة وعهدنا بها حديث جدا.
وكلت قد دعيت في تلك الليلة إلى زيارة هذا النادى، وقضاء بعض الوقت فيه.. وكان

الذى دعاني يرجو أن أنضم إليه ويحثنى على ذلك ويزينه لي، وأناأتاً تابى وأبين له أن حياة الأندية في مصر جافة ثقيلة، وأنها قلما تكون إلا حياة مقامرة أو ما أشبه ذلك، فيوضحك مني وينفى ذلك ويقول: «تعال انظر بعينك ثم احك» فذهبت وكان أول من لقينا هذا الشيخ ولم أكن أحتج إلى من يعرفني به، فإنه صديق قديم.. فأقبلت عليه وجلست معه فصدق، فلما جاء الخادم نظر إليه مستغربا ثم إلى أنا مستفهمـا. فقال الخادم، وكان يعرف ذهولـه: «هل تريـد شيئاً يا بك؟»
فقالـ البـكـ: «أـ.. أـ.. أـريدـ.. أـريدـ.. ماـذا أـريدـ؟»

فكتـمتـ الضـحـكـ، وـقـالـ الخـادـمـ: «لـقـدـ دـعـوتـنـىـ يـاـ سـيـدىـ فـهـلـ أـجـىـءـ لـكـ بـقـدـحـ مـنـ الـوـيـسـكـىـ؟ـ فـنـسـيـنـىـ وـقـالـ: «أـ.. أـ.. نـعـمـ.. نـعـمـ.. نـعـمـ.. نـعـمـ..»ـ وـذـهـبـ الخـادـمـ وـعـدـنـاـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ الذـىـ لـاـ يـكـونـ مـعـهـ إـلـاـ مـحـاـوـرـاتـ وـلـفـاـ مـنـ هـنـاـ وـهـاـهـنـاـ، بـسـبـبـ هـذـهـ الـذـهـولـ الذـىـ أـصـيـبـ بـهـ.ـ فـقـالـ بـعـدـ كـلـمـاتـ: «وـلـكـنـ أـهـمـلـكـ.. إـنـ هـذـاـ لـاـ يـلـيقـ.. أـعـذـرـنـىـ.. لـقـدـ نـسـيـتـ أـنـ أـدـعـوـ الخـادـمـ».ـ وـصـفـقـ مـرـةـ أـخـرىـ، فـلـمـ جـاءـ الخـادـمـ لـمـ أـقـلـ شـيـئـاـ اـنـتـظـارـاـ لـمـ يـكـونـ مـنـهـ،ـ فـقـالـ لـهـ: «أـ.. يـاـ خـلـيلـ.. هـلـ طـلـبـتـ مـنـكـ شـيـئـاـ؟ـ»ـ فـقـالـ الخـادـمـ: «نـعـمـ.. قـدـحـاـ مـنـ الـوـيـسـكـىـ؟ـ»ـ فـسـأـلـهـ: «هـلـ جـئـتـ بـهـ؟ـ أـعـنـىـ..؟ـ»ـ قـالـ: «لـاـ يـاـ بـكـ.. سـأـجـىـءـ بـهـ حـالـاـ.ـ»ـ

ومضـىـ عـنـاـ فـصـفـقـتـ أـنـاـ وـطـلـبـتـ مـاـ طـابـ لـىـ،ـ فـمـالـ عـلـىـ الخـادـمـ وـهـمـسـ فـيـ أـذـنـىـ: «إـذـنـىـ سـمـحـتـ لـىـ يـاـ بـكـ فـإـنـ اـسـمـىـ عـبـدـهـ،ـ وـلـكـ الـبـكـ يـنـسـانـىـ وـيـطـلـقـ عـلـىـ كـلـ يـوـمـ اـسـمـاـ جـدـيدـاـ.ـ وـسـأـلـنـىـ الشـيـخـ الـمـسـكـيـنـ بـعـدـ أـنـ ذـهـبـ الخـادـمـ: «مـاـذـاـ يـرـيدـ هـذـاـ الرـجـلـ؟ـ قـلتـ: «لـاـ شـيـءـ..ـ كـانـ يـقـولـ إـنـ اـسـمـهـ عـبـدـ لـاـ خـلـيلـ.ـ قـالـ: «مـنـ هـوـ؟ـ»ـ قـلتـ: «الـخـادـمـ».ـ قـالـ: «مـاـلـهـ؟ـ»ـ.ـ قـلتـ: «اسـمـهـ عـبـدـهـ».ـ قـالـ: «عـبـدـهـ؟ـ»ـ.ـ قـلتـ: «نـعـمـ».ـ قـالـ: «مـنـ عـبـدـهـ هـذـاـ؟ـ»ـ.ـ قـلتـ: «الـخـادـمـ».ـ

وـأـحـسـتـ أـنـهـ سـيـعـودـ فـيـسـأـلـنـىـ: «مـاـلـهـ؟ـ وـكـانـ الـوـيـسـكـىـ قدـ أـقـبـلـ بـهـ الرـجـلـ فـقـلتـ لـهـ: «آـهـ..ـ هـذـهـ كـأـسـكـ..ـ وـمـعـهـ كـأـسـيـ أـيـضاـ.ـ»ـ

فـنـظـرـ إـلـىـ كـأـنـهـ لـاـ يـفـهـمـ مـاـ أـقـولـ وـسـكـتـ أـنـاـ،ـ فـمـاـ أـدـرـىـ مـاـ يـدـورـ فـيـ نـفـسـهـ،ـ وـطـالـ الـأـمـرـ،ـ فـشـعـرـتـ بـالـضـيقـ..ـ فـلـيـسـ مـاـ يـخـفـ مـحـمـلـهـ عـلـىـ النـفـسـ أـنـ تـرـىـ غـيرـكـ يـحـدـقـ فـيـ وـجـهـكـ وـلـاـ يـطـرـفـ.ـ فـنـظـرـتـ إـلـىـهـ مـسـتـغـربـاـ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـ كـأـنـهـ لـاـ يـرـانـيـ وـخـيـلـ إـلـىـ أـنـيـ فـيـ

طريق نظرته، فتزحزحت عن مكانى إلى الوراء قليلاً وبقى هو ثابت الحملقة لا يشعر بي ولا بحركتى، فحولت وجهى إلى حيث ينظر فلم أر شيئاً – أعني أنى لم أر ما يستوجب هذا التحديق كله – فتركته لشأنه حتى يثوب إلى ويمل طول النظر.

وبعد هنيئة، قال – وكأنه يحدث نفسه: «لم أر في حياتي إنساناً يأكل هكذا».

فدهشت وقلت: «إيه؟ كيف؟

فأهمل سؤالى – أو لعله لم يسمعه – وسألنى هو: «هل تقضم اللقمة وتبلغها بلا مضى؟

فزادت دهشتى، وقلت: «كلا بالطبع.. من قال لك أنى أصنع ذلك؟

قال: «خفت أن تكون ممن يفعلون ذلك.. ليس أضر على المعدة منه...».

فسكت، فقد استطردنا إلى حديث لم يكن لي في حساب، فعاد يقول: «كلا.. لا تفعل.. احذر...».

فقلت، وقد مللت: «ما الذى يُجرى بيالك هذا السؤال؟» قال: «إيه؟.. أى سؤال؟

قلت: «المضى والبلع، ولا أدرى ماذا أيضاً». قال: «ألا تمضى طعامك؟» قلت: «بالطبع أمضفه.. لماذا تسأل؟

قال: «خفت ألا تكون تمضغه.. لقد كان الطبيب يوصينى أن أمضى اللقمة اثنتين وثلاثين مرة أو ثلاثة وثلاثين لا أدرى.. الزيادة احتياط ينفع ولا يضر.. هل تفعل ذلك؟

فقلت لنفسي: إن النسيان في ذاته وبمحرره ثقيل وبلاء عظيم، ولكنه يكون أعظم وأثقل إذا ألح على المصاب به خاطر واحد يحوم حوله العقل ولا يقع ولا يستقر، فأردت أن أصرفه عن ذلك، فسألته هل له في كأس ثانية من الويسيكى، وحدثت نفسى وأنا أسأله إن رؤيته مخموراً لا يكاد يعي ما يقول أفضل وأشبه بما ينبغي، وأقل استدعاء للعجب والاستغراب من تخليطه وهو مفيق صاح. ولكنه رد على سؤاله بسؤاله أذهلى، فقد قال مستغرباً: «وهل شربت ويسيكى؟» ووجه العجب في كلامه أنه لم

يشعر بالتأثير المألف للخمر، فكانه لا يسخر لأنه ينسى أنه شرب شيئاً. ويفتهر أن نسيانه هذا يعفيه من تأثير الخمر وينجيه من إسكارها، وصار السؤال الذى يحيرنى هو: «إذا كانت الخمر لا تؤثر في نفسه أو جسمه أو عقله، فلماذا يشربها؟

وبدا لي أن خير ما أصنع هو أن أعود به إلى بيته، فاقترحت ذلك فوافق ونهضنا. وحملته في السيارة إلى هناك.. ولم يكن ينسى أين يسكن، ولكن الموقع كان يغيب عنه أحياناً وتخونه ذاكرته فيقف حائراً لا يدرى ماذا يصنع حتى يتذكر أو يلقى من يعرف البيت فيسأله ويدله عليه أو يمضي به إليه.

وكانت بنته في النافذة تنتظر أوبته وهي قلقة خائفة عليه.. فأسرعت إلى الباب تفتحه، وكانت ذكية فلم تعابه. وما جدوى عتاب من لا يتنكر شيئاً؟ ودخل غرفته ونسينى مع فتاته.

وقالت لى: «ماذا حدث؟.. لا تدعنى معلقة.. طمئنى» قلت: «كل خير..» وشرعت أصف لها ما وقع منه وأقلده وهو ينظر إلى الرجل الأكول المبطان الذى يعظم اللقم ويبلعها بلا مضغ، وقلت لها بعد ذلك: «إنى أحسد أباك فما أشك فى أنه قد نسى كل ما يجب أن ينساه المرء من متاعب الحياة ومن مخصاتها لو كان إلى هنا سبيل غير الذهول». قالت: «إنى أخشى أن ينسى اسمه فلا يعود يعرف من هو، ألا تكون هذه مصيبة؟» قلت: «يا فتاتى إنه ليس أحمق ولا أقل عقلاً من يحمل هم المصيبة قبل نزولها.. دعى هذا إلى أوانه وعسى ألا يجيء. ومع ذلك هل أنت واثقة أنه يعرف اسمه؟ من يدرى؟ أمن أجل أنا لا نسأل عنه يكون عارفاً؟» قالت: «لا تفرعنى». قلت: «إنما أردت أن أبين لك أن ما تخافين، لو وقع لما كان شرا في الحقيقة أو أدهى مما هو حاصل الآن، فلا تزعجى نفسك بلا موجب. وعسى ألا يكون إلا كل خير.. والآن فلنتكلم عن شيء آخر.. شيء أحلى من أبيك وإن كان يكفيه من الحلاوة أنه كان له هذا الفضل العظيم على الدنيا التي تجملينها يا فتاتى».

فقالت وهي تضحك: «إنك لا تعرف إلا موضوعين حين تكون معى ... أنا وأبى». قلت: «وأنا.. أليس لي حساب عندك؟ ألا أصلاح أن أكون موضوعاً ثالثاً معكم؟». قالت: «بالطبع.. ولكنك لست شيئاً ثالثاً.. موضوعك هو موضوعنا، فهما يبيقيان اثنين ليس إلا..».

قلت بابتسامة أردت أن يكون لها معناها: «صحيح؟ بالذمة؟» قالت: «يا خبيث ليس هذا ما أعني». قلت: «هذا الذى لا تعنينه، ما هو؟» قالت: «طيب اسكت بقى». قلت: «سكتنا يا ستي» ومددت يدى إلى كفها الرخض وأطبقت عليه أصابعى الخشنة، فتركتنى هنيئة ثم سحبت كفها فنظرت إليها فقالت: «أو لا تسكت؟»؟

فلم أتكلم وأشارت إلى فمى المطبق فضحكـت، فهزـت رأسـى موافقـاً وأنا أبـسم، فعادـت إـلى الضـحكـ، فـعدـت إـلى إـشارـات الاستـحسـان والـرضـى. وـتـكرـر هـذـا مـرـاتـ، فـصـاحـت بـىـ: «ـأـلـا تـنـطقـ؟.. أـيـن لـسـانـكـ؟ـ. فـقلـت وـأـنـا أـنـظرـ إـلـى السـمـاءـ – أـعـنى إـلـى السـقـفـ فـقـدـ كانـ يـحـبـ السـمـاءـ: «ـحـرـت وـالـهـ مـعـكـ.. أـسـكـت طـوـعاـ لأـمـرـكـ فـلا يـرـضـيـكـ الصـمتـ. وـأـتـكـلـمـ اـمـتـالـاـ لـشـيـئـكـ فـلا يـرـوـقـكـ الـكـلـامـ فـمـاـذـا أـصـنـعـ بـالـهـ؟.. كـوـنـى مـنـصـفـةـ»ـ.

فضحكت، قلت: «عندى اقتراح». قالت: «ما هو؟» قلت: «هناك ما هو أبلغ من كل كلام وأحسن من الصمت أيضا وإن كان مما يحوج إليه ولا يتيسر الكلام معه.. فزوت ما بين عينيها، وقالت: «ما هذا؟

قلت: «هل أفهم من تقطيبك أنك غير موافقة سلفا؟» قالت: «لست مقطبة، ولكنني أفكرا». قلت: «لماذا تتبعين هذا الرأس الصغير بالتفكير؟ دعيه مرتاحا وتعالى نعمل بالاقتراح أولا، ثم نفكّر بعد ذلك في جماله وما أفادناه من السرور به». قالت: «ولكن ما هو؟ ألا تقول لي أولا». قلت: «هو ذا» وملت عليها فلثمت فمها ورفعت عيني، فإذا أبوها واقف في مدخل الباب، فتنحنحت وجهها وقلت: «لقد كان بيننا رهان.. هي تقول إنك نسيتني، وأنا أقول إنك لم تنس.. فهل نسيت؟

فشغله الأمر الجديد بما سبقه، وأنساه ما رأه، وبدا عليه أنه لا يعرف أو على الأصح لا يذكر، هل نسيتني أو لم ينسني. وشعرت الفتاة أن الجو صفا وأن الأزمة انفرجت، فنهضت إليه وعاونته وقالت: «بالطبع نسيت.. أتعرف بالحق».

فعادت ذاكرته تحاوره، وسألتها: «الحق؟.. أى حق؟» قالت: «إنك نسيت». قال: «نسيت.. نسيت مادا؟» فقلت لنفسى: إنك رأيتني أقبل فتاتك يا مسكين.

ولقيت الفتاة بعد ذلك مرة، فقالت لي: «هل تعرف أنه يخيل إليه أنه رأني أقبل رجلا أو أن رجلا يقبلنى، ولكن هذا يطوف برأسه كالحلم.. بل هو فيما يعتقد حلم».

فسألتها: قلت: «ماذا قلت له؟» قالت: «قبلته فقط وماذا تريد أن تقول له؟» «وأنا..

أليس لي شيء؟ أزعميني كأبيك أو عمك وقبلينى.. أم يجب أن أرسل لحيتى أولا؟ فصاحت بي: «احذر».

قلت: «أذن هاتيها.. حلوة طويلة».

الفصل العاشر

فتاة الحارة

كنا غلامين صغيرين وجارين صديقين، وكنت أنا أسن منه قليلاً. ولكن الفرق كان فرق شهور لا تُقدّم ولا تُؤخر، لا فرق سنوات تباعد بين الناس. وكان الوقت صيفاً والمدارس مغلقة، فلا عمل أكثر الوقت إلا اللعب في الشارع. وكان يفصل بيتي بيت صغير لأرملة وبنتها، وإداهما في مثل سننا والأخرى أكبر بسنوات وأضخم جسماً، وكانت أسميهما فيما بيني وبين صديقي «السقاء» لأن ثدييها كانا – فيما يبدو لي – كالقربتين. ولم أكن أرتاح إليها، ولكن اختها الصغيرة كانت أثيرية عندي وحبيبة إلى... فكنت لهذا أصانعها، ولكن صدرى كان يضيق بها أحياناً فأغضبها وأمرى إلى الله. وكانت إذا زجرني أهلى عن اللعب في الشارع، وملوا ترقيع الثياب التي ألبسها في الصباح نظيفة سليمة فلا يجيء العصر إلا وهي ممزقة وعليها طوائف شتى من الأحوال والأقدار.. أقول كنت إذا نُهيت عن الشارع، أصعد إلى السطح وأتدلى منه إلى سطح الفتاة وأصفر لجاري فيوافيها، وتنحدر جميعاً إلى غرفة من غرف البيت أو إلى فنائه – وكان رحيباً – فنلعب ما حلا لنا اللعب حتى إذا أسمى الليل تفرقنا إلى بيوتنا. واتفق يوماً أن كانت الفتاة معى في ساحة الدار، وكانت قد تخلفت بعد ذهاب صديقى وصعود الأخت الضخمة – أو «السقاء» كما كنت أسميهما – وكان باب البيت موارباً، فطوقتها – أعني البنت الصغيرة لا السقاء – بذراعى وقبلتها، وكانت فيما أحس تلين لى في العناق، ولكنها عبست فجأة وتفلتت مني ودفعت ذراعى عنها بعنف، وذهبت ت العدو إلى السلم.. فتعلقت بأذياها، ولكنها شدت الثوب أو على الأصح ضربته بيدها، فطار من يدى وصعدت بسرعة، وترككتنى واقفاً أنظر وأنتعجب.

وفي صباح اليوم التالي، قالت لي أمي فجأة ونحن على الطعام: «هل أنت بنت؟» فصحت مستغرباً منكراً: «بنت؟» فقالت: «نعم، لماذا تلاعب البنات ولا تلاعب الأولاد من أمثالك؟»؟

فأطربت استحياء وقد أدركت أنها تأخذ على شيئاً وتسهجن مصاحبتى لهذه الفتاة، ولم يخطر على بالى أن في الأمر أكثر من هذا. وحان الظهر وجاء معه رجل تركي الأصل عتيق من أصدقاء أخي الأكبر – وكان يلازمه من الظهر إلى نصف الليل – وكان شعره أبيض وجهه مغضنا، كما تبدو المدينة للمشرف عليها من قمة جبل شامخ، فصاح بي وأنا خارج: «تعال يا سيدى ... تعال». فوقفت مستغرباً لهجته، وقلت: «نعم». فقال: «جارتك هذه، يظهر أنها تعجبك». فغضبت وتآلت ولكنني تجلدت، فقد كان إذا اعتبرنا السن يعد جدأً أعلى لي، وقلت: «نعم».

فضحك وتغلب وقتل شاربيه الكثيفين، ثم قال: «لقد رأيتكم البارحة تحضنها». فصحت به: «إيه؟» فأشار إلى بيده المتجعدة المعروقة: «لا تغضب.. كلنا كنا صغاري.. ولكن يا ابني...».

فلم أدعه يتمها وانصرفت عنه، وأنا أغلى من الغيط والنقطة على هذا الطفيلي الواقع الذي لا شك أنه روى لأخي ما رأى مني، فلم يسع أخي إلا أن ينبه أمي.. فقد كان غير شقيق، وكان يؤثر أن يدع أمر تربيتي لأمي.

وخرجت إلى الشارع أنفخ ولا أكلم أحداً حتى ولا صديقى الأثير، وكان يرى ما عراني فيلح على أن أفضى إليه بالأمر فلا أحد لسانى قادرًا على الدوران. وانقطعت عن الفتاة أيامًا كان صديقى في خلالها حائرًا بيني وبين صاحبته، يعز عليه ألا يكون إلى جانبي وهو يرانى مهموماً مكروباً لا أتسلى ولا أقول بشحوى وألمى، ويكون معنى فيمل صمتى الذى لا أخرج عنه، وتصبو نفسه إلى مجالسة السقاء وأخيراً نفذ صبره، فقال لي يوماً: «اسمع.. تعال معى إلى فوق».

وكان يعني «بفوق» منزل الجارة، فنظرت إليه مستغرباً كأنما كان عليه أن يعرف كل ما كتمت عنه فقال: «تعال.. قم.. قم».

فانحالت العقدة وانطلق لسانى، وقلت له: «ماذا يعجبك في هذه الفتاة؟»؟ فتلعثم وأخذ يتنهنج، ولم يزد على أن سأله: «إيه؟»؟ قلت: «أو ماذا يعجبها فيك؟»؟

فرمانى بنظرة عتب ثم ابتسم ولم يقل شيئاً، وخيل إلى أنه لو كان له شاربان لفتهما، ثم قال ببساطة: «الحقيقة أنى أحبها و و و هي أيضاً تحبني». فواثبت إلى قدمى من فرط الدهشة، وتناولت كتفيه فهززتهما وصحت: «ماذا تقول؟.. أعد هذا». قال: «ماذا جرى لك؟ ألم تسمع؟ أحبها وتحبني.. شيء بسيط جداً». ونحو يدى عن كتفيه.

واثبت إلى نفسي، فأطرق قليلاً ثم سأله: «كيف حدث هذا؟» فقال: «لا أدرى كيف حدث؟ ولكنى أول من أمس سلمت عليها وجلست بجانبها ثم ملت عليها فقبلتها». فسألته وأنا في دهشة: «قبلتها؟.. هل تعنى أنك قبلتها؟»

فضحك وقال: «بالطبع أعنى أنى قبلتها.. ماذا تظننى أعنى غير ذلك؟» فسألته: «ولم يسئها ذلك؟ لم تغضب ولم تذهب عنك ساخطة؟» فقال مستغرباً: «تعجب؟ لماذا تغضب؟ أما أنا لغريب». فقلت وأنا مطرق: «غريب؟!» فقال: «غريب؟ ما هو الغريب؟» قلت: «أعنى أنى أعرف واحداً قبل فتاة فسخطت عليه وولت منه هاربة». فقال ببساطة: «لابد أن يكون له وجه قد..» وضحك.

وتركته وعدت إلى البيت، فكان أول ما صنعت أن نظرت في المرأة وتأملت وجهي كما يبدو في صقالها، ثم درت حول نفسي وعيينى على جانبي وجهى ثم تنهدت وأقصرت.

وكان للفتاة — فتاتى أنا لا السقاء — قطة صغيرة عزيزة عليها، فاتفق أن مر كلب ضال، وكانت هي — أعنى القطة لا الفتاة — واقفة على العتبة، فدنا منها الكلب وهى غافلة، ولعلها كانت مغفية، فأحسست أنفاسه وهو يشمها، ففتحت عينيها وهى تتتابع وانتقضت مذعورة.. وثبتت ثبة، قطعت بها عرض الشارع، ولم يكف هذا لإطمئنانها، فدخلت من باب أل福特ه مفتوحاً، وكان في ساحة البيت شجرة «جميز» فانطلقت تتسلقها، ولم تزل تصعد فيها حتى صارت على أعلى فرع فيها. وكانت الفتاة قد بصرت بالقطة وهى تudo مذعورة، وتدخل البيت المقابل لبيتها.. فانحدرت مسرعة ودخلت وراءها ونظرت فلم تجد شيئاً، فارتدت إلى الباب وقد أغزورقت عيناتها بالدموع. وأقبل صديقى في هذه اللحظة فسألها عما بها، فقالت له إن الكلب أفزع القطة فهربت لا تدرى إلى أين وهى تخشى أن يأخذها الجيران.

فركل صديقى الكلب — أعنى أن صديقى ركل الكلب، والمعنى واضح في الحقيقة ولكنى أوثر هذا الإيضاح اتقاء لكل غلط — ودخل مع الفتاة البيت ووقفاً وأرهفا

آذانهما، فسمعا مواء خافتًا فتلتتا، ثم عرفا أن القطة على الشجرة فجعلها ينظران من هنا ومن هنا ويميلان رأسيهما إلى اليمين والشمال حتى رأياها، وجعلت الفتاة تدعها بأصوات مختلفة أن تنزل والقطة تأبى أن تطمئن وتخشى إغراء الأصوات المهيبة بها أن تنزل، فتصعد حتى بلغت القمة فدعت الفتاة صديقى أن يتسلق الشجرة ليجيئها بالقطة، فهز رأسه وقال لها: «حرام عليك.. هل تريدين أن أقع فأموت؟»؟ فتوسلت إليه فلم يلن، وقال إن القطة لا تلبث متى هدأ روعها أن تنحدر من تلقاء نفسها. وكان هذا صحيحاً فما يمكن أن تظل القطة على الشجرة طول عمرها، ولكن قلب الفتاة أبى أن يطمئن فخرجت باكية ورأيتها أنا فانطلقت أعدو إليها، وقد أحست أن قلبي يتفتر، وسألتها ماذا يبكيها.. فقصت على الحكاية، وقالت إن صاحبى لا يريد أن يتسلق الشجرة خوفاً على عمره، فقرضت أسنانى وقلت: «أنا أفعل» ففرحت وأبرقت أسارير وجهها، وقالت: «صحيح؟ قلت: «بالطبع صحيح.. وهل تظنين أنى مثله أخاف على عمرى.. ومم أخاف؟»؟

وخلعت حذائى ورميت الطربوش وشرعت تسلق الشجرة المخوفة حتى صرت بين أغصانها الغلاظ المشابكة، وذهبت أزحف على الغصون السميكة التي يحمل الواحد منها جملاً لا غلاماً خفيفاً مثل حتى بعثت عن الأرض جداً، وحتى أنها كانت تكلمنى فلا أسمع وأصبح بها أن ترفع صوتها وأحتاج أن أنحنى وأفرق الأوراق لأرى أين هي.. ولم أزل أصعد حتى دنوت من القطة، ولكنها كانت مع ذلك لا تزال بعيدة، وشاء الحظ أن تخاف القطة فلقت حول الشجرة وأصبحت على فرع في الناحية الأخرى، وكانت الفروع هناك أمتن وأسمك. فدررت كما دارت ومددت يدى فقبضت عليها ودسستها في جيبي، وكان الهبوط أخطر من الصعود وأشق.. ولكن الله سلم.

وتناولت القطة منى بعد أن أخرجتها من جيبي، وكدت أختنقها وأنا أحاول إخراجها — فقد كان لابد أن أقبض على عنقها لأنقى أسنانها وأظافرها — وأهوت عليها تقبلها وتضمها إلى صدرها وتمسح لها شعرها، كأنها طفل رضيع لا قطة لعينة كانت منذ دقيقة على قمة جميلة ضخمة تحاورنى وتعرض عنقى للدق وأنا مازلت في مقتبل العمر. وكانت أنا أنظر إليها راضياً قرير العين فرفعت عينها إلى، والقطة مضمومة إلى صدرها، وقالت إنها مدينة لى بالشكر ففركت كفى مسروراً ومرتكباً، فما كنت أنتظر شكرًا ولا شبهه وإذا بها تصرخ فذعرت، فقالت: «يداك» فنظرت فيهما فألفيتهم مخدوشتين فأخفيتهم وراء ظهرى، وقلت إن هذا من لحاء الشجرة وسيزول

فتاة الحارة

ولا شك، فقالت: «لا.. تعال» فقلت: «إلى أين؟»؟ قالت: «معى.. أغسلهما لك في البيت.. مسكين..».

فنظرت إليهما مرة أخرى، وقلت: «فكرة...».
ودخلنا البيت معا.. ونسينا صديقى في بيت الجار.. تحت الشجرة.
ووصلت القطة المستنقذة ما كان قد انقطع.

الفصل الحادي عشر

في رأس السنة

دھش الثلاثة ووقفوا حيث هم — آذانهم مرهفة، وأحداقهم ثابتة، وأنفاسهم معلقة. وكانت الليلة ليلة العام الجديد — أو رأسه — وقد تهيأ حامد للخروج، ولبس ثياب السهرة وأدار الراديو وراح يتمشى في الغرفة، ريثما تجئ جارته فتنقر له على النافذة المفتوحة.. فيمضي بها إلى العشاء والرقص والمرح. وكانت الإذاعة في تلك اللحظة رواية متخيّرة، ولكن حامدا لم يكن باله إليها وإنما أراد أن يغرق ضجات الطريق المتقطعة في ضجة أخرى أكبر لأنها أدنى — لا تقطع ولا تفتر فيألفها ويتسنى له أن يفكّر، بعد أن تسكن أعصابه إلى وقوعها المتصل، في أمره مع جارته أو فيما ينبع أن يصنع ليحمل أباه العتيق الطراز على الرضى بما تقتضيه حياة العصر الجديد. ولم تكن به حاجة إلى أبيه، ولكنه لم يكن يريد أن يفسد بينهما الحال أو أن يضيف إلى عباء السنين التي يحملها عباء الشعور بخيبة الأمل — إذا وسعه ألا يفعل. وكان أبوه في تلك اللحظة قد دخل بالفاتح الذي أعطاه إياه حامد ليروح ويجيء كما يشاء. ولم يشعر به حامد لأن خواطره كانت تستغرقه ولأن الراديو كان أعلى من أن يسمح بالالتفات إلى باب يفتح أو يغلق، ثم لأن الرجل لم يك يرد الباب حتى وقف مذهولاً، فقد سمع ضحكات نساء ولغط رجال، وكان ريفيا ساذجا فيه ورع وتقوى يعرف الراديو ويصفى بخشوع إلى ما يذاع من كتاب الله، وقد يتفق له أن يسمع بعض المقطوعات الموسيقية.. ولكنه لم يشهد في حياته رواية تمثّل، ولم يخرج عن عادته في التبكيّر في النوم إلا في الفلتات القليلة. فإذا كان قد وقف الآن مستغرباً منكراً، فلا شك أنه كان معدوباً. ولم يكن يفهم شيئاً من الأصوات التي تأدي إليه أو يفطن إلى دلالة الكلام. وكان المذيع يصف حركة الروليت بعد أن توضع النقود، وتذهب العجلة تدور وتحتّ الأصوات انتظاراً لوقوف الكرة عند الرقم السعيد.. ولكن الرجل لم يكن يعرف أن هذا مذيع يصف للسامعين

ما لا يرون، بل كان يظنه أحد رفقاء حامد ابنه في سهرة جمع فيها طوائف شتى من الرجال والنساء.. نعم والنساء فما في هذا شك، أليست هذه امرأة تقول: «اسرع يا ميمى.. أسرع.. بين الـ ٧ والـ ٨..».

وهذا صوت رجل يصبح: «لا لا.. هذا من حق لولو.. نعم فقد رأيت ما حدث.. البيك نقل الورق عن موضعه بكفة، وهو لا يدرى».

وها هي الفتاة تعود إلى الكلام مرة أخرى، وتقول: «مرسى يا حبيبي.. ميل مرسي». فيقول الرجل الأول، هو بعينه بالتأكيد فإن الصوت واحد: «الغفو.. لقد رأيت كل شيء، وإذا كنت تسمحين بأن أقدم إليك نصيحة رجل مجنون.. فنصيحتي أن تكتفى عن اللعب، فإن مثل هذه الغلطة في العادة تكون إيداناً بانتهاء حظ اللاعب».

لعب ... نصيحة ... حظ ... نساء ورجال ... ما معنى كل هذا يا ترى؟ في هذا وقف الرجل المسكين يفكر. وكان يفكر في شيء آخر هو هل يدخل فيعرف الحقيقة كائنة ما كانت أو يخرج ويدع ابنه لشأنه؟ ولكن كيف يستطيع أن يخرج ويدع ابنه.. وكيف يدخل ومعه نساء غريبات؟

ولم يكن هذا الأب السانج هو الحائز الوحيد في تلك اللحظة، فقد كان هناك رجل آخر من طراز غير طرازه وجد باب المطبخ موارباً.. فتسدل منه ودخل على أطرافه أصابعه وفي مرجوته أن يخفف عن صاحب البيت — وعن نفسه أيضاً — ولم يك يبلغ باب الدهلizia حتى صافح سمعه هذا اللغط الكثير المنبعث من غرفة الاستقبال، ولم يكن كالآخر سانجاً فلم يلبث أن فطن إلى أن هنا أنساناً يقامرون، فсмерته الدهشة والحيرة، فقد كان يظن البيت خالياً فإذا هو عامر بل غاص بالخلق. وكان سبب حيرته أن وجود هؤلاء اللاعبين جميعاً يجعل فرصة الغنم في ليلته هذه أكبر، والورق أخف محملاً وأخفى أمراً، وحامله أقل تعرضاً للاعتقال، ولكن كثرة الموجودين تجعل تعرضه للوقوع في المحذور أشد فماداً يصنع؟ أيأخذ بالأسلم فيعود من حيث جاء، أم يذعن للإغراء فيبقى؟ ولا سيما والأرجح أن القوم يشربون وبعد قليل يسكون.. على أن الأمر خرج من يديه، فقد جاء اللبناني في هذه اللحظة ووقف بباب المطبخ كعادته، ورفع صوته بكلمة واحدة ولكنها طويلة ممطولة «لبن» فربيع الرجل ووتب ودار حول نفسه، فقال اللبناني: «البن.. عايزين لبن الليلة؟»

فمشى إليه الرجل كالمضروب على أم رأسه، فعاد اللبناني يسألة: «عايزين لبن والا إيه؟.. ما ترد».

فأفاق الرجل وأشار اليه، وقال: «هس.. هس».

فاستغرب اللبناني وقال: «هس إيه.. عايزين لبن.. أنت مين قبله؟

فألهem أن يقول: «أنا الخادم الجديد».

فقال اللبناني: «طيب ما تقول كده من الصبح! عايز كام؟

- واحدة.

فناوله سلطانية ووقف ينتظر وصاحبنا ينظر إلى الدهليز، ثم قال اللبناني: «ماتجيب

امايل خليني أروح لحالى».

قال المسكين: «أجيبي.. إيه؟

- حق السلطانية.

فألهem مرة أخرى أن يقول: «الصبح.. عندنا ضيوف.. ما أقدرش أنا دى سيدى

دلوت».

فمشى اللبناني ومسح الرجل عرقه ووقف يستعيد انتظام أنفاسه، وقد دار برأسه أن خير ما يصنع هو أن يخرج وراء اللبناني وأمره الله في هذه الليلة المنحوسة، ولكن القدر أبى إلا أن يعد له مفاجأة أخرى أدهى وأمرّ.

ذلك أن الفتاة كانت قد وصلت ونقرت على حافة النافذة، فخف إليها حامد وانثنى على النافذة يقبلها، ثم اعتدل وهم بأن يقول لها إنه سيخرج لها حالاً وإذا بها تستوقفه وتسأله: «من عندك؟»؟ وتشير إلى الدهليز، فقد رأت بابه يختفي فيه شبح، فعجب حامد لسؤالها ونفى لها أن أحداً عنده، ثم نظر إلى حيث كانت تتنظر محدقة فخيل إليه أنه يسمع أصواتاً، فقال: «انتظري» وخرج.. ولكنها لم تنتظر، فقد كانت فتاة عملية، وكانت تحب حامداً وتقرأ الروايات البوليسية، فجمح بها خيالها وجسم لها الأمر، وأوهماها أن خطراً عظيماً قد أحدق بفتاتها.. فذهبت تعود إلى أقرب شرطى وجرته من ذراعه جراً، فقد كانت خطوطه بطيئة وهي تريد أن تطير.

وفي أثناء ذلك كان حامد قد خرج، فاللهى أباها واقفاً وراء باب الشقة، فقال حين رآه: «يا شيخ ظنناك لصا».

فسأله أبوه: «من عندك؟»؟ فخطر لحامد أن هذا هو الليلة سؤال الناس كلهم، فضحك وقال: «لا أحد.. لماذا لا تدخل؟ لماذا تقف هكذا؟؟

وتذكر أن الفتاة واقفة عند النافذة، ولم يدر كيف يفسر لأبيه وجودها. نعم، يستطيع أن يقول إنها جارتة - وهذا صحيح - وأنها مرت به فوقاً يتبدلان التحية،

ولكن أباه رجل محافظ ثم إنه يريد أن يعرف أباها بها أحسن تعريف. على أن تفكيره في هذا لم يطل، فقد سمع حركة في المطبخ فمشى إليه مستغرباً وضغط زر الكهرباء.. فإذا صاحبنا الذي تركناه هناك حائراً بين البقاء والهرب يمد يده إلى سلطانية اللبن، وقد خطر له أن خير ما يصنع هو أن يأكلها قبل الخروج، فلا يكون قد خرج من المولد بلا حمص كما يقول المثل.

وبقيت يد الرجل ممتدة لا هي تصل إلى السلطانية ولا هي تنثنى إلى أصحابها، فقال حامد: «ماذا تصنع هنا؟ فتلعثم قليلاً، ثم قال: «جوعان!»

قال حامد: «أهو ذاك؟ ومن أين دخلت؟»

قال: «رأيت اللبان داخلاً، فلما خرج.. وقف أنا نادى فلم يرد أحد فدخلت».

فمال حامد إلى تصديقه وكان مستعجلاً، فقد ترك الفتاة عند النافذة فقال: «طيب كل واخرج.. خدها كُلُّها على السلم».

ودفعه وأغلق الباب وراءه وهم بأن يعود، فسمع وقع أرجل.. ولكنه لم يعبأ بذلك، وكر راجعاً إلى الغرفة، فإذا أبوه واقف ينظر إلى الراديو ويضحك فلم يفهم ومضى إلى النافذة وأطل، فلم ير أحداً، فالتفت إلى أبيه يريد أن يسألها، ثم آثر العدول. وسمع دقا على باب المطبخ وصوتاً ناعماً يناديها، فذهب يعود وفتح الباب وإذا به يرى شرطياً ضخماً مفتول الشاربين وفتاته، والرجل بينهما وفي يده السلطانية فارغة، فارتدى حامد خطوات وقال: «ما هذا؟

قالت صفيه: «لقد صح ظني.. الحمد لله...».

قال حامد ببلادة: «تفضلو..» وأفسح لهم الطريق ثم أردف: «ولكن لماذا الشرطي؟

قالت صفيه وهي تدخل: «لماذا؟ أو تسأل؟ ألا تعلم لماذا؟ للص يا روحى» فكاد يضع يده على فمه، ولكن أباها كان قد خرج فلم تبق أى فائدة.

وقال حامد: «بابا.. هذه صفيه.. جارتانا.. بنت أحمد بك.. لا ليس هذا لصا.. أنا أعطيته السلطانية ليأكلها...».

قال الشرطي: «إذا كان الأمر كذلك فلا داعي لوجودى. سعيدة».

وخرج وهو ينظر إلى صفيه نظرة محقق. وقالت صفيه: «شرفت يا عمي...». فتمتم الرجل وهو مطرق، وقال حامد: «أ.. نحن.. أعني صفيه وأنا.. اء.. خطيبان.. اتفقنا على الزواج.. بعد موافقتك طبعاً..».

فدت منه صفية ومالت على كتفه وهمست في أذنه: «قل إنك موافق...».

فقال الرجل: «أنا متوضئ ... ابعدي قليلاً...».

فضحكت، وقالت: «إذا لم توافق فإني أنقض لك الوضوء...».

ففزع الرجل ونهض قائماً، وقال: «للالا أحذر.. الدنيا برد وأنا راجل كبير ضعيف، وأريد أن أصلى العشاء».

فقالت: «قل أولاً إنك موافق.. وإلا.. هه..».

فلوح الرجل بذراعه، وقال: «أنا مالي ... مفلوقين في بعض ... فين السجادة يا حامد»؟

الفصل الثاني عشر

الذى يضحك أخيراً يضحك كثيراً

لما جاءنى رسول أختى برقة منها يدعونا فيها — أمى وأنا — إلى قضاء العيد معها، لأن زوجها سافر إلى الإسكندرية.. أدركت أن في الأمر شيئاً، وأن خلافاً لابد أن يكون قد شجر بينهما، ولكن دقة إحساسها بالواجب حملتها على البقاء في بيته بدلًا من أن تجيء هى إلينا.

ولم تفت أمى دلالة هذه الدعوة، فقد سألتني: «أظنهن أن شيئاً حدث؟»؟ فقلت: «لابد» فقالت: «أترى أن نسألها؟» فهزّت رأسى، فليس أكفل بفساد الأمر بين زوجين — فيرأىي — من الدخول بينهما.

وكان وجه أختى وحده كافياً للارتفاع بالظن إلى مرتبة اليقين. نعم، كانت تبتسم ولكن ابتسامتها كان متتكلفاً، وكلامها أكثر مما ألفنا منها، وحركاتها أسرع، وكان لونها ممتقاً حتى لقد احتاجت إلى الأحمر لخدتها وشفتيها. وكان الجو بارداً، فاحتاجنا إلى ما نُدفع به.. فجاءتنا بموقد صار الفحم فيه جمرا لأنها تكره مدفأة الكهرباء أو البترول لشدة تجفيف الكهرباء للجو، ولأن البترول له رائحة لا تطيقها.

وسألتها وأنا أتبسم: «وأين اللعين زوجك؟»؟

وكان لابد أن أسأّلها عنه، وإلا كان اجتناب ذكره واشيا بالفطنة إلى ما عسى أن يكون قد وقع بينهما. وما دامت هي لم تقل شيئاً فقد يربكها أن تعلم أننا نعلم. فقالت ببساطة: «أوه.. أظنه ملنا.. سافر ليبحث مع شريكه أمر هذه الشركة الجديدة التي يريد أن يؤلفها.. إنك تعرفه.. لا يعترف بعيد، ولا يطيق أن يقعد بلا عمل».

فسرنى أنها تكذب لتستر حماقتها.. و كنت أعرف أن هذه كذبة لأنه أخبرنى بما تم فالامر مفروغ منه ولا حاجة به إلى سفر جديد، ولكنها لم تكن تدري أنى أعرف هذا وإلا اللجاج إلى كذبة أخرى.

فذرنا جميعاً فقد كان من الواضح أن الحادثة أكبر مما زعم.. ولم تستطع أختى أن تضبط نفسها، فبكت وهمت أمى أن تزجرها عن البكاء، فقلت لها: «دعينها فما خلق الدمع للناس عبثاً». فقامت ترتب لها أشياءها في الحقيبة، وتضع معها ما قد يحتاج إليه زوجها مخافة أن تكون حقيقته قد فقدت في الحادثة، أو تركت مع السيارة المطممة.

وقلت لأمي: «إذهبى معها، وسائلحق بكمًا غدا.. فإنى مضطر إلى البقاء الليلة، وأبرقوا إلى فى الصباح بعد أن تروه ليطمئن قلبي».

وودعتهما في المحطة وعدت إلى البيت - بيت أختي - حزيناً كاسف البال موجع القلب، وجلست في البيت أفكر في هذا الحظ السيء وأسخط على خليل، وأقول لنفسي هل كان لابد أن يصنع هذا الأحمق ما صنع، وأن يعلن إلى زوجته الجفوة ليلة العيد، ويروح يكسر عظامه أيضاً ويرج زوجته هذه الر杰ة الشنيعة؟ ولكن له لقى فوق جزائه. مسكين. ومن يدرى ماذا جرى له؟ ولعله الآن مشرف على الهملاك، وإنها لقصوة أن ألومه. ثم أنه كان مثال الزوج الصالح، ولم تكن سيرته معها قط إلا سيرة المحب الذي لا يعنيه من الدنيا سوى زوجته، فماذا يا ترى جرى حتى كانت هذه الجفوة المشئومة؟ وإنني لجالس أدخن سيجارة في إثر أخرى، وبى ما يعلم الله من الحزن.. وإذا بخليل داخل كالقنبلة! فانتفضت واقفاً وحدقت في وجهه مذهولاً وفمي مفتوح كالألبة، فلما رأني كذلك وقف هو أيضاً، وسألني أول ما سأله: «أين فريدة؟».

فأحسست أنى سأسقط على الأرض، فانحاطت على أقرب كرسى ورفعت يدى إلى رأسى، فأقبل على يهزمى بعنف ويقول بصوت عال جدا: «أين فريدة؟ قل.. انطق، ماذا جرى»؟

فحاولت أن أتكلّم، ولكن لسانى وقف في حلقي، فأشرت إلى البرقية المشوّمة، فتناولها مستغرباً ولم يك يقرأها حتى صرخ: «إيه؟»

الذى يضحك أخيراً يضحك كثيراً

فوجدت لسانى، وقلت: «ماذا تظن؟ من أرسل هذه البرقية؟» قال: «لا أدري.. ماذا نصنع الآن؟.. فكر.. فكر.. فقد ضاع عقلى.. فريدة.. من يدرى في أيدي مَنْ من الأشجار ستقع الآن؟»

فقلت: «وأمى أيضاً معها.. رهينتان لا واحدة يا صاحبى».

قال: «رهينتان؟ هل تعنى أنك تعتقد؟»

قلت: «بالطبع.. أى معنى لهذه البرقية غير ذلك؟ إنها شَرٌ.. وليس المهم الآن حل اللغز بل السفر وراءهما لإنقاذهما.. لمنعهما من الوقوع في أيدي هؤلاء الأشجار كائنين من كانوا».

قال: «صدمت.. قم بنا» قلت: «سيارتكم لا تصلح لهذا.. ألا تستطيع أن تجد لنا سيارة قوية.. تستعيرها من أى صديق؟»

وفي هذه اللحظة أقبل أخي فتشهدت واستبشرت، فقد كانت له سيارة جديدة من طراز هدسون تستطيع أن تطير بنا، فدفعته إلى الباب وسبقته إلى السلالم وأنا أنا ديه وأدعوه أن يسرع ورائي.

وكان أخي يكره السرعة فتوليت أنا القيادة، وجلس هو وكلبه معه وراءنا، وجلس خليل معى وكان لابد من التمهل حتى نخرج من المدينة وإلا عطلنا الشرطة، وكنت كالجالس على الجمر، ولكن ما حيلتى؟ واجترنا شبراً بعد أن ضاع ربع ساعة ثمين، فسألت أخي: «هل الأنوار قوية؟» ولم تكن بي حاجة إلى السؤال فإني أنا السائق وأمامي مفتاح النور وفي وسعي أن أجرب، ولكن السؤال جاء دليلاً على مبلغ اضطرابي. ودليل آخر على هذا الاضطراب هو أننا لم نخبر أخي ما الحكاية، فراح يكلم كلبه ويقول: «روكسي إنه يسأل عن الأنوار هل هي قوية؟ كأنه لا يعلم، لا بأس. هل تظن أن من حقه أن ينتظر جواباً؟ نعم، الجواب تحصيل حاصل.. بالطبع.. الحق معك.. ثم إنه أرسل النور أمامه وهو يضيء إلى مسافة أميال.. أليس كذلك؟ ولكن إلى أين يمضي بنا يا روکسي؟ نعم؟ أتقول إن هذه هي الطريقة الأمريكية في الاستيلاء على السيارات واغتصابها من أصحابها الشرعيين؟ إنها كذلك على التحقيق.. وإنى أراك مصيبة دائماً في ملاحظاتك يا روکسي أوه.. تسعون؟ روکسي.. إنه يخطف بنا الأرض فهل تظن أنهما ارتكبا جنайه؟»؟

وهكذا وهكذا..

ولم أكن أستطيع أن أقول له شيئاً لإِنْ عينى على الطريق. وكان خليل يساعدنى فيننظر إلى عدد السرعة ويخبرنى بالرقم الذى نرتقى إليه وينظر في الساعة كذلك،

فيطمنئني أو يزعجني، وأخي ماض في هذره حتى بلغنا بنها. ولم أدخلها بل آثرت أن أخذ طريق سيارات النقل لأنه أقصر وإن كان غير ممهد — اجتناباً للبطء الذي نضطر إليه في شوارع المدينة. وبعد أن اجتازنا الكوبرى الجديد، ثم جسر السكة الحديدية — أو المزلقان كما يسمونه — أطلقت لسيارة العنان فجعل خليل ينظر ويقول: «مائة.. مائة وخمسة. عشر. وعشرون.. خمس وعشرون.. امض امض. لا شيء.. هذه دجاجة..». فقال أخي: «أظنها ذهبت إلى جنتها — جنة الدجاج — قبل الأوان.. أتراء سباقاً يا روكي؟»

وبلغت السرعة مائة وثلاثين كيلو، فلولا أن السيارة كبيرة ومتينة وثابتة لانقلبت بنا وقتلتنا.. ولكن أخي خبير بالسيارات والذى لا يعرفه عنها لا يستحق أن يعرفه أحد. والحق أنها كانت سيارة أصيلة، بل هي السيارة وكفى. لكن بالي لم يكن في ذلك الوقت إلى شيء من هذا، بل إلى ما بقى من الوقت حتى يصل القطار إلى طنطا أو دمنهور وإلى مبلغ الأمل في إدراكه قبل أن يبلغ سيدي جابر.

وتأند إلى صوت أخي يقول: «هل تعلم يا روكي أن إسماعيل مهملاً — يعنيني — أموافق أنت؟ هذا ما كنت أنتظر.. ولكنه ينقصك أن تعلم لماذا.. أ تريد أن أسر إليك يا روكي بالسبب؟ اسمع إذن ولكن لا تخبره.. لقد أردت أن أستغير حقيقته الصغيرة. أقول لك الحق يا روكي بيني وبينك يا روكي.. استعرتها فعلاً.. ولكن وجدت أنه أهمل أن يضع فيها المفتاح ولهذا جئت إلى بيت الأخ لعل أجده فأخذ المفتاح.. أعرف ما تريد أن تقول فإنك ذكي.. بالطبع لم يكن ينتظر أن يعطيك المفتاح.. ولكن كنت سآخذه على كل حال.. أوه بطريقة من الطرق.. من غير أن يشعر بالطبع...».

وقد همممت مرات أن أصبح به، ولكن كبحت نفسي فليس هذا وقت الاختلاف على الحقائب.. ولكنه غاظنى مع ذلك أنه أخذها وهو يعلم أن فيها أشيائى، فقد كنت أعدتها لرحلة قصيرة، فلما جاء رسول أختى عدلت وكان ما كان.. ونويت أن أغتنم أول فرصة تسنج لاستردادها. بطريقة من الطرق.. كما يقول.. والبادى أظلم.

ولم أكن أطمع أن أدرك القطار في طنطا، فلم أستغرب أن أعرف أنه تركها قبل وصولنا بعشر دقائق، واحتاجنا إلى البنزين فضيعنا دقائق أخرى، ثم استأنفنا السير بأقصى سرعة لنعوض — سلفاً — التأخير الذى لابد منه في كفر الزيات. واعتبراني ما يشبه الحمى، فلم أعد أبالي كيف أقطع الطريق. وكانت ربما صادفت مركبة أو رجلاً على حمار أو جمل فأمرق ولا أعنى نفسى باليمين والشمال. ولم يكن الطريق بعد كفر

الزيارات على خير ما يمكن أن يكون، ولكن لم أكن أحفل بذلك ولم أترافق بالسيارة. وكان أخي يرى هذه السرعة الجنونية – فقد بلغنا أربعين بعد المائة وأصررنا عليها – فيقول لكتبه: «انظر يا روكي.. إن الخبر ينتقم مني – أعني منا، فإنك شريك في كل شيء – لأنني استعرت حقيقتي.. من أجلها يريد أن يفجعنى في السيارة.. أى والله يا روكي.. فتعال نبك على ما كلفتنا من مال يضيع الآن في هذه السكة المنحوسة.. ثلاثمائة وخمسون جنيهاً خرجت عنها من حر مالي.. وماذا يعنيه هو.. يأخذها بلا استئذان، وينحيني عن مجلسه فيها، يرددني إلى الوراء.. هل هذا يليق يا روكي؟»؟
ولولا أن خليلًا صاح في هذه اللحظة: «القطار، القطار، سنسبيقه يا إسماعيل ... سنسبيقه بالتأكيد ... الحمد لله» لمضي أخي في هرائه. وكنا قد قاربنا دمنهور، فلما بلغنا مدخلها عاد أخي إلى الترثرة، ولكنني لم أسمع شيئاً لأن أذني كانت تطن. ودوننا من المحطة، فوقفت وفتحت الباب، وقلت لخليل: «انزل.. بسرعة» فشرع يفتح الباب من ناحية أخي يقول: «ألم أقل لك يا روكي إنه سباقي.. بين السيارة والقطار؟»؟

ولم أسمع بعد ذلك شيئاً لأنني ذهبت أعدو إلى الرصيف الذي يقف عنده القطار. ولم نك نفعل حتى دخل، فركبت – بلا تذكرة، وماذا يهم؟ – وخليل ورائي. ومشينا خلال المركبات حتى وجدنا أمي وأختي، فانحططت بجانبهم بلا كلام.

ولو كان في رأسى أو رأس خليل عقل لنزلنا بهما من القطار وعدنا بالسيارة على مهل، ولكننا لم نفكر في شيء حتى كان القطار في طريقه إلى سيدى جابر، فأدركتنا أنها تعرضنا لغرامة فادحة لم يكن لها داع. وكان في الوسع اتفاقها لو عنينا أن نخبر المفتش أو أحداً من رجال القطار أننا راكبون من هنا، وسندفع الأجر في القطار.. على أن الثقة بأننا أنجينا الفريستين هونت علينا الخسارة.

وقلت لأختي: «هذا زوجك.. البرقية مزيفة، فما الرأى الآن؟». ولكنها لم تكن في حال تسمح لها بإبداء رأى. وأى رأى هناك يمكن أن يشير به أحد.. لقد ضاعت الفرصة الذهبية في دمنهور، ولو كنا أخبرنا أخي على الأقل لاستطاع أن يبرق إلى بوليس سيدى جابر بالموضوع، ولكن لاستمرار السفر في هذه الحالة معنى، أما الآن ...

وعلى أنا قلنا إن الفرصة لم تضع، وأن من الممكن إذا تركنا الاثنين تسيران أمامنا وحدهما وعيوننا عليهما أن نرى هذا الذى سيتقدم لهمما نائباً عن أخي خليل، وقد نستطيع في ذلك الوقت أن نجعل البوليس يقبض عليه.. على كل حال لم يبق إلا هذا..

ولكنا لم نجد في سيدي جابر غير الحمالين. ووقفنا بعيداً ووقفت الائتنان تنتظران أن يتقدم إليهما أحد — رجل أو امرأة — حتى البو فيه لم يكن فيه أحد، فقلنا لعله ينتظر في الشارع فأومأنا إليهما أن تخرجاً أمامنا، فلم يكن حظنا خارج المحطة أحسن منه داخلها. ولم تبق فائدة من التفرق فركبنا وهمنا بالمضى إلى الفندق. ولكن خاطرا خطراً لي فجأة نزلت وذهبت إلى مكتب التلغراف وبعثت ببرقية منه.

وفي اليوم التالي كنا في مصر..

ولكن هذا لم يكن كل شيء. وهنا يحسن أن أدع أخرى يتكلم: «لعله يعني كما يريد اختي وأمي — أن تعرفا كيف كانت عودتي البارحة بعد أن تركتني هذان المخلوقان. لا فائدة من قولى انتظرت، فإن هذا القول لا يدل على شيء. فقد تركتني فجأة وذهب يudo كأنى جرب.. حتى محرك السيارة لم يعن بأن يوقفه. ستقولون جميعا إنه كان معذوراً فليكن فإن الجدال عبث، وستسمعون بأشياء أخرى أرجو أن يكون عذرها فيها أوضح.. وكان معى روكيسي كما لا أحتاج أن أقول، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يكن هذا الرفيق معى. لعلى كنت أجن أو يحدث لي شيء من هذا القبيل. ما علينا، هل أقول إن الأمر طال على وأنا قاعد في السيارة؟ كلا، وهل أقول إننى كنت ميتاً من الجوع؟ كلا أيضاً. وأختصر حكاية مؤلمة، فأقول إنني نزلت من السيارة وسررت في الاتجاه الذى رأيتهما يقصدان إليه، ولم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء.. فقد كان كلامهما دائراً كله على القطار ووجوب سبقة، وإن كان فيما عدا ذلك لا معنى له عندي. ولم أجدهما في المحطة كما تعلمون، لأنهما شاءاً أن يركبا القطار من غير أن يبعثا لي بكلمة. وقد سمعتهما يقولان أنهما أدوا أجر الركوب مضاعفاً، وهذا حسن وأن كان قليلاً.. ولكنه يبرد بعض الغلة. وقد وصفتهما لكل من في المحطة، فظن واحد أنهما هاربان من سجن، واعتقد ثان أنهما مجنونان خطران. واقتنتعت أنا بأن لا فائدة من البحث، وأن أبي — رحمة الله — أخطأ حين رمانى بهذا المخلوق وزعمه أخا، وأن أمى أخطأ أيضاً في ربطنا بهذا المخلوق الثانى الذى أخفاوا أمره عنى حتى خطف اختى، فصار واجبي الآن بعد أن عرفته أن أخفىه أنا عن الناس. ما علينا.. فلندع هذا التاريخ القديم.. أظنكم ستضحكون حين أقول أنى احتجت أن آكل وأن أطعم روكيسي وقد يسركم أن تعلموا أنى أحب أن أنسى فترة هذا الأكل وأن أمحوها من تاريخ حياتي الحال بالتضحيات فى سبيل من لا يستحقون شيئاً.. ولكنى هكذا دائمًا.. كريم مفضل، وجزائى من الناس بل من يمرحون في أبراد نعمتى الجحود والكفران. ما علينا أيضاً.

وقلت لروكسي: تعال يا صاحبى، فإن هذا بلد لا يستحق أن يتشرف بوجودنا فيه، فلنرجع إلى بيتنا في مصر.. وقد كنت أسلمت السيارة إليه وهي سليمة لا شيء بها، ويشهد شريكه في المؤامرة أنها أنقذتهما، ولكن حين أردت أن أدير محركها أبي أن يتحرك.. ولا أطيل. قضيت نصف ساعة في هذا البرد حتى استطعت أن أقنعها بالحركة والعودة إلى دفء البيت.

وكانت السيارة كأنما ركبها قبل ألف عفريت، ولكنني صبرت وقلت عوضى على الله، وهذا جزاء من يكون له أخ كهذا ونسبيت كهذا.. وأظن أن الفجر بدأ يطلع حينما بلغنا شبراً، فتنهدت وتمهلت في السير وإذا بشرطى يستوقفنى، فوقفت فدار حتى صار إلى جانبي، وقال وهو ينقر على الزجاج: «فضل معى إلى الكركون».

فقلت: «الكركون؟»، قال: «نعم، تفضل انزل».

فقلت «ولكن لماذا؟ مازا صنعت؟ إنى لم أكن مسرعاً بل كنت أسير بسرعة خمسة أمتار في اليوم والليلة».

فقال بلهجة جافية: «انزل ولا تحوجنى أن أجرك بالقوية».

فقلت لنفسى إن المكابرة والجداں عبث، ولا شك أنى سأجد رجلاً يفهم فى مركز البوليس. وذهبت معه، فقال: «اقعد هنا»، فقعدت حيث أشار، وهم بتركى فتعلقت به وقلت: «الآن تسمح من فضلك بأن تخبرنى لماذا جئت بي إلى هنا؟

فنهرنى بعنف، فهو يرى إلى الكرسى وروكسي بين يدى لم أر أحداً مستعجلًا سواى. وأخيراً جاء شرطى آخر، وجلس إلى مكتب وأخرج أوراقاً وبدأ يستعد للكتابة، وسألنى عن اسمى وعنوانى ومولدى وعن السيارة ورقها، ثم سألنى بخبث: «ما زلت معك فيها؟» فابتسمت وقد خيل إلى أنه ظننى من مهربى المخدرات، وقلت ببساطة: «ليس معى سوى روکسى».

فقال: «إيه؟ قلت: «يعنى الكلب.. اسمه روکسى»، فقال متهمكما: «يا حببى يخوى.. كمان عامل لي قمع ومعاك كلب.. تعملوها وتخيلوا والله».

فلم أدر ماذا أقول له.. وأعفانى من الكلام، فسألنى: «هل معك مفتاح السيارة؟» فناولته المفتاح، فنادى شرطياً وطلب منه أن يفتحها أمامى، وأن يجيء بما يجده فيها فلم يجد الا الحقيقة.. أضحكوا.. أضحكوا.. لا بأس.. سيجيء يوم أثار فيه لنفسى.. فلما جاءوه بالحقيقة، ابتسم ابتسامة عريضة جداً وتنهد مرتاحاً، وقال لي: «لا شيء.. هه.. طيب».

فابتسمت أنا أيضاً وقد صح عندي أنه يحسبني من المهربين وأيقنت بقرب الفرج.
وشرع يسألني عن الحقيقة، فقلت له إنها لأخى وذكرت اسم الأخ المحترم، فأدهشنى
بأن سألنى هل أنا أعترف بأن الحقيقة لإسماعيل أفندى زفت وقطران؟ فقلت بالطبع
أنا معترف.. إنه أخي.

فقال: «أخوك..؟ أواثق أنت أنه أخوك؟»؟

فضحكت وقتلت: «بالطبع واثق... ولكن ما هي الحكاية؟»؟

فقال: «أين المفتاح؟»؟

قلت: «معه... لم آخذه منه». وهممـت بأن أقص عليه القصة، ولكنـي رأـيت أنها
مما لا يصدق فأقصـرت، فقال: «هل تستطيعـ أن تثبتـ شخصـيتك؟»؟

فقلـت: «بالطبع.. ماذا تظن؟.. ودفعتـ يـدي فيـ جـيـبي لـأـخـرـجـ لهـ أـورـاقـ السيـارـةـ
ورخصـةـ الـقيـادـةـ وـغـيرـ ذـكـرـ مـاـ عـسـىـ أـنـ يـكـونـ فيـ جـيـبيـ،ـ فـمـاـ رـاعـنـىـ إـلـاـ أـنـ جـيـبـ خـالـ
ليـسـ فـيـ قـصـاصـةـ وـاحـدـةـ!ـ وـأـظـنـ وجـهـيـ فـضـحـنـىـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ مـحاـولـتـىـ أـنـ اـتـمـاسـكـ
وـأـتـجـلـدـ،ـ فـقـدـ سـأـلـنـىـ بـعـدـ ذـكـرـ مـباـشـرـةـ عـنـ السـيـارـةـ وـلـنـ هـىـ؟ـ فـأـيـقـنـتـ أـنـىـ وـقـعـتـ،ـ وـقـلـتـ
لـهـ:ـ «ـأـسـمـعـ..ـ إـنـكـ تـطـيلـ بـلـ دـاعـ..ـ لـبـدـ أـنـ يـكـونـ قـدـ حـدـثـ خـطـأـ،ـ وـمـنـ سـوـءـ الـحـظـ أـنـىـ
نـسـيـتـ الـأـورـاقـ كـلـهـاـ فـيـ الـبـيـتـ،ـ فـإـذـاـ سـمـحـتـ فـأـرـسـلـ مـعـ شـاـوـيـشـاـ أـوـ عـشـرـةـ إـذـاـ شـئـتـ إـلـىـ
الـبـيـتـ لـأـجـيـئـ بـكـلـ مـاـ يـزـيلـ الشـكـ وـيـرـيحـ ضـمـيرـكـ»ـ.

فـلـمـ يـبـالـ بـهـذـاـ الـاقـتـراـحـ الـمـعـقـولـ،ـ وـقـلـتـ:ـ «ـهـلـ أـنـتـ مـصـرـ عـلـىـ دـعـوـاـكـ أـنـكـ أـخـوـ
إـسـمـاعـيـلـ؟ـ»ـ

فـقـلـتـ:ـ «ـالـحـقـيـقـةـ أـنـىـ مـسـتـعـدـ لـلـتـبـرـؤـ مـنـهـ وـلـكـ إـلـىـ أـنـ أـفـعـلـ لـاـ يـسـعـنـىـ أـنـ أـنـكـ أـنـهـ
أـخـىـ»ـ.ـ فـقـلـتـ:ـ «ـإـذـاـ كـنـتـ أـخـادـ،ـ فـلـمـاـ يـبـعـثـ بـبـرـقـيـةـ كـهـذـهـ؟ـ وـنـاـولـنـيـهـ،ـ فـقـرـأـتـ فـيـهـ الـحـكـمـ
عـلـىـ.

ولـلـرـجـلـ العـذـرـ لـأـنـهـ إـذـاـ كـانـ إـسـمـاعـيـلـ هـذـاـ أـخـىـ،ـ فـلـمـاـ يـطـلـبـ مـنـ الـبـولـيـسـ أـنـ يـحـزـ
الـسـيـارـةـ رـقـمـ كـذـاـ،ـ وـفـيـهـ حـقـيـقـةـ صـفـتـهـ كـيـتـ وـكـيـتـ.ـ لـاـ تـعـرـضـ مـنـ فـضـلـكـ..ـ لـقـدـ كـانـتـ
عـبـارـةـ الـبـرـقـيـةـ يـفـهـمـ مـنـهـ أـنـكـ تـرـيـدـ حـزـ السـيـارـةـ أـيـضاـ.ـ لـاـ أـكـتـمـ أـنـىـ لـمـ أـجـدـ جـوابـاـ
لـهـذـاـ السـؤـالـ،ـ وـأـنـىـ اـسـتـحـيـيـتـ أـنـ أـقـولـ إـنـهـ مـزـاحـ بـارـدـ.

وـحـرـتـ مـاـذـاـ أـصـنـعـ،ـ وـلـمـ يـفـتـحـ اللهـ عـلـىـ بـحـيـلـةـ تـخـرـجـنـىـ مـنـ هـذـاـ المـأـزـقـ التـقـيلـ..ـ وـكـانـ
الـنـهـارـ قـدـ طـلـعـ وـلـكـنـاـ مـاـ زـلـنـاـ فـيـ الـبـكـورـ،ـ وـلـاـ يـلـيقـ أـنـ أـزـعـجـ النـاسـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـوقـتـ،ـ
فـعـدـتـ إـلـىـ اـقـتـراـحـيـ أـنـ يـبـعـثـ مـعـيـ مـنـ يـشـاءـ إـلـىـ الـبـيـتـ،ـ فـرـضـهـ.ـ فـسـأـلـتـهـ عـنـ الـمـأـمـورـ مـنـ

هو؟ عسى أن يكون من معارف.. فانتهرنى بغلظة، فتساءلت وسألته عن المعاون أو غيره، فلم يزد على أن قال: «بلاش دوشة»، فناشده أن ينظر إلى ثيابى، وأن يفكر هل هذه ثياب مجرم ولص؟ فقال وهو يضحك: «إن بين اللصوص من هم أشد أناقة منك» فوضعت أصبعى في الشق، وأسلمت أمري إلى الله.

وختم المحضر على هذا ... أى على أنى لص ولا شك وأن البوليس حاذق فطن ولا شك. ولست ألم البوليس، فقد كانت كل القرائن ضدى. وأشهد له أنه كان رفيقا، فقد سمح لي بأنأشترى – أعني أن يبعث من يشتري شيئاً لطعامى وطعمام روکسى. ولا أنكر أنى شببت قهوة أيضاً، وإن كانت أشبه بمغلى الفول السودانى أو بماء الوحل الساخن. ولكن هذا لم يكن ذنب البوليس.

وأخيراً في الساعة الثامنة دخل ضابط علينا، فنظرت إليه ببلادة.. فقد فترت وبيئت ولم أعد أبابلى ما يجرى لي، ولكنى لم أك أرى وجهه حتى انتقضت واقفاً، وصحت به «حمدى.. الحمد لله.. أين الحق؟»

فاستغرب وسألنى عن الحكاية، فقصصتها عليه فضحك ملء شدقى. مدهش أن يضحك الناس من هذه الفصول الباردة! والباقي لا يحتاج إلى كلام ... جئت إلى هنا ونممت ساعة أو اثنتين على هذا الكرسى بثيابى.. ولكننى ينقصك يا حضرة الأخ أن تفسر للبوليس مزاحك، فقد صار الأمر مزاحاً مع البوليس لا معى».

فما استطعنا أن نتكلم ونغالب الضحك، قلت: «هون عليك.. فإنى أعرف ماذا أقول.. ولكنى أرجو أن يكون ما حدث درساً لك».

فقال وفي عينيه نظرة خبيثة: «وأنا أرجو أن يكون ما حدث لكم درساً كذلك».

فقال خليل: «ماذا تعنى؟»

فقال أخي: «أعني أنكم لو لم تكونوا عمياً لعرفتم أن البرقية ليست لكم.. للجار رقم ٢٢٣، وقد تشابه الرقمان على الساعى واتفق أن اسم الجار خليل أيضاً، واتفق أنكم عمى لا تبصرون. ولولا ذلك لقرأتם الرقم باسم الجار الذى أرسلت إليه البرقية.. هذا ما أعني.. فقوموا كفروا عن سيئاتكم يا جهلة».

الفصل الثالث عشر

عقاب اللص

لست أخشع للصوص.. فما معى ولا في بيتي ما أخشع عليه الضياع وأتقى أن أمنى فيه بخسارة. ولو أن لاصا كريما فيه مروءة دخل بيتي – أو حيث أقيم فما هو بيتي – وحمل ما فيه من متاع لحملته شكري، ولبعثت بنسخة منه إلى الصحف.. فإن من اللؤم أن يقابل الإحسان بأقل من الشكر. فما أرى لي متاعا في شيء مما حولي. وسبب آخر يجرؤني على لقاء اللصوص وينهى عن الخوف منهم ويجعلني لا أتهيّهم، وذلك أنى كما تعلم – أو كما لا تعلم – ضامر ضاو، ظاهر الضالة بادى الضعف. وأوجز تعريف بنفسي يحضرنى الآن، وهو أنى امرؤ فارغ الثياب.. وأحسب أن هذا تعريف شامل محيط جامع مانع، فإن لم يكن كذلك فأمهلونى، حتى يلهمنى الله ما هو ألوى. وأرجع إلى اللصوص فأقول إن الذى يجعل لقاءهم خطرا في ساعات العمل هو أنهم يريدون التخلص مما وقعوا فيه اتقاء السجن وما فيه، والمجاجأة في هذه الحالات تذهلهم وتطير صوابهم، فيحدث أن يضيفوا إلى جريمة السرقة جريمة أخرى هي الاعتداء على النفس.. أما إذا كان الذى يفاجئهم رجلا صغير الجسم مأمونا مثلـى، لا خوف من قدرته على منع السارق من الفرار والنجاة.. فإن العدوان لا يخطر لهم على بالـ. وحسبهم أن يشدوا هذا المتطفل بحبـل ويلقوه في زاوية أو ركن، ويمضوا في عملهم كأنما لم يعطلـهم معطلـ. ومن هنا اطمئنانـى، وهو اطمئنانـ لم يزعـع الثقة به إلى الآن مزعـع.

وقد اتفق لي أن كنت مرة في الأقصر وكان الوقت شتاء، والأقصر تطيب في هذا الوقت.. فنزلت بالفندق ومضى يوم أو يومان – فقد نسيت لطول العهد – وإذا بصديق من أغنياء الأقصر يقع علىـ في شرفة الفندق حيث يجلس أكثر النزلاء يشربون الشـاي قبيل المغربـ. وأقول يقع علىـ – وأنا أعنـى ما أقول – فقد كان ظهـرى إليه وهو مقبلـ، ويظهرـ أنـ بالـ لهـ يكنـ إلىـ الأرضـ وهوـ سـائـرـ فـاصـطـدمـتـ رـجـلـهـ بـسـاقـ الكرـسىـ

الذى كنت جالسا عليه فكاد يقع وارتدى فوقى — أعنى الصديق لا الكرسى — ثم شرع يعتذر وشرعت أنا أيضا أهزر له رأسى إذانا بقبول الاعتذار، فاللقت العيون وإذا به يكف عن الاعتذار ويصبح: «أوه.. أهو أنت؟»

كأنما هذا ينفى وجوب الاعتذار ويع悱ه من تكاليفه و يجعلنى غير أهل له، فقلت له: «نعم، أنا أنا يا صاحبى» قال مستغربا: «وماذا جاء بك إلى هنا؟»

قلت: «قذفتني موجة الحياة على هذا الساحل الذى لا أراه أرفق بي من الليم». قال:

«آسف يا صاحبى..» فقلت مقاطعا: «لأن الحياة رمت بي على شاطئكم؟»

قال وهو يجلس: «لا لا لا.. إنما عنيت أنى آسف لأنى وقعت عليك».

قلت: «هذا أدهى.. أؤكد لك أنى لم أتعمد أن أكون فى طريقك».

فصاح بي: «يا أخي، لا.. ليس هذا ما أعنى.. ألا يمكن أن أقول شيئا لا تستطيع أن تؤوله على هذا النحو؟ إنما أعنى».

فترفقت وقلت: «أعرف ما تعنى.. وأعرف أيضا أنك حمار.. والآن هات حدثنا آخر».

وعرف أنى مقيم بالفندق، فدعانى إلى التزول ببيته فأبىت.. وشكرته فألح، فقلت له إنى هنا حر أفعل ما بدا لي ولا أتوخى إلا راحتى. وحربيتى أعز على من أن أقبل ضيافتك الكريمة، فأبى فأصررت، ثم مضى وفي ظنى أن الأمر انتهى.. وإذا بي أعلم حين همممت بالعود إلى غرفتى لحاجة لي، أن الصديق حمل حقيبتي ومضى بها إلى بيته وترك لي مركبته، وأنه لم تبق لي في الفندق غرفة.

وأوجز فاقول: إنى لم يسعنى إلا أن أذهب إلى البيت على فرط استثنائى لذلك، فإذا البيت شيء مهول وإذا هو بيتان في الحقيقة.. واحد للرجال وأخر بعيد عنه النساء، وبينهما بستان واسع وحدائق زهر فيها، وفضاء رحب.. أ匪ت أبناء صديقى يلعبون فيه — أو خيل إلى في أول الأمر أنهم يلعبون — ولكنى لما دنوت منهم رأيت رجلا معروفا لم أرتح إلى وجهه ولم يعجبنى شارباه المفتولان وصلعاته الناصعة، وكان قصيرا مثلـى.. ولكنه أشد منى دمامـة وأضيق عينا. وكان هذا الرجل يصبح بالغلمان وهو واقف لا يتحرك، فيحركون أيديهم أو أرجلهم وينشون ويعتدلون ويستلعون على ظهورهم ويرفعون سيقانهم وأذرعهم، وكان صديقى واقفا يهز رأسه راضيا مرتاحا، فقلت له: «ما هذا الذى أرى؟ ومن هذا الرجل القبيح؟ ومن هؤلاء الصبية؟ هل نويت أن تقيم في بيتك (سيرك)؟»

فقال وهو يضحك: «لا لا.. هؤلاء أبنائي».

فقلت مستغرباً: «أبناؤك؟ ولماذا ترك هذا الرجل القبيح يمرغهم في التراب؟؟

فقال وهو يجرني: «لا تصح هكذا لئلا يسمع.. إنه معلم الرياضة في المدرسة..

يدرب الأولاد على الحركات الرياضية».

فقلت: «أولاً يكفي تدريبي لهم في المدرسة؟ مدهش.. أمن أجل أن الله رزقك مالاً
تروح بعثره في هذا الكلام الفارغ ليقال إنك متدين؟»

قال: «لا، إنك لا تعرف.. إن الحكاية طويلة ولكنني أختصرها لك فأقول: إن أحد
السياح الأميركيين كان هنا في الشتاء الماضي، فاتصلت به بطبيعة الحال – صديقي
تاجر عadiات – ورأى أبنائي فنصح لي – وهو طبيب – أن أعنى بحياة أبنائي
الرياضية، وأن أخذ لهم معلماً. هذه هي الحكاية.. وقد نسيت أن أقول إن أحدهم كان
مريضاً».

قلت: «هذا ما قلت.. تقليل ليس إلا.. ما علينا.. أين الحقيقة؟ فلست أنت أقوى
في مصحة».

ولكنني أقمت في المصحة وإن كنت قد استطعت أن أتقى هذا «التصحيح» الذي
يجري على أبناء مضييفي..

والأخير – إذا كنت مقيماً في بيت لا في فندق – مملة، لأن الحياة كلها في الفنادق، وقد
حزمني صاحبى وألقانى فى بيته. فلم أكن أخرج إلا نهاراً لأزور الآثار، فإذا جاء الليل
ذهبنا إلى شرفة الفندق ومكثنا قليلاً، ثم عدنا إلى البيت لتنعشى حتى ولو كنت غير جائع
وإلا عد نفسه مقبراً في حقى، ولا أدرى لماذا.. ولكن هذا هو الاعتقاد الشائع. وضفت
ذرعاً بهذا الكرم ولم أعد أطيقه، فغافلته مرة وانطلقت أعدو إلى الفندق، ودخلت البار
وشربت حتى ارتويت ثم خرجت إلى الحديقة الرحيبة، وذهبت أتمشى فيها وأطوف
في أرجائها. وكانت الليلة مقمرة والهواء لا رطوبة فيه، فطال تجوابى فلما نظرت في
الساعة إذا هي الحادية عشرة ولم يكن هذا ظنى، فبادرت إلى العودة إلى البيت وقد
سرنى أنى استطعت أن أروح وأجيء وحدى وكما أحب وفي حيث أريد والسلام، وإن
لم يكن هذا – بمجرده – خيراً مما فررت منه.. فما كان ثم أى حرج في أن أشرب أو
أفعل ما أشاء وهو معى، ولكن الوحيدة أشعرتني حرية كنت افتقدتها معه إذ أرآه إلى
جانبى، وكان هو يتلوخى مرضاتى في كل شيء كبر أم صغر. ولكنى لم أكن أرتاح إلى

هذا ولا كان يسرني أن أرى رجلاً يقيـد نفسه بيـ، وكان يخـيل إلى أنه في سريرته كـاره غير راضـ، وأنـه مثلـي لا يـ يريد أنـ يكونـ غير مـرتبط أو مشـدود إلىـ أحدـ. ولمـ يكنـ هذا كذلكـ فيـ الحـقـيقـةـ، فإنـ الرـجـلـ كـريـمـ عـظـيمـ الـأـرـيـحـيـةـ، ولكنـ هـذـاـ هوـ الذـىـ قـامـ فيـ نـفـسـيـ وـكـبـرـ فيـ وـهـمـيـ.

وـعـدـتـ إـلـىـ الـبـيـتـ وـأـنـاـ أـشـعـرـ أـنـ الـحـيـاـةـ تـسـتـحـقـ أـنـ يـحـيـاـهـاـ الـمـرـءـ وـأـنـ الدـنـيـاـ جـمـيـلـةـ، وـشـعـرـتـ بـشـاءـ مـنـ الـظـمـاـنـ عـلـىـ كـثـرـةـ ماـ شـرـبـتـ.. وـكـنـتـ أـعـرـفـ الـطـرـيـقـ إـلـىـ حـيـثـ أـطـفـيـ ظـمـئـيـ فـفـتـحـتـ بـابـاـ وـدـخـلـتـ إـلـىـ حـيـثـ الـشـرـابـ، وـهـوـ مـكـانـ رـحـيـبـ فـيـ خـزانـاتـ شـتـىـ، فـيـهاـ مـاـ لـمـ أـحـصـهـ مـنـ الـزـجاـجـاتـ الـمـخـلـفـةـ الـأـلـوـانـ وـالـحـجـومـ، وـفـيـ الـوـسـطـ مـائـدـةـ مـسـطـيـلـةـ مـغـطـاةـ بـالـخـمـلـ الـأـخـضـرـ وـحـولـهـ الـكـرـاسـيـ الـوـثـيـرـةـ.. فـأـدـرـتـ مـفـاتـاحـ النـورـ، وـإـذـاـ بـىـ أـرـىـ ذـاكـ الرـجـلـ الدـمـيـمـ الـقـصـيـرـ الـذـىـ يـقـيـمـ الـأـلـوـادـ وـيـقـعـدـهـمـ وـيـعـذـبـهـمـ بـالـانـحـنـاءـ وـالـانـثـنـاءـ وـالـقـفـزـ وـالـوـثـبـ وـالـنـطـ إـلـىـ آـخـرـ مـاـ كـرـهـتـ مـنـهـ وـمـنـ مـنـظـرـهـ، فـنـدـتـ عـنـيـ صـيـحةـ اـسـتـغـرـابـ وـإـنـكـارـ، وـمـاـذـاـ يـجـيـءـ بـهـ إـلـىـ هـذـاـ فـيـ الـلـيـلـ – فـيـ مـنـتـصـفـ الـلـيـلـ – وـهـوـ لـاـ يـبـيـتـ مـعـنـاـ بـلـ يـذـهـبـ إـلـىـ بـيـتـهـ؟

وـلـمـ يـخـالـجـنـىـ شـكـ فـيـ أـنـهـ لـصـ شـرـيرـ، عـلـىـ أـنـهـ خـطـرـ لـىـ مـعـ ذـكـ أـنـ بـيـتـ الرـجـالـ أـوـ الضـيـوفـ لـيـسـ فـيـهـ مـاـ يـسـرـقـ غـيرـ الـأـثـاثـ وـهـوـ ضـخـمـ لـاـ يـسـهـلـ حـمـلـهـ أـوـ نـقـلـهـ، وـرـجـحـ عـنـدـيـ أـنـ هـذـاـ الـمـلـمـ الـرـيـاضـيـ لـصـ خـمـرـ وـأـنـهـ جـاءـ مـتـسـلـلـاـ لـيـشـرـبـ كـأسـيـنـ أـوـ ثـلـاثـاـ بـلـاـ ثـمـنـ... وـسـوـاءـ أـكـانـ هـذـاـ أـمـ ذـاكـ هـوـ الـصـوـابـ، فـقـدـ شـعـرـتـ أـنـ مـنـ وـاجـبـيـ أـنـ أـنـغـصـ عـلـيـهـ لـيـلـتـهـ.

وـصـحـتـ بـهـ: «ـمـنـ أـيـنـ دـخـلـتـ أـيـهـاـ الـلـصـ الـجـاحـدـ الـنـاـكـرـ لـلـجـمـيـلـ؟ـ»ـ وـكـنـتـ أـتـكـلمـ بـعـنـفـ وـفـيـ يـدـيـ عـصـاـ ضـخـمـ وـفـيـ عـيـنـىـ لـعـةـ أـظـنـ الـفـضـلـ فـيـهـاـ لـاـ سـقـانـىـ صـاحـبـ «ـالـبـارـ»ـ فـرـأـيـتـ الرـجـلـ يـسـتـخـذـيـ وـيـتـضـاءـلـ وـيـتـرـاجـعـ إـلـىـ النـافـذـةـ، فـأـطـلـقـتـ عـلـيـهـ صـيـحةـ عـالـيـةـ: «ـقـفـ»ـ فـوـقـ كـالـجـنـدـيـ، وـكـانـ الـفـضـلـ فـيـ سـرـعـةـ الـوـقـفـةـ وـاعـتـدـالـهـاـ وـجـمـالـهـ مـنـظـرـهـ لـتـرـبـيـةـ الرـجـلـ الـرـيـاضـيـ أـوـ الـعـسـكـرـيـ لـاـ لـقـوـةـ الـصـيـحةـ، وـلـكـنـهـ أـطـاعـ عـلـىـ كـلـ حـالـ.. فـسـرـرـتـ وـقـلـتـ لـهـ مـرـةـ أـخـرـىـ: «ـقـلـ مـنـ أـيـنـ دـخـلـتـ فـيـ الـلـيـلـ.. فـيـ مـنـتـصـفـ الـلـيـلـ؟ـ»ـ فـقـالـ بـذـلـةـ وـضـرـاعـةـ: «ـمـنـ النـافـذـةـ.. فـقـدـ وـجـدـتـ الـأـبـوـابـ مـوـصـدـةـ، وـالـخـدـمـ نـيـاماـ». قـلـتـ: «ـآـهـ.. وـلـكـنـيـ أـنـاـ لـمـ أـجـدـ الـبـابـ مـوـصـداـ»ـ.

وـأـيـقـنـتـ أـنـهـ كـاذـبـ وـأـنـهـ تـمـدـ أـنـ يـدـخـلـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـرـاهـ أـحـدـ، وـهـمـ فـيـ هـذـهـ اللـحـظـةـ أـنـ يـقـولـ شـيـئـاـ فـأـطـلـقـتـهـ عـلـيـهـ صـيـحةـ أـخـرـىـ مـدـوـيـةـ.. فـيـ أـذـنـيـ أـنـاـ فـمـاـ أـظـنـ أـحـدـاـ سـمـعـهـاـ أـوـ سـمـعـ بـهـاـ خـارـجـ الـحـجـرـةـ: «ـاـخـرـسـ»ـ.

فخرس ووقف ساكنا لا يتحرك، فسرنى مرة أخرى أنه يطيع على هذا النحو، وقلت لنفسي إن للرياضة نفعا على ما يظهر. ولو لم يكن هذا الرجل رياضيا، لكان الأرجح أن يحاور ويجادل ويقارب ويناقش ويوجع لي رأسى، ويسلب الأمر كله ما أجد الآن فيه من المتعة.

وقلت له: «ألسنت الرجل الذى يكلف هؤلاء الأولاد المساكين أن يتلوا ويتعوا وينطوا ويقفزوا؟

قال: «نعم يا سيدى». قلت: «أرنا إذن بعض ما أتقنت يا صاحبي».

قال: «نعم».

قلت: «تلوا.. تعوج.. انحن.. افع كل ما رأيتك تأمرهم أن يفعلوا.. تفضل».

فتردد برهة لا أدرى لماذا أو كيف، ثم كأنما بدا له أن خير ما يصنع هو أن يطيع وأمره لله.. فراح ينثني ويعتدل، وأنا أقف أنظر إليه معجبا مسرورا، وكلما نظر إلى استزدته حتى خيل إلى أن ظهره سيقصم.. فدعوهه أن يقف، وشرعست أفكار في عذاب آخر أنزله به، ففركت جبينى ثم تذكرت فقلت: «آه.. لقد كنت واثقا أنى سأتذكر.. اصنع من جسمك عقدة عقدة الحبل».

فلم يفهم، فقلت له مرة أخرى: «ألا تعرف العقدة؟ تلف الحبل وتصنع منه دائرة وتدخل طرفا منه في هذه الدائرة ثم تشد الطرفين فتعقد العقدة. هكذا أريد منك الآن أن تصنع بنفسك. اصنع من خصرك دائرة وأدخل ساقك فيها.. أو لا أدرى كيف تصنع ذلك؟ المهم أن تصنع ذلك وأن أراه... تفضل».

فرقد الرجل على الأرض، وراح يقوس ظهره كما لم أكن أتوقع أن يستطيع أن يفعل.. وأنا متكم على المائدة، وفي يدي سيجارة أشعلتها ورحت أدخن وأنظر معجبا مغبطا. ورأيته يحاول أن يعقد العقدة التى أمرته بها، فلم يسعنى إلا أن أضحك.. فقد كان منظره يغري بذلك وهو يلتوى على الأرض، ولكنى لحماقتى ضحكت والدخان فى فمى، فكادت روحى تزهىق... وجعلت أسعل سعالا شديدا، فاغتنتم الخائن الماكر هذه الفرصة ووتب إلى رجليه ثم إلى النافذة، ومنها إلى حيث لا أعرف.

وبينما كنت أوصد النافذة.. وأنا آسف على المتعة التى لم تطل، إذا بمضيفى يقول: «يا أخي أنت كنت فىين.. لقد حدثتني نفسى أن أبلغ البوليس والله».

فقصصت عليه القصة وأنا أكاد أقع من الضحك، فقال: «ياشيخ حرام عليك.. هذا رجل مسكنين».

فصحت به: «أما أنت لرجل مدهش.. إذا كنت تعتقد أن تكليفه هذه الحركات البهلوانية تعذيب له فإنها تكون أيضا تعذيبا لأولادك».

قال: «لا، ولكنه كبير السن وأولادى صغار ... ثم إنه لا يكلفهم أن يلتووا أجسامهم ويصنعوا منها عقدة كعقدة الحبل.. كيف خطرت لك هذه الفكرة الخبيثة؟»

قلت: «لم يخطر لي شيء، وإنما كان هذا ما بدا لي أنه يكلف أولادك أن يصنعوه حين رأيتهم».

قال: «قم لتنام، وحسبك هذا طول العمر».

وقد صدق.. فما أزال أضحك إلى الآن كلما تذكرت تلك الليلة.

الفصل الرابع عشر

ثمن سيجارة

كم تظن السيجارة كان ثمنها في سنة ١٩٠٩ م؟

لا أدرى من القارئ.. أمن الأيقاع الذين يزدآن بشبابهم الغض هذا القرن العشرون، أم من المخضرمين الذين أدركوا — مثلـي — القرن الماضي وهو يجود بأنفاسه، وأبوا إلا أن يركبوا هذا الزمن بشبابهم الدائم الذي يأبى أن يدركه الهرم أو يرده الشيب إلى تخلف الوقار؟ وإن كان — أعني شبابهم المتلκـيـ — لا يمتاز لا بغضاضة، ولا ببغاضة. وليكن القارئ من شاء — من الحدثين أو من هم أحدث منه وإن كانوا أعلى سنا — فهذه فذلة تاريخية يستطيع أن ينتفع بها إذا كان له من الذكاء حظ. وهل أحـرـصـ منـىـ عـلـىـ فـائـدـةـ القراء؟

كـنـتـ فـيـ تـلـكـ السـنـةـ — سـنـةـ ١٩٠٩ـ مـ — قـدـ تـخـرـجـتـ فـيـ مـدـرـسـةـ المـعـلـمـينـ الـعـلـيـاـ، وـمـنـ كـانـ يـشـكـ فـيـ ذـلـكـ فـلـيـسـأـلـ وـزـارـةـ الـعـارـفـ فـلـنـ تـحـابـيـنـ. وـكـنـتـ فـيـ مـقـدـمـةـ الصـيفـ، وـكـنـتـ مـتـعـبـاـ مـرـهـقاـ — لـاـ أـدـرـىـ لـمـاـ؟ـ فـمـاـ أـعـرـفـنـىـ عـنـيـتـ بـحـفـظـ درـسـ فـيـ حـيـاتـىـ — فـاسـتـشـرـتـ طـبـبـيـاـ أـوـ عـلـىـ الأـصـحـ أـلـحـ أـهـلـيـ أـنـ أـسـتـشـيرـهـ، فـقـدـ صـارـتـ لـحـيـاتـىـ قـيـمـةـ بـعـدـ أـنـ حـمـلـتـ هـذـهـ «ـالـدـبـلـوـمـ»ـ وـبـلـغـتـ بـهـ مـبـالـغـ الرـجـالـ الـذـيـنـ يـكـسـبـونـ رـزـقـهـمـ وـيـنـفـقـوـنـ عـلـىـ سـوـاهـمـ. فـلـمـاـ فـحـصـنـىـ الطـبـبـ، قـالـ: «ـلـاـ شـىـءـ». يـكـفـىـ أـنـ تـرـتـاحـ وـتـتـنـزـهـ»ـ قـلـتـ: «ـأـيـنـ؟ـ وـكـانـ ضـيـقـ الصـدـرـ فـقـالـ: «ـوـهـلـ أـنـ أـعـرـفـ..ـ فـيـ أـىـ مـكـانـ غـيـرـ الـبـيـتـ»ـ فـلـمـ يـحـسـنـ وـقـعـ جـوـاـبـهـ فـيـ نـفـسـىـ، فـقـلـتـ لـهـ: «ـوـهـلـ كـنـتـ تـحـسـبـ أـنـ بـيـتـيـ مـنـتـزـهـ يـاـ أـخـىـ..ـ أـمـ خـيـلـ إـلـيـكـ أـنـىـ بـنـتـ لـاـ أـعـرـفـ غـيـرـ غـرـفـ الـبـيـتـ»ـ. سـبـحـانـ اللهـ الـعـظـيمـ»ـ وـأـنـصـرـفـتـ سـاخـطاـ.

وـأـوـسـعـتـهـ ذـمـاـ فـيـ الطـرـيقـ إـلـىـ بـيـتـيـ — مـرـقـتـهـ وـنـتـرـتـ لـحـمـهـ وـجـلـدـهـ لـلـكـلـابـ..ـ حـتـىـ الشـعـرـاتـ الـقـلـيلـةـ التـىـ بـقـيـتـ فـيـ رـأـسـهـ الـأـصـلـعـ اـنـتـزـعـتـهـ وـاحـدـةـ وـاحـدـةـ، وـسـرـنـىـ أـنـهـ كـانـ

يتآلم ويتألم وأنا أشدّها بأظافرِي وأقتلُها من جذورِها — بخيال — و كنت أقول له:
«هذا جزاؤك يا وقح.. عسى أن يعلمك هذا أن التهكم على الناس غير جائز». .
ويظهر أنني كنت أكلم نفسي في الطريق بصوت عال، فقد استوقفني قريب لي وقال
لي: «مالك.. ماذا جرى؟»؟

قلت له مستغرباً: «نعم.. ماذا جرى؟»؟

وتجهمت له فقال: «من الذي تشتمنه وتسبه هذا السب القبيح؟»؟

فأفاقت وارتدى إلى عقلٍ.. وكان قريبي هذا له نسيبٌ عندها له بقية من مال قليل استودعناه إياه ليجريه مع ماله في تجارتة، فقلت له: «يا أخي هذا الطيب الذي أرسلتُه إليك يقول لي: إنه لا دواء لي إلا أن أذهب إلى لبنان، وأنه لا أمل لي في الشفاء بغير ذلك.. ولا أدرى ما أصنع، فقد ذهب أكثر نصيبي في نفقات التعليم والباقي لا يكفي للسفر إلى الشام. ولست أحب أن أجور على نصيب أمي وأخي وإن كان من السهل رد ما أفترض بعد أن أقبض مرتبتي من وظيفتي.. وعلى ذكر ذلك، أقول لك إنني عينت مدرساً في المدرسة السعودية الثانوية».

وكان الذي أخطر الشام على بالي في هذه اللحظة، أن لي صديقاً أصابه صداع ملح أعيماً الأطباء شهوراً.. فبعثوا به إلى لبنان فاستراح من آلامه، وكتب إلى من هناك يصف لي جمال البلاد ويدعوني إلى اللحاق به.

وكان لابد من موافقة أمي على الاستدانة من نصبيها أو نصيب أخي من هذه البقية الباقية من المال القليل، وكانت — رحمها الله — قوية ذكية، ولم أكن أجرؤ أن أكذب عليها.. ولو أنها كانت سألتني لما وسعني إلا أن أحدثها بما دار نفسي من أساليب الاحتيال عليها — لا خوفاً منها، بل لأنها عودتني أن أصدقها وألا يكون جزائي على الصدق إلا الخير. غير أنها لم تسألني شيئاً بل وافقت وقالت: «اقتراح حسن.. اذهب إلى ... خذ منه ما يكفيك».

ولو كنت ذكياً لأدركت أن في الأمر سراً، وأن وراء هذه الموافقة السريعة التي لم أكن أتوقعها تدبيراً خفياً.. ولتدبرت أنها كانت تحبني حتى كانت لا تستطيع أن تفارقني يوماً واحداً فكيف بشهر أو شهرين؟ ولكن خفة الشباب صرفتني عن النظر في شيء من هذا، فصدقـتـ وذهبتـ إلىـ الرـجلـ فـقالـ: «لـيسـ معـيـ الآنـ إـلاـ خـمـسـةـ جـنـيـهـاتـ فـخـذـهـاـ،ـ وـلـوـ لـأـنـ مـرـيـضـ لـخـرـجـتـ مـعـكـ لـأـجـيـئـ بـكـ مـاـ تـحـتـاجـ إـلـيـهـ..ـ وـلـكـ بـضـعـةـ أـيـامـ لـاـ تـقـدـمـ وـلـاـ تـؤـخـرـ».

فخرجت مغبظاً فما كنت رأيت قط قبل ذلك اليوم خمسة جنيهات - ذهبا - في كفى أصنع بها ما أشاء ولا أسأل عنها. وأنسانى الفرح أن كونى لا أسأل عن هذه الجنيهات ماذا صنعت بها هو التبیر الذى لجأت إليه أمى اعتماداً على ما تعرف من تبذيرى وإسرافى اللذين أعيادها علاجهما.

ومضت أيام ثلاثة نقصت الجنيهات التى معى بعدها، فقد أبقيتها فى جيبى.. فطارت واحداً بعد واحداً كأن لها أحنة، فعدت إلى صاحبنا وقلت له أنى أريد بقية المبلغ اللازم لأنى أخشى الضياع على كل ما يعطينى.. فأبدى الاستغراب وسألنى عما بقى معى من الجنيهات الخمسة، فقلت لم يبق إلا اثنان فقط.. فهز رأسه ولم يقل شيئاً وناولنى خمسة أخرى وقال: «إلى أن أشفى».

فكبرتُ في عين نفسي، فقد كنت فرحت بخمسة وأحسست أنى رجل عظيم.. فكيف وقد صار معى سبعة لا خمسة فقط.. ولم أعد في تلك الليلة إلى البيت إلا قبل الفجر متسللاً، فألفيت أمى قاعدة تدخن وتتنظرنى، ولكنها لم تقل شيئاً واكتفت بالنظر والابتسام. ولو كنت ذكياً لاستغربت أن تبتسم لابنها الذى لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه - لا من السكر فما كنت سكيراً بل من التعب والإعياء والسهر - وكانت هى تعرف أن الخمر لا تعنىى فلم تكن تخشى شيئاً من هذه الناحية.

ولا أطيل على القارئ، فإنى أخشى أن أسترد إلى غير ما أردت - والحديث ذو شجون كما يقولون - ويكتفى أن يعلم أنى أضعت خمسة عشر جنيهاً في خمسة عشر يوماً. وكان الذى عنده ما بقى من مالنا يتمثل للشفاء، وكانت أزوره لأعوده كل يوم فما يليق غير ذلك، فاتفق يوماً أن كنت عنده - معه في غرفته - فجاءه الطبيب على عادته في كل يوم فخرجت إلى الشرفة وجعلت أتمشى فيها - وكانت رحيبة - إلى أن يفرغ الطبيب من فحصه، وكانت قد اشتريت «علبة» من الفضة للسجاير - فقد صار هذا البذخ في وسعى - فأخرجتها من جيب البنطلون حيث رأيت أبناء الوارثين يضعونها، وأشعلت سيجارة وانطلقت أدخن وقال لي الطبيب: «هذه قسوة».

فاستغربت وسألته عن معنى كلامه، فقال إنه - أى الطبيب - حرم التدخين على نسيبنا هذا، وقد كانت رائحة الدخان تدخل الغرفة. وكان يرى المسكين تجحظ عيناه ويهتز رأسه على الوسادة، ولكنه لا يستطيع أن يقول شيئاً لأنه - أى الطبيب - واقف، وحدرنى من أن أعطيه دخاناً، وقال إن مريضه لاشك سيتعلق بي ويلحق

في رجائى أن أعطيه ولو سيجارة واحدة.. ولكن مصلحته تقتضى أن لا أرق له. ثم انصرف.

وعدت إلى صاحبنا وقد اختمرت في رأسي فكرة — آخذ عشرة جنيهات دفعة واحدة، فإن آخذ الخمسات لا فائدة منه — وأسافر بها بلا تريث، وأطلب من هناك كل ما أحتاج إليه.. فما يعقل أن يضنوا على بشيء في الغربية. ودنت منه، وفركت كفى وقلت: «أظن أن لا فائدة اليوم من طلب شيء».

فواافق — وهو عابس — على أن لا فائدة.

فقلت: «حتى لو كان الطلب لا يudo عشرة جنيهات لا أكثر؟»

فزاد وجهه عبوسا وهز رأسه هزات متواتلة بلا مناسبة فما كان ثم ما يقتضي هذا العنف وهو المحتاج إلى الراحة التامة. ثم إنني لم أتعود منه إلا التلبية السريعة، فاقتتنعت بأن رائحة الدخان — أو الطباقي كما علمني المرحوم الشيخ حمزة فتح الله — هي المسئولة عن هذا السلوك الجديد الذي لا عهد لي به منه.

قال بلهجة الجزم: «أبداً» ولم يزد.

قلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ومددت يدي إلى جيبي، فأخرجت العلبة الفضية منه وفتحتها ببطء — وكانت ملأى بالسجائر — وخفضت يدي بها وأملتها وأنا أتناول منها — ليري ما فيها من صفي السجائر، وأخرجت واحدة ورددت العلبة إلى مكانها، وأشعلت السيجارة. وإذا بالنائم ينتفض ويقعد على السرير ويصبح بي بصوت كالرعد: «هات العلبة.. هات العلبة».

فصحت به وأنا لا أريم مكانى ولا أظهر اكتئاثا لانتفاضه: «إيه؟

فصاح وهو يلوح بكلتا يديه: «هاتها.. أقول لك هاتها. ألا تسمع؟

فقلت وأنا أتظاهر بأنى لم أفهم مراده إلا الآن فقط: «آه تقصد السجائر..؟

وأخرجت العلبة وفتحتها له وأنا في مكانى — على نحو مترين منه — «هنا — في هذا الجانب سجائر الفيل.. وفي هذا الجانب سجائر جناكليز».

فصاح: «هات.. هات.. هات».

قلت ببرود: «هي لك كلها إذا شئت».

فصاح: «أو لم أشأ.. لقد قلت لك هات مائة مرة فهل أنت أصم.. هات.. أقول لك هات».

قلت، وأنا في مكانى: «وهل تظن أنى أضن عليك بشئ؟ إذن أنت لا تعرفنى.. ولكنى أشعر بحاجة شديدة إلى عشرة جنيهات.. عشرة ليس إلا.. مبلغ زهيد في الحقيقة وقد جئت إليك وفي مأمولى أن أبلغ عنك مقصودى، فما قولك؟» قال: «خمسة.. مثل كل مرة.. لك». قلت: «عشرة.. والعلبة كلها لك.. إذا شئت.. أما إذا لم تشا، فالأمر على كل حال

قال: «اجعلها سبعة.. وهات بقى..». قلت: «إنى أكره المساومة.. طباعي تأباهما.. وتربيتى تجعلنى أنفر منها.. أوه أنفر جدا منها.. إنك لا تستطيع أن تتصور شدة نفورى من المساومة.. يبلغ من كرهى لها أن أزهد فى الأمر كله فلا أعود أقبل الكلام فيه مهما كان الذى يبذل لي..». وطويت العلبة على سبيل التأكيد لهذا النفور ووضعتها في جيبى وقلت: «والآن.. أستودعك الله.. إن شاء الله أراك غدا بخير» وأدرت وجهى وهمممت بالخروج، وإذا به يصيح بي: «تعال يا مجنون.. خذ العشرة التى تريدها.. هات بقى..». قلت: «حتى تصير العشرة في كفى هذه..». وبسطتها له حتى لا يساوره الشك.. فتنهد، وناولنيها وعدتها على مهل ثم رميت له العلبة.

وخرجت وتركت له السجاير غير عابئ بأوامر الطبيب، فما أطيش الشباب وأشد حمقه وأقل رفقه.. ولكن الله سلم ونجا ولم تقتله السجاير.. أما أنا فلم يكتب لي الله أن أذهب في سنتى تلك إلى الشام.. ولهذا حديث طويل ليس هذا وقته فإن أكثر الذين يعنيهم لا يزالون أحياء فموعدنا به بعد عمرهم الطويل.

الفصل الخامس عشر

البغاء والقط

– أعود بآلة من الستات ... إنهن لا يرحمن ولا يت肯ن رحمة الله تنزل.
قلت: «لماذا؟ ماذا يسخطك على الجنس اللطيف؟»؟

فأعتدل على كرسيه وحدق في وجهي، وقال – أو صاح على الأصح: «لطيف؟ أتقول لطيف..؟ أ يكون جنساً لطيفاً ذاك الذي يلبس هذه الشياط الخفيفة في البرد ويبدو فيها مكشوف الذراعين إلى ما فوق المرفق؟ إننا نحن الجنس اللطيف لو عقل الناس». قلت: «يا سيدى.. ثم ماذا أيضاً؟ قال – غير عابئ بتهمكم: «ثم إنه ليس لطيفاً في الحقيقة».

قلت: «هذه ملاحظة سمعناها فهى مكررة.. فإذا قلت شيئاً جديداً، وإن فاسكت». قال: «أنا أعنى أنه جنس غير لطيف المعاشرة».

قلت: «وكيف كان ذلك؟.. أعنى ماذا يسخطك عليه اليوم؟»؟
قال: «لعلك تذكر «إحسان».. لقد عرفتك بها. تعلقت بي كأنها ظلي، فسئمت وأقول لك الحق أنى خفت العاقبة.. فقد كنت أستملحها وأستعذب حديثها وأستريح إلى مجلسها، ولكن المصيبة أنها تحسب أن الملاطفة والمجاملة حب. الحق أن أمر هؤلاء البنات عجيب.. كل كلمة من الرجل – أعني كلمة ملاطفة أو تودد – يتخذنها دليلاً على الحب.. فإذا قلت لها إن ثوبها جميل، أو أن شعرها المرسل أو الرجل بديع، أو أن حذاءها حسن، أو أن ابتسامتها حلوة أو عذبة، أو أن ظل أهدايبها على وجنتيها فاتن أو غير ذلك – أى كلمة ثناء تنطق بها – فما أسرع ما تؤولها بأنها صادرة عن حب وعشق وهيا مصيبة يا أخي والله، يظهر أن هؤلاء الفتيات بهن ظمآن شديد إلى الحب، ويخيل إلى أن حياتهن تجفف نفوسهن وتذويها وتوجج فيها الشوق إلى

الحب.. فلا تكاد الواحدة منهن تسمع لفظا عاديا من ألفاظ المدح التي يستدعها حسن المجالسة وأدب الحديث حتى يثبت خيالها من فرط اللهفة إلى سماء الوهم السابعة». فقلت — وقد برمت بهذه المحاضرة: «أتريد أن تقص حكاية أم أن تتفاسف؟ يجب أن أعرف لأعد نفسي، وأنهياً لما سألتقي».

فقال: «طيب.. قلت لك أن هذه الفتاة — «إحسان» توهمت — أو أنا خفت أن تكون قد توهمت — أني أحبها. ولست أكرهها أو أستقللها فإنها ظريفة جدا، ولكنها ليست الفتاة التي اختارها للزواج ولا سيما بعد أن عرفت «حورية»..».

قلت: «إنى أهنتك».

قال بلهفة: «أو تعرفها؟ أليست بالله مدهشة؟ ألا ترى أنها..» قلت — وأنا أرفع يدي لأقصد هذا السيل المندر: «مهلا.. مهلا.. أني لي أن أعرفها؟ إنما راقني الاسم وجرى في خاطري أنه.. لعلك..».

فلوح بيده وقال: «إنك ثقيل.. تخجل المرء وتلتقي على حماسته ماء باردا.. ما هذه الطباع السخيفة؟ لماذا تحب أن تصدم الناس على هذا النحو القاسي؟»

قلت: «آسف يا صاحبى.. لم أصدكم.. ولو كنت أعلم أن كلمتى سيسوء وقوعها فى نفسك إلى هذا الحد لما نطقتك بها. والآن ارجع إلى حوريتك، فإن اسمها يبشر بحكاية ...».

قال: «أو هذا كل ما يعنيك ... الحكاية ليست إلا ... شيء بارد».

قلت: «يا أخي كن منصفا ... هل تريد أن أحب حوريتك هذه من فرط حبك لها وأعجبتك بها؟» قال: «أعوذ بالله» قلت: «انتهينا إذن ... هات الحكاية».

فاقتتنع وقال: «الحكاية أن حورية أهدتني ببغاء صغيرا وقطة أيضا.. لا أدرى لماذا؟ ولكن لعلها ظنت أن بيتي حديقة حيوانات.. على كل حال هذا ما حدث.. ثم سافرت، وخطر لي أنى أستطيع فى فترة غيابها أن أتخلص من «إحسان» حتى إذا عادت حورية، وجدت الميدان خاليا.. فقد كنت أخاف أن ترى إحسان معى مرة فتظننى بى الظنون وإن كان لا محل لها فى الحقيقة، فما بينى وبين إحسان ما يدعوه إلى أى ظن.. ولكن النساء لا يفهمن الصدقة، ولا سيما بين الرجل والمرأة.. وإحسان — كما تعلم — رقيقة الإحساس جدا، دقيقة الحساب والتقدير لكل حركة.. وكانت أمى تحبها وتخالفنى فى رأى فيها.. ولكنى كنت أقول لها — أعنى لأمى — إنى أنا الذى سيتزوج لا أنت، فاسمحى لى بحرية الاختيار.. وأختصر فأقول: إنى اتفقنا معها —

أعني إحسان في هذه المرة لا أمي — أن تمر بي في البيت لندھب معها إلى القنطرة الخيرية ونقضي يومنا هناك ومعنا أمي. وسافرت في ذلك اليوم على الرغم من احتجاج أمي واعتراضها، ولكن حلفت لها أن العمل الذي يدعونى إلى السفر لا يحتمل الإرجاء. وطمأنتها فأوصيتها بإحسان وألححت عليها — وإن لم تكن بها حاجة إلى ذلك — أن تكرّمها وتسرّها وأن تتقدّى أن «تكسر خاطرها» كما يقولون.. فهل تدرى ماذا صنعت أمي؟

فهممت أن أقول شيئاً، ولكنه منعنى بإشارة ومضى يقول: «إن الذى أريد أن أقوله هو أن أمي — على ما يظهر — سئمت عشرة القطط والببغاء — ولها العذر — والحقيقة أنى لا أدري كيف يمكن أن يوفق بين قط قوى صحيح وثاب وببغاء صغير لا يستطيع أن يتكلم ولا يحسن إلا أن يخرج أصواتاً كتلك التى قد يخرجها كروان أصابه زكام — لا تقاطع أعود بالله من هذه المقاطعة — إنما أعني إذا أمكن أن يصاب الكروان.. أو أى عصفور بالزكام.. هل استرحت الآن؟ فقد كان القط لا ينفك يثبت إلى القفص محاولاً أن يقتنص الببغاء، وكان الببغاء لا ينفك يصرخ أو يصيح أو يستنجد أو لا أدري ماذا أسمى هذه الأصوات المزعجة التي يخرجها ويستغيث بها حين يهم به القط. ومن العبث أن تحاول أن تفهمه أنه في قفص وأن القط يستطيع أن يقتل نفسه وثبا، فإن له — أعني للببغاء — من القفص وقاية كافية. وكيف السبيل إلى الراحة في بيت فيه ببغاء لا يكف عن الصراخ، وقط لا يكف عن الوثب حول قفصه؟ والقط حيوان خبيث متلاصص لا سبيل إلى منهعه أن يدخل على الببغاء في حيث يكون من البيت إلا إذا وقفت له بالعصى على باب الغرفة طول النهار. ومع ذلك يستطيع أن يغافل ويتسلل من بين رجليك وأنت غير دار بما فعل، وإن كنت واقفاً كالعصى أو المقهشة التي في يديك. وقد حيرنا جداً هذا القط — أعني أنه حير أمي فقد تركت الأمر كله لعنایتها فإذا وضعنا الببغاء على حافة الشرفة لينعم بالشمس والهواء قليلاً، نظر القط إليه وراح يحاول أن يدخل من بين القضبان فينأى الببغاء المذعور إلى آخر القفص، ويرى القط أن يده لا تصل إليه فيطوى كفه ويثنى يده ويروح يحركها بالقضبان — عاماً بلا شك — فينقلب القفص ويصيب الببغاء الرعب، فيضرب بجناحيه كالجنون ويطلق أعلى صيحاته المنكرة، والقط يحوم حوله ويلوب ويموه مواء له دلالته التي لا تخفي، ويُطّل الجيران من نوافذهم وشرفاتهم على القيامة التي قامت في شرفتنا، ونسمع نحن الضجة فنذهب نعدو كمركبة الإسعاف. أعني أننا لا نبالي ما يكون في طريقنا من

الأشياء، فكم من طاولة انقلبت بما عليها، ومن زهرية انكسرت، ومن أطباق سجاير انتشرت في الغرفة، الخ الخ.. وإذا علقنا الببغاء — أعني قفصه يا سيدى — راح القط يتوجب حوله غير عابئ بما يسقط عليه حين يهبط إلى الأرض من وثباته، ويقلبه أو يكسره.. ولا أطيل عليك فإن في وسعي أن تتصور حياتنا مع القط والببغاء.. وأكبر الظن أن حورية أرادت أن تخلص من هذا البلاء فأهدته إلينا وقidiته علينا في سجل حسناتها. المهم على كل حال أن أمي في غيابي أحستت الاعتزاز إلى «إحسان» وأهدت إليها القط والببغاء جميعاً.. ويخيل إلى الآن أنها رمت عصفوريين بحجر.. لاحظ آنى لا أقول أصابتهما، وإنما أقول إنها رمتهمما فما أصاب الحجر سوى رأسى.. ذلك آنى بعد أن عدت وعرفت ما كان واضطربت له وقلقت، انتهيت إلى أن الخيرة في الواقع وأنه ليس في الإمكان خير مما كان.. ومضت أيام وأننا مغتبط بالراحة الجديدة التي شعرنا بها بعد أن تخلصنا من هذين البلاعين — القط والببغاء — وإذا بحورية داخلة كالمدفع الرشاش. ولست أستطيع أن أقص عليك ما سمعت منها، فقد دار رأسى حتى صرت لا أعنى ما أسمع، ولكن أمى لخصتلى الموضوع بعد خروجها، فقالت إنها عرفت — لا أدرى كيف — آنى أهديت هديتها، القط والببغاء، إلى «إحسان» فهى لهذا واجدة ناقمة ولا تزيد أن ترى وجه هذا الخائن بعد اليوم.. وهكذا طارت من يدى حورية.. ما أظن بأمى إلا أنها تعمدت أن تطيرها بهذه الحيلة.. فقد كنت أريد أن أتخلص من إحسان فما تخلصت إلا من حورية. ولا أدرى ماذا أصنع فإنها لا تقبل أن تسمع منى كلاماً أو تصفعى إلى شرح وتفسير، فهل عندك رأى تشير به؟

فقلت: «قل لي أولاً.. هل تعلم كيف استطاعت إحسان أن توفق بين القط والببغاء؟»؟ فقال: «الحق أقول لك آنى أعتقد أن المرأة أحزن من الرجل، فإن إحسان لم تحاولقط أن تحل العقدة.. وأنما قطعتها بحد السيف. ذلك أنها لم تكن تصل إلى بيتها وترى كيف ينظر القط نظراته المريبة إلى الببغاء حتى خيرت نفسها فاختارت الببغاء. ثم تناولت القط ودسته في غرارة ودفعت به إلى الخادم، وأمرته أن يذهب إلى الطرف الآخر من المدينة ويفرغ الغرارة هناك. ويطهر أن حورية عرفت هذا أيضاً فإنى أرى نقمتها تزيد وتشتد ولا أراها تفتر فما العمل؟»؟

فقلت: «أوه.. لا شيء.. لا تقطع نفسك حسرات.. دع الأيام تعمل عملها..». فصاح بي: «ولكن عمل الأيام زفت وقطران.. فكيف أتركها تعمل عملها؟»؟ فهززت رأسى ومططبت بوزى. وماذا أقول لن يتكلم هذا الكلام؟ ثم خطر لي سؤال فقلت: «هل أملك رجل؟»؟ فصاح: «إيه؟»؟

قلت: «لماذا لم تحل العقدة كما حلتها إحسان وهى امرأة مثلها؟»
فمضى عنى ساخطا ولم يجب.

الفصل السادس عشر

السيارة المسروقة

- إن من الواضح أن تربيتك ناقصة.. ناقصة جدا.. هذا أنا - بجلال قدرى - أكلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين. فقلت زوجتى أخيرا وألقت ما بيدها - وكان شيئاً طرزاً أو لا أدرى مادا تعنى به: «إنى لست اليوم كفؤا لك ولهذاك، فاسكت من فضلك».

قلت: «هذا بديل جميل من الاعتذار. ألا تستحيين يا امرأة؟ ثم ما هذه الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وناج رأسك وبعلك؟» قالت: «أرجوك.. أرجوك يا مسلم.. ثم إن الطباخة خرجت». فانتفضت واقفاً وصحت: «نهاها أسود.. لماذا؟»

قالت: «استحسن زوجها أن يكون ذهابها إليه يوم الجمعة بدلاً من يوم الأحد». فانححطت على الكرسى وقلت: «ووافقت أنت بالطبع؟» قالت: «وماذا أصنع غير ذلك؟ وقد أصرنا على يوم الجمعة، فلو رفضت لفارقتنا ولعدنا إلى حيرتنا القديمة».

قلت: «يا امرأة.. هل تعرفين أنى أتضور في هذا البيت؟ يوم الجمعة الذى أستريح فيه وأظل أحلم طول الليل بما أطمع أن أنعم به من الأكل ... أوه إن هذا لا يطاق! هذه.. هذه.. نعم بشفية صريحة، ومع ذلك تزعم الحكومة أنها تكافحها.. ما عيب يوم الأحد بالله.. لماذا يجب - حتماً - أن تكون بطالتها يوم الجمعة لا غيره؟» فضجرت زوجتى وبدأت تنفس، وقالت: «ألا تسكت؟ مالك أنت.. إن لك أن تأكل والسلام.. ثم أنها مسلمة وكذلك زوجها في يوم الجمعة أوفق لهما».

قلت: «وهل من الضروري أن تتزوج هذه الدمية وذلك المغل؟

قالت، وهي تتمطى: «إنى أشعر بفتور وحدر فاعفنى بالله من وجع الدماغ.. وحسبي هم إطعامك في هذا اليوم الثقيل».

فقلت، وقد خطرت لي فكرة: «اسمعي، أقل لك».

قالت وهي تضحك: «وهل ترانى اليوم هنا إلا لأسمع؟ تفضل يا سيدى ونور عينى.. وماذا أيضا؟

قلت: «وتاج رأسك.. اسمعى.. إن الفتور يغشى جسمك كما تقولين، وأنا رأى يكاد يطير مذ عرفت أن هذه الطباخة الكريهة الوجه قد تخلت عنا في يومنا هذا، فما قولك في أكلة ناشفة خفيفة نصنعها هنا أو نشتريها؟

فاعتلت وقالت وقد لمعت عينها: «لماذا؟

قلت: «وندعوا فلانة وفلانا — من أقربائنا — ونذهب جميعاً ومعنا الأولاد إلى القنطر الخيرية، فنقضى يومنا هناك بين الخضراء والماء».

قالت: «ولكنه سينقصك الوجه الحسن».

قلت: «يا خبيثة.. هل تخنين أنى تزوجتك وأنا مغمض العينين؟

وحشرتهم جميعاً في السيارة، ودنسست السلة التي فيها الطعام والشراب في مكان مجعلو لما يحمل المسافر من زاد ومتاع، وكانت الساعة الثانية مساء حين انطلقا فبلغنا القنطر بعد نصف ساعة، فحملنا أشياءنا وتركنا السيارة في حراسة رجل من الواقفين هناك المستعددين لهذه المهمات. وتخيرنا مكاناً يشرف على الماء وتظلله أشجار باسقة، وبسطنا السجادة وألقينا عليها صفحات من جرائد الصباح والمساء، ووضعنا عليها الصحون والصوانى ثم شرعنا نأكل، ولم يكن الطعام فيما يبدو لعيوننا الفارغة كثيراً.. فجعل بعضاً يخطف من بعض فكانت الأذ أكلة وأهناها، ثم طرحنا الوسائل على السجادة واستلقينا فنام من نام. ولما آذنت الشمس بالغرروب ركبنا زورقاً في ترعة أشمون، ثم بدا لنا أن نعود لندرك الشيخ رفعت وهو يتلو القرآن الكريم — فما نحب أن يفوتنا ذلك منه قط — فرجعنا إلى حيث السيارة.. فإذا بها قد اختفت..

بهـت حين رأيت مكانها خالياً فوقت كالصنم، وأقبلت على زوجتى تسألنى وتهز ذراعى، فقلت لها وقد أفقت قليلاً: «نعم.. هزى ذراعى بقوه.. إن بي حاجة إلى الشعور بأنى لست أحلم وأن هذا ليس كابوساً..».

قالت: «أين ذهبت؟ قلت: «فتشرىني.. لقد كانت هنا.. تركتها في هذا المكان.. وليس في الأرض ما يدل على أنها انشقت وابتلاعها... ولست أعرف أن لها أجنحة، فلا يمكن

أن تكون طارت. إن الطريقة الصحيحة للاهتداء إلى الحقيقة هي أن يبدأ المرء بنفي كل الاحتمالات غير المعقولة، كما تريتني أصنع الآن».

فصاحت «لولو» قريبتنا: «لقد سرقها اللصوص».

فصحت بها: «تالله ما أذكاك ياافتاتى.. ولكن كيف لم نفطن إلى هذا بمثل هذه السرعة المدهشة»؟

فقالت لولو: «وماذا تكون مزية العبرية وفضيلتها إذن»؟

قلت: «صدقت يا فتاتي النابغة...».

فقالت زوجتى مقاطعة: «هل هذا وقت الكلام الفارغ! ألا تفكرون في طريقة لاستردادها؟

فقلت: «آه.. هنا أيضا عبرية ولكن من ضرب آخر – ضرب عمل لا يرتاح إلى النظريات.. عبرية يمكن أن ننعتها بأنها نابليونية، ولست أرى أنه ينقصنا – لنوقن أن السيارة عائدة باذن الله – إلا ضرب ثالث».

فقالت زوجتى متهكمة: «نعم يا سيدى.. تفضل».

فقلت بحدة: «لا تنهكمى يا امرأة.. نعم ينقصنا الضرب الشرلكمزى».

فصاحوا جميعا: «إيه»؟

فقلت: «أعوذ بالله.. مالكم تصرخون هكذا؟ نعم الشرلكمزى يا جهله.. لو كنتم تعنون بثقيف عقولكم الفارغة قدر عنايتكم بخلاف والمكافرة معى وإنكار نعمتى عليكم وجود فضلى.. لعرفتكم أن الشرلكمزى نسبة إلى شرلوك هولمز».

فقالت زوجتى وهى تضع كفها على فمهما: «طيب اسكت بقى».

فلثمت راحتها وسكت.. كما أمرت.

وقال سليم – أخو لولو: «إن من الواضح أن علينا أن نتفرق».

قلت: «بديهى.. حتى لا يرانا اللصوص فيخافوا.. نعم يحسن أن لا نضع شيئا يزعج اللصوص ويفسد عليهم متعتهم».

فصاح بي: «يا أخي ألا تكف عن هذا العبث؟

قلت: «كففت بإذن الله.. تفضل.. ولكن اسمح لي أن أسأل هل تعنى أن ترسل الأطفال وحدهم في ناحية، وأمهم وأختك في ناحية وتذهب أنت إلى حيث ألت، وأعود أنا إلى البيت وقد تخلصت منكم جميعا؟ إن كان هذا مرادك فأنا من الآن موافق والسلام عليكم، ولا تتكلفوا أنفسكم إرسال عناوينكم».

وبعد أن هدأت الضجة التي أثارتها هذه الكلمات البريئة، قال سليم: «تأخذ أنت الأطفال وهاتين أيضاً – وأشار إلى زوجتي وأخته – وتركب تاكسي وتصر أولاً بمركز البوليس ثم لا تتكل عليه بل تذهب تبحث.. وأنا أذهب أبحث من ناحية أخرى».

فقالت زوجته لسليم: «أكون أنا معك فإني لا أكاد أطيق مزاحه في مثل هذه الساعات.. إنه لا يفرق بين جد وهزل كل وقت عنده صالح للضحك... شيء فظيع..».

قلت: «أشكرك.. على أني أستطيع أن أهذب لك خطتك العقيمة..».

فقالت زوجته: «بالله اسكت.. أرجوك.. أر.. جوووووو».

قلت: «حالاً حالاً. كل شيء في وقته يا امرأة.. وهل هذا وقت رجاء؟ إنه وقت العمل.. ألا تفهمين؟ اسمع يا هذا. تذهب أنت إلى البوليس وتعفيني من هذه المهمة التي لا أرتاح إليها ولا أعتقد أن فيهافائدة، وتأخذ معك هذه الزوجة الجادة الناكرة للجميل، وأفعل بعد ذلك ما تستطيع.. وإلى الملتقى في البيت العامر إن شاء الله».

فقالت زوجته: «أيه.. أنا أقول لكم ماذا ينوى أن يصنع.. سيذهب إلى البيت مباشرة ولا يكلف نفسه أي عناء في البحث عن سيارته.. وسترون».

وكنت مقتناً بهذا الرأي حتى لقد اشتريت «صفيحة» بنزين من القنطرة وضعنها معنا في التاكسي، وقلت للولو: «لها فائدة أخرى هي أن يعتقد سائق التاكسي حين تركه وتركب سيارتنا أنها ما استأجرنا سيارته إلا لهذا السبب، فلا يروح يعجب أو يسأل عن شيء ولا يبدو له شيء غريب في عملنا».

وقد شاء الله أن يحقق ظني، فما كدنا نقطع خمسة كيلومترات من الطريق بعد أن تركنا القنطرة وأخذنا في سكة قليوب حتى وجدنا السيارة. وأوجز فأقول أنا ركبناها فرحين، وعدنا إلى القنطرة عسى أن نجد بقيتها. فلما لم نجد أحداً تركنا لهم خبراً عند الحارس النائم، ثم حملناه معنا إلى مركز البوليس لنسرهم ونعفيهم من البحث، فعلمنا أن أصحابنا أبلغوهم خبر السرقة، وأن بعض الشرطة خرج للبحث وأن الخبر طير بالتليفون إلى قليوب والقاهرة ولجهات أخرى أيضاً لضبط السارق في الطريق. فشكراً لهم هذه الهمة التي لم تكن متوقعة ثم قلت لهم: «إن المهم الآن هو البحث عن زوجتي».

فصاح الرجل: «إيه؟ قلت: إنها مع قريبي وقربها» قال: «انتهينا».

قلت: «كلا لم ننته.. وما أدرك أن هذه ليست سرقة أخرى أفعع وأشنع؟

فضحك الرجل.. وجربتني لولو وهي تحتاج.

تركنا السيارة أمام رصيف البيت وجلسنا في الشرفة نأكل لحم الغائبين — أعني ننتظرهما — وإذا بهما عائدان بعد نحو ساعتين في سيارة — هي أخت سيارتنا بلا فرق — فانحدرت إلى الطريق بسرعة فوجدهما يتأملاً هذه المعجزة، فقلت: «تمام.. لقد سرقت هذه السيارة يا صاحبي، ولم أكن أعرف أن قريبي ونبيبي لص.. ولكن ماذا أصنع؟ لقد أخفوك عنى قبل أن أتزوج، فصار واجبي أن أخفيك عن أعين الناس بعد أن تزوجت».

فهم بكلام فمنعته ودعوهه أن ينظر إلى السيارتين، فاقتنع وقال: «ما العمل الآن؟» قلت: «تستعد للسجن.. لقد كان هذا واجباً من زمان طويل في الحقيقة، ولكن ما أكثر من يستحقون السجن وهم طلقاء.. والآن اذهب بالسيارة إلى الجراج — السيارة المسروقة ثم أبلغ البوليس بالتليفون وقل له إنك عندى تنتظر حضوره للقبض عليك». وعرفنا منها بعد ذلك أنها ركبة القطار ثم التram إلى العتبة الخضراء وإذا بهما يريان السيارة عند رصيف إدارة البريد، فذهبا إليها يدعوان فألفياها خالية فركبا، وانطلقا بها من غير أن يعيما بالنظر إلى رقمها وانحدرا بها في شارع فاروق.. وتركا صاحبها المسكين يجري وراءهما ويصرخ ويصرخ ويستنجد، وهو يضحكان مسرورين.. بارك الله فيهما من لصين جريئين.

وقلت لهم: «لا عليكم.. ستكون العتبة الخضراء كلها عندنا بعد دقائق ببوليسيها وصيانتها وباعتها.. إلى آخره.. إلى آخره.. وسيشهد الجيران وجيران الجيران أمتّ روایة رأوها أو يمكن أن يروها في حياتهم أو حياة هذا الشارع الرزين».

وجاء الشرطة والمسروق المسكين في تاكسي. وكان لابد أن يروا السيارة وأن ينزلوا، وكانت واقفاً إلى جانبها أنتظر هذه التشريف، فقال الرجل: «هذه هي» ومسح العرق المتصبب ودنا منها وهم بأن يفتح بابها فتصديت له وقلت: «عفوا.. هل من خدمة؟ فصاح: «خدمة؟ يا حرامي يا مجرم.. أين أخفيت شريكك؟ المرأة التي كانت معك؟»

فنظرت إلى الشرطي وأنا أبتسّم — فقد كان الموقف يتطلب الهدوء والكياسة، وقلت: «هذه سيارتى يا حضرة الشاويش، فما خطب هذا الرجل؟» فصاح الرجل: «سيارتك يا حرامي يا صفيق الوجه؟» — إنني أسمح لك بأن تتأملها.

فدار حولها ونظر إليها من الأمام ثم من الخلف، ثم وقف أمامي وهو يرعد وينتفض ويقول: «أما مجرم.. بسرعة غيرت أرقامها؟ ولكن هل تظن أن هذا ينفعك؟».

فبدا على وجه الشرطى التردد حينما سمع أن الأرقام مختلفة، وإنذا كان المفجوع في سيارته قد طار عقله، فإن الشرطى لا يوجد ما يدعو إلى ذهاب عقله أيضا، وقلت أنا: «المسألة بسيطة. ومن المعقول أن غير لوح رقم المرور بسرعة، ولكن ليس من المعقول أن غير رقم الشاسيه المحفور على محرك السيارة، فتفضل واذكر هذا الرقم بعد مراجعة رخصتك إذا شئت، ثم ارفع غطاء المحرك وانظر».

ففعل فإذا الرقم مختلف جدا، وشعر بالهزيمة وأدرك أنه تجنى على جدا فبدأ يعتذر.. فسألته: «ولكن كيف يمكن أن تخطئ إلى هذا الحد..؟ هل يعقل ألا تعرف سيارتك؟؟

قال: «إنه لا فرق بينهما على الإطلاق لا من الداخل ولا من الخارج». فقال الشرطى وهو يريد أن يفضن النزاع الذى تهور فيه صاحبنا: «ما دامت السياراتان متشابهتين إلى هذا الحد فإنه معذور». قلت: «وهل كنت تعذرني لو كنت أخطأ مثل خطئه وذهبت أسب الناس وأتهمهم بالسرقة؟

قال: «طبعا.. صحيح إنه تهور في الاتهام قبل التثبت، ولكنه معذور في خطئه في معرفة السيارة».

قلت: «وإذا دللت على سيارتك هل تشكرنى.. أم تستأنف اتهامك لي بالسرقة؟» فعاد إلى الاعتذار، وأكد لي أنه يكون شاكرا جدا. فلم يبق داع للإطالة فرويت له وللشرطى القصة من أولها إلى آخرها كما وقعت، وقلت لهما إننا أبلغنا مركز البوليس أنها وجدنا السيارة الأخرى التى ظنها قربى سيارتنا، وأن البوليس لاشك سيحضر بعد قليل ليتسللها. وبهذا انتهى الحادث..

وقلت لزوجتى وأنا أدخل بعد الفراغ من ذلك: «هل تعرفي الآن أن الذى كان يضحك ويمزح كان هو الحكيم السيد الرأى الصحيح النظر؟» فأثرت المكابرة وقالت إنها مصادفة واتفاق، فشهدت لولو بأنى أحسنت التقدير.. فعادت زوجتى تلوم لأنى كتمت رأىي الحقيقى وتركتها تذهب وتتلف وتدور مع سليم، وأنى آثرت لها التعب ولنفسى الراحة.

فقلت: «ليكون هذا لك درسا ... ألم أقل لك أن تربىتك ناقصة؟» فهاجوا بي وثاروا، ولكن هذا لا يعني القراء لا قليلا ولا كثيرا.

الفصل السابع عشر

ميمى

– أنت أجمل فتاة على ظهر هذه الكرة الأرضية.. وأنا أسعد الرجال وضم إليه زوجته التي لم يمض على بنائه بها أكثر من اثنى عشرة ساعة، فالمبالغة تغتفر له ولا ينبغي أن تسوء أحداً من بنات حواء – كل ما فيك صاغة فنان.. فขาดك من المرمر الناصح – وأمّرّ يده عليهما برفق – وردفاك حساسان ولجلدهما الرقيق اختلاج حسن تمثين كاختلاج الماء صافحة النسيم الوانى.. وثدياك راسخان لينان وأحلى فيما تحس اليد من الكثثري.

وتحنا عليها بسرعة وطبع على غلالة شفتيها قبلة حارة.. فلمعت عينا «ميمى» واتقد وجهها وصار صدرها يعلو ويهدب، ثم قالت: «لأننا تزوجنا منذ سنين يا سليم.. أليس كذلك؟» ولقصت به، ثم قالت: «تحبني يا سليم؟» فرفع رأسه وابتسم ابتسامة عريضة، وقال: «أحبك إنى مجنون بك.. لا أدري ماذا أصنع إذا لم تكوني معى؟» فلمعت عيناهَا وقالت: «من يدري.. ربما شغلت عنى وألهيت عن ذكري...». فلم يدعها تتم الكلام وأهوى على فمها بقبلة.

وكانت «ميمى» مشهورة بقوّة جذبها السريع حتى أيام كانت بنتاً صغيرة. وكان غيرها من البنات أجمل منها شعراً أو أحلى عيناً أو أفنن إبتسامة.. أما ميمى فلم يكن لها ما يمكن أن تقول إنه سر جمالها، وإنما كان المرء يشعر أنها في جملتها أجمل وأسحر. وكانت قوّة الجذب هذه تلفت النظر إليها وهي تلميذة في المدرسة، وكان كل من يراها يشتهي أن ينظر إليها مرة أخرى. ولكنها هي كانت تعتقد أنها ليست على شيء من الجمال، وإن كان اعتقادها هذا لم يُغّرها بالتكلف. وكان الذي وجه خواطيرها في

حدثتها إلى هذه الناحية أنها سمعت أمها تقول لصاحبة لها مرة: «إن ثديي ميمى كبيران جداً» وكان هذا صحيحاً، فلما أقبل الليل وصارت في غرفتها وحدها نظرت إلى صدرها في المرأة وسألت نفسها: «أترى هذا من الدمامنة؟ أهما أكبر مما يجب أن يكونا؟ وألت على نفسها في تلك الليلة أن تهتدى إلى الحقيقة.

ولو أن ميمى لم تسمع أمها تقول ذلك لكان الأرجح أن لا تجري خواطراً لها هذا المجرى، ولظللت على الأقل سنة أخرى لا تطلب أن تهتدى ولا تشთاق إلى هذا الضرب من المعرفة. وكان أول ما عنيت به هو أن تتأمل صدور البنات من أترابها في المدرسة، فألفتهن جميعاً إلا القليلات ذوات أثداء صغيرة نابتة ولم تكن للقليلات أثداء كبيرة، ولكنها كانت تقبل المقارنة بثدييها.

أما المقياس الحقيقي فأتيح لها في يوم خرجت فيه مع لفيف من أهلها بينهم سليم – ابن عمها – إلى القناطر الخيرية فاتفق أن جلست على دكة هناك تحت شجرة على ربوة، فجاء سليم وجلس إلى جانبها.. فقالت لنفسها حين أبصرته يقعد معها إن هذه فرصتها، وشرعت تحاول أن تعرف منه ما تريده. أليس سليم شاباً؟ فهو خليق أن يقول لها ما رأى الرجال في حجم ثدييها. ولكن سليم حبي فهى محتاجة إلى اللف والدوران أو إلى أن تكون معه كالطلمية الماصة لتحمله على القول الذى تنشده، فسألته: «هل تخرج كثيراً مع البنات يا سليم؟»
قال: «إيه؟ أحياناً».

فسألته: «كم بنتاً خرجت معها إلى النزهة؟»
فأطرق وقال وعينه على الأرض: «أوه.. وهل أنا أعرف؟ ربما كان عددهن سبعة أو أكثر...».

فسألته: «كلهن من حيّكم؟»
قال بإيجاز: «تقريباً».

فسألته: «ألا تعرف أحداً من غير الحي الذي أنت فيه؟»
قال: «أعرف.. ولكن ما هي الحكاية؟» قالت: «هل هن جميلات؟ أعني هل قوامهن جميل؟» فقال: «بعضهن» قالت: «هل قوامهن أعدل من قوامي؟»
وكان صوتها وهى تلقى عليه هذا السؤال يخيل إلى السامع أنها ترجو منه أن يكون جوابه «لا» ولكنه خرج من «لا» ومن «نعم» بقوله: «لا أعلم».

ففعلت شيئاً لم تكن تظن أنها تستطيع أن تقدم عليه، ولكنها أقنعت نفسها بأن الأمر كله أمر بحث عن حقيقة واختبار لمبلغ الصدق في قول أمها أن ثدييها كبيران، فقالت له وهي تمنحه فمهما: «قبلنى».

وصارت شفتاه على شفتيها — لا يدري كيف، ولكن هذا هو الذي كان — وأحس حرارة القبلة تسري في بدنها وتوقد النار فيه وتخزه أيضاً. وانتهى الفصل الأول ورجعت ميمي إلى بيتها في تلك الليلة وهي تشعر أن شيئاً حصل تحت الشجرة اللفاء، وأن بابا يفضي إلى أسرار عویصة قد فتح لها.. فتحته قبلة واحدة ليس إلا.. وصارت تشعر بعد ذلك أنها مخلوق جديد وأن حياتها من طراز آخر غير الذي غبر.. وأصبحت تناجي نفسها وتسألاها عما وراء الباب.. وتقول لنفسها إن القبلات حلوة وإنها تحسها معسولة، ولكن أهذا كل شيء؟.. لا.. فإنها تحس حينها إلى ما لا تعرف وما لا يسعها أن تدرك، وأخيراً عرفت بعد أن بلغت العشرين وانتقلت إلى بيت سليم وارتقت بين ذراعيه.

وقالت ميمي وهي بين ذراعي سليم صباح ليلة الجلوة: «لقد ارتفعت الشمس.. صرنا قرب الظهر.. ألا نقوم؟»

فتح سليم عينيه ببطء وقال: من حسن الحظ أن الزواج ليس كله شهر عسل، وإلا متنا.

فزوّت ميمي ما بين عينيها وقالت: «لست أفهم ما تقول.. أليس واجباً أن تظل حياة الزوجين شهر عسل كلها.. أى أن يكون الشهر سرداً؟» فتنهد وقال: «إنه ليس كذلك من حسن الحظ.. أوه مستحيل.. أين من يتحمل ذلك.. أوه.. مستحيل..».

ثم عاد فقال: «لا يحب أملك.. كل شيء يفتر على الأيام.. هذا عزاؤنا جميعاً». فلم تستطع ميمي أن تفهم لماذا لا يبقي شهر العسل دائمًا.. ولم تدر ماذا يعني أن يدوم، ولكنها لم تقل شيئاً ولم يحاول هو أن يفهمها، وشغل كلامها بحياتها الجديدة في البيت وخارجها فensiت أن شهر العسل سيزول كما هددتها سليم أو أنذرها. وكانت بعد أن تفرغ من تغيير ثيابها كل ليلة على أثر عودتهما من السينما أو الرياضة أو نحو ذلك تجلس في حجره وتتحدى ما أمامه من الأوراق وتوسيعه تقبيلاً، ثم تسأله: «ألا تزال تحبني؟»؟ فيقول: «بالطبع.. يا له من سؤال!»

وكان النهار أثقل الأوقات على نفسها لأن زوجها يغيب في عنها، ولم يكن لها في البيت عمل فإن الخدم كثيرون.. الطباخة وبنتان للكنس والمسح وما إلى ذلك. وكان

بيتها شقة في عمارة كبيرة عالية فحدث يوماً أنها كانت تنتظره ليخرج بها إلى السينما، وإذا بالباب تفتحه فألفت سيدة تقول لها: «معدرة إذا كنت أزعجتك.. ولكن خادمتى أضاعت المنفحة، فهل أجد عندكم واحدة؟»

فقالت ميمي: «لا أدرى.. تفضلى حتى أسأل الخادمة».

دخلت السيدة وهي تقول إن شقتها هي التي فوق هذه، فاستغربت ميمي في سرها لماذا لم تذهب إلى أحد من السكان الآخرين المقابلين لها في دورها، وحدثت نفسها أن لعلها فعلت فلم تجد عندهم ما تطلب. وقالت السيدة — كأنما ترد على هذا الذي تحدث به ميمي إلى نفسها: «لقد رأيتك منذ لحظة تخرجين إلى الشرفة في قميصك.. ولا يسعني إلا أن أقول أن قدك مدhen».

فسألتها ميمي: «رأيتني؟ كيف رأيتني وأنت فوق؟»

قالت: «رأيتك من الشرفة الأخرى.. من حسن الحظ أن زوجي ليس في البيت ولم يرك، وإلا لكان من المحقق أن يقذف نفسه عليك».

فدهشت ميمي ولم تقل شيئاً وراحت السيدة تسأليها عن اسمها كله، فقد عرفت بعضه من الباب، وتبهرا باسمها هي تقول إن من الواجب أن تلتقيا كثيراً وأن تتزاوراً، ثم سأليها: «هل زوجك يسافر ويغيب عنك أيام؟» فقالت ميمي: «يسافر؟.. يسافر أين؟.. كلا بالطبع».

فقالت الأخرى: «إن زوجي لا يزال على سفر.. وقد كنت في أول الأمر أقعد في البيت ولا أبرحه يوماً بعد يوم انتظاراً لعودته. وقد ضاق صدرى ولم أعد أطيق ذلك، فلن تجديني في البيت حين يتركنى ويرحل».

فأحسست ميمي أنها تحتاج إلى حماية من هذه الجارة، وألفت نفسها تلف الروب دى شامبر على صدرها وإن كانت مع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها أن تسأى جارتها: «أين تذهبين حين يغيب عنك زوجك؟»

فقالت الجارة بابتسامة وضيئه: «أوه في أى مكان.. الأصدقاء يتتكلفون بذلك».

فصاحت ميمي: «الأصدقاء.. أى أصدقاء؟

فقالت الجارة: «بالطبع يا طفلتى العزيزة.. وأى بأس في ذلك؟»

فقالت ميمي: «ولكن زوجك؟ ألا يسوءه هذا؟ ألا يغضبه أن تخرجى مع رجال؟»

قالت الجارة: «يغضبه؟ وماذا تظننى يصنع وهو مسافر؟ يقضى الوقت في المسجد؟ كلا إنى أعرف ما يصنع».

وصارت هذه الجارة معلمة لمى. وكرت الأيام فأصبحت لا تبالي تقصير سليم معها، ولا تحفل ما تراه من فتوره حين يعود إلى البيت متعباً. وتكررت زيارات الأتراپ لها فجأة بفضل الجارة الحاذقة التي أدركت أن ميمى غريبة لا عهد لها بهذا الضرب من حياة المرح، وما لنا لا نقول حياة الاستخفاف.. فبدأت معها بتبادل الزيارة ثم صارت تزورها ومعها أتراپ لها، فتحتاج أن ترد الزيارات وتخرج إليهن، وارتقت من ذلك إلى دعوتها إلى التنزه والخلوات، ولم تكن الجارة تعدم سيارة تستعيرها بسائقها من بعض من تعرف من الرجال، وكانت تحرض في هذه الرحلات الأولى على أن تكون قاصرة عليهن، ثم صار يتفق أن يلتقين في هذه الرحلات إلى الأهرام أو الماظة أو غيرهما ببعض «أقارب» الجارة، فيحصل التعريف الذي تقضي به الآداب، وهكذا إلى أن ألفت ميمى أن تكون مع الرجال كما ألفت أن تخرج مع النساء. وكان الزوج غافلاً عن ذلك في أول الأمر. وكانت ميمى إذا آن أن يناماً تدنو منه وتلتصق به فيتثاءب ويعرض عنها. وكان ربما زجرها عن ذلك وقال لها بعنف إنه يحتاج إلى النوم، وكانت هي في أول الأمر يشق عليها إعراضه وتحس بحزنة في نفسها فتبكي، فلما تواثقت الصلات بينها وبين الجارة لم تعد تبالي هذا الفتور. وظن سليم في بادئ الأمر أن زوجته «هداها الله» حتى كانت ليلة فأقبل عليها يريد أن يقبلها وفتح لها ذراعيه ليضمها، فلم تحرك ساكناً ولم ييد عليها أنها راغبة في ذلك فعجب وسألها: «مالك؟» قالت: «لا شيء.. ما لك أنت؟» قال: «ألا تقبليني؟»

فمطت شفتها وهزت كتفيها وقالت: «إنك تحتاج إلى النوم وأنا لا أريد أن أقبل أحداً.»

فلم يفهم وألح عليها بالكلام، فبدرت منها كلمة فهم منها أنها لا تباليه، فنظر إليها مدققاً في وجهها وقال: «مع من تخرجين؟ من هؤلاء الأصدقاء أو الصديقات اللواتي ظهرن فجأة؟»

قالت: «لم تعد الحقيقة.. أصدقاء وصديقات.. ومن الجنسين.. ولكنك تكون نذلاً إذا أساءت الظن.. ولا أكون أنا بنت أبي وأمي إذا احتملت منك ذلك..»

فذهل - وإن كان عنفها قد طمانه - وقال: «ولكن.. ماذا جرى لك؟» قالت: «لم يجر لي شيء.. إلى الآن.. لا أزال ميمى التي تعرفها وإن كنت قد تعلمت أشياء كثيرة، ولكنه سيجري لي على التحقيق أشياء كثيرة إذا بقيت تهملني.. ثق أني تعلمت ولكن لم أعمل بما تعلمت إلى الآن.. سأعمل حتماً.. فهل ترضيك هذه الصراحة؟»

فقال: «لقد كنت طول عمرك جريئة».

وانحظر على كرسي، فقالت: «جريئة أو غير جريئة.. سيان.. المهم أنك دفعتي إلى التعلم.. وأخشى أن تدفعني إلى ما هو شر.. وقد أذرتك.. وأنت ورأيك.. ولكن لا تلمنى حينئذ».

فأطرق يفكر وطال تفكيره وأحس أنه واقف على حرف هاوية، وكان قلبه يخنق بشدة وعنف غير أنه كان يبدو للتأمل هادئاً ساكناً، وجرى بخاطره أن ميمى على حق، وراجع نفسه وهو قاعد ورأسه مثنى على صدره وعينه على الأرض، وتذكر أن ميمى كانت أبداً جريئة مجازفة.. ألم تدعه إلى تقبيلها مرة؟ ولكن كيف عرفت هؤلاء الناس.. من الرجال والنساء على السواء.. ولم يرتب قط في صدقها، ولم يخالجه أدنى شك في أن الأمر اقتصر على اللقاء والتزه، وأنه لم يقع بينها وبين أحد من هؤلاء الرجال ما لا يحمد فإن ميمى صريحة لا تهاب شيئاً ولا تخش أحداً. ولكن كيف عرفتهم.. وقال لنفسه إنها عرفتهم لأنها أهملت أن يكون معها وأنه كان يتركها وحدها ويقضى سهراته مع الإخوان وفي ظنه أنها ستقنع برقة الخدم. هذا هو يستنكر كيف عرفت هؤلاء.. والمهم الآن هو إنقاذهما من الهاوية وإنقاد نفسه معها. ونهض ومشى إليها وهو يمد يده ويتناول كفها: «سامحيني يا ميمى.. لن أهملك بعد اليوم».

فرفعت رأسها وحدقت في عينيه، وقالت: «صحيح..؟ لا تتركني وحدى؟»؟

فقال وهو يميل عليها ويدنى فمه من فمه: «كيف يمكن..؟ وأنت هل رجعت إلى..؟ هل أرجو أن أراك كما كان؟»

وفي هذه اللحظة دق التليفون فمدت يدها وتناولت السماعة، وقالت: «اللو.. نعم..؟ زكيه؟ معك من..؟ حمدى..؟ آسفة.. يا زكية مشغولة.. نعم.. معى صديق قديم عاد إلى.. تريدين أن تعرفي من يكون.. اسمعى إنه أحب الناس إلى.. لا أستطيع أن أعرف أحداً ما بقى هذا الصديق لي.. من هو..؟ سليم.. ألا تعرفين سليم.. لم تسمعي به قط.. معذرة.. زوجي يا بلهاه.. معذرة.. لا.. لا أمل في لقاء أحد بعد اليوم.. كل.. لا تتبعى نفسك لا أنت ولا غيرك.. أعني هذا.. تماماً.. مع السلامة».

والتفتت إلى زوجها وقالت: «فهمت أنى لا أريد منها ولا من غيرها زيارة فغضبت». فلم يقل سليم شيئاً بل انحنى عليها وحملها بين يديه ومضى بها إلى الأريكة الواسعة وهى متعلقة به تضحك له وتقبله راضية.

الفصل الثامن عشر

ليلي

وقفت ليلي أمام المرأة تصلاح شعرها، وتضع فيه المشابك وتسويفه براحتها وأناملها، وتثنى شعرات منه هنا وترد أخرى إلى مكانها هناك، ثم تناولت المثبنة وفتحتها ونظرت فيها هنيهة ثم قلبتها على المنضدة ونفضتها بأطراف أصابعها، ثم نحّتها وراحت تتأمل ما أفرغته منها. ثم هزت رأسها آسفة، وشرعت ترد الأشياء إلى الحقيقة: المشط والمنديل وثلاثة طوابع بريد بثلاثة ملايين.. لا شيء غير ذلك.. حتى ولا أجراة الترام إلى عملها الجديد الذي فازت به. وما غناء ثلاثة من طوابع البريد بثلاثة ملايين.. لو كانت عشرة لباعتها وركبت، إن المسافة طويلة من حدائق القبة إلى شارع سليمان باشا. ولو كانت عشرين لباعتها أيضاً - لتركب - فإن المشي يسهل أن يتحمل إذا كان معها قرش تأكل به. كلا.. لابد أن تصبر على الجوع، وأن تتجدد وتحتمل المشي مع الطوى، وما بقى سوى يومين ثم تقبض أجراها عن هذا الأسبوع الأول. ولكن هل تستطيع أن تحتمل الجوع وتعب العمل والمشي يومين كاملين؟ وأبىت أن تفك في هذا وأن تدعه يشط همتها وقالت لنفسها إن حسبها أنها وفقت إلى عمل، وأنه في وسعها أن تظل حية إلى اليوم. وهبّت على كرسي وهي تقول «آخ» لا من التعب بل مما ستقلي في يوميها هذين. ومر أيام عينيها كشريط السينما ما كان من أمرها إلى الساعة، فقد تخرجت في المدرسة الستينية ولكنها لم تشتعل بالتدريس.. فقد أحبت فتى رشيقاً أغراها بنفسه ووعدها بالزواج وكرر الوعد وأكده وأقسم على الحفاظ - وما أسهل بذلك هذه الوعود على الشبان - حتى فاز منها بما يبغى. وألحت عليه تطلب منه الوفاء. وتوسلت إليه، وبكت وقبّلت يديه ورجليه. ولم يكن هو ينوي الوفاء، ولا كان هذا في وسعه.. فما كان سوى عامل في مصنع، وإن كان مظهره يوهم أنه من الوجهاء. ولم يكن يدرك ما تورط وورطها فيه - وماذا عسى أن يخشى مثله؟ ولكنها هي كانت لا يخفى عليها ما هي صائرة إليه

من الفضيحة لا محالة إذا لم تعجل بالتدبير المنذر. وليتها أطلعت أمها على ما كان من أمرها مع هذا الفتى.. ولكن ما جدوى «ليت» بعد ثلاث سنوات قضت فيها الحسرة على الأم المسكينة ولم ترقق قلب أبيها الغليظ؟ وكانت ليلي تخشى ضعف أمها وقوه أبيها فلم تجد أمامها الا فتاتها تلقى بنفسها عند قدميه باكية متسللة، وهو يرى تضعفها هذا فيتجبر ويغطّر ويتحكم ويدعوها أن تفر معه. وتتردد وتحجم عن هذه الخطوة الخامسة التي لا رجعة بعدها إلى أهلها، فإن أبيها عنيد يؤثر أن يقتلها على أن يقبلاها في بيته. بل هو لا محالة قاتلها إذا عرف الحقيقة، وإذا أطاعت فتاتها وفرت. وسيعرف الحقيقة إذا بقيت فالفار أنجي. وقد لا يكون أشرف، ولكنه سبيل الحياة إذا شاءت أن تبقى حية. وقد كان ... فرت مع هذا الفتى وحملت معها في حقيبة الثياب حليها وشيئاً من حل أمها أيضاً، وقد نفعها ذاك فما أقمت مع الفتى إلا أياماً في فندق زرى، وكان ظنها أنها ذاهبة إلى بيته، وأنها ستكون زوجة له، فيكون مما يرجى، أن تغتفر زلتها على جسامتها. فإذا بالفتى لا يريد إلا أن يقضى أياماً في متعة خالصة ثم يلقى بها عظمة بعد أن أكلها لحما. فكادت تجن ... واغتنمت فرصة خروجه من الفندق يوماً، فحملت حقيبتها وأدت حساب الفندق، وانطلقت على غير هدى. وصارت المسألة «أين تذهب؟»؟ بيت أبيها لا سبيل إليه، وأترابها في المدرسة ... كلا، هذا أيضاً ممتنع. وتذكرت وهي واقفة في محطة للtram صديقة لها كانت من جيرانها في زمن الحداثة، وهي الآن «حكيمة» في قصر العيني. ولكن الحكيمات في هذا المستشفى يبيّن فيه ولا يخرجن إلا أياماً معلومة، فما العمل؟.. ولم يطل ترددها فذهبت إلى العيادة الخارجية، وسألت تلميذة لقيتها فيها عن صاحبتها، واتفق أنها كانت تعرفها فدلتها عليها وأنبأتها أنها تعمل في قسم الرمد، وكتبت إليها ورقة بعثت بها مع خادم أو «تمورجي» كما يسمى فدعتها الحكيمه إليها.. وكانت هذه المقابلة بداية الفرج.

أقامت ليلي بعد ذلك مع أهل الحكيمه، وكانت تلتقيان يوم الأحد ويوم الخميس والجمعة إلى المساء – كل أسبوعين مرة – وكانت ليلي ربما اشتاقت إلى صديقتها في أيام عملها بالمستشفى فتذهب في الظهر أو في الساعة التاسعة لترها وهي خارجة من المستشفى في طريقها إلى «الهوستل» حيث الطعام والنوم، فتحدثها دقائق ثم تكر راجعة إلى البيت. وكانت المسألة التي تشغّل البنتين هي كيف ينبغي أن تحيا ليلي. فقد كان مفهوماً أن إقامتها في بيت صاحبتها ليست سرداً، وإن كانت تنفق على نفسها من ثمن ما تبيعه من الحل.. فإن لهذا آخرًا على كل حال. وكان مما فكرا فيه أن تعمل

في عيادة أحد الأطباء، ولكن ليلي أشفقت أن تلتقي عنده بأحد من أهله أو معارفها. وخطر لها أن تعمل في مصلحة التليفون ولكن السعي أخفق ولم تجد وساطات الأطباء الذين استعانت بهم «الحكيمة» فقد تحول التليفون وانقلب. «أوتوماتيكا» فما الحاجة إلى بنات جديداً؟ وخشي她 أن تشتعل بالتعليم في مدرسة أهلية فيهتدى إليها أبوها، وكان خوفها من ذلك عظيماً. وأخيراً اقترح عليها طبيب أن تتدرب على الآلة الكاتبة، ففعلت وأنقذت ذلك حتى صارت تكتب ثمانين كلمة في الدقيقة، وأعانها الطبيب وألحقها بمكتب يتقى طلبات «النسخ» ولكن العمل كان قليلاً لأن أكثر ما كان يطلب كان باللغتين الفرنسية والإنجليزية. وكانت تعرف الإنجليزية فقد تعلمتها في المدرسة، فلم يسعها إلا أن تتدرب على كتابتها على آلة، وسهل عليها بعد ذلك أن تستطيع «نسخ» الفرنسية أيضاً، فإن الحروف واحدة وإن كان جهالها بهذه اللغة قد جعلها أبطأ. غير أن السرعة يمكن أن تجيء مع الوقت.

واستغنت على الأيام عن المقام في بيت صديقتها، وإن كانت صلتها بها قد بقيت وثيقة فإن فضلها عليها كبير، وجميل صنعها معها ليس مما يجده ولا مما ينسى، حتى لو نزعـت نفسها إلى الكفران. وأفلس المكتب فانتقلت إلى سواه بعد عناء، على الرغم من أنها أصبحت معروفة في هذا المحيط.. محـيط الكاتبات النـاسـاخـات. وكانت حـلـيـهـاـ قد ذـهـبـتـ جـمـيـعـاـ فيـ نـفـقـاتـ الـحـيـاـةـ وأـجـوـرـ الـتـعـلـيمـ وـسـدـ النـقـصـ.

وها هي ذى الآن قد التحقت بمكتب جديد، بعد أن ظلت عاطلة شهرين أكلـتـ البطـالـةـ فيـ خـلـالـهـماـ القـلـيلـ الذـىـ كانـ مدـخـراـ.

ونهضـتـ عنـ الكرـسيـ وهـىـ تـنـنـهـ، وـتـنـاوـلـتـ حـقـيـبـتهاـ لـتـخـرـجـ إـلـىـ عـمـلـهـاـ. وـكـانـتـ السـاعـةـ السـابـعـةـ.. فـأـمـامـهـاـ سـاعـةـ كـامـلـةـ لـمـشـىـ إـلـىـ المـكـتبـ، وـقـدـ عـرـفـتـ بـالـجـرـبـةـ أـنـ السـاعـةـ فـوـقـ الـكـفـاـيـةـ، وـلـكـنـ فـسـحةـ الـوقـتـ خـيرـ مـنـ ضـيقـهـ. وـمـضـتـ إـلـىـ بـابـهـ لـتـفـتـحـهـ وـتـخـرـجـ، إـلـاـ بـقـرـعـ خـفـيفـ عـلـيـهـ.. فـقـالـتـ: «ـتـفـضـلـ»، فـدـخـلـ رـجـلـ بـدـيـنـ وـسـلـمـ وـقـالـ:

«ـأـرـاكـ خـارـجـةـ» فـقـالـتـ: «ـنـعـمـ» وـهـمـتـ أـنـ تـقـولـ أـنـهـاـ مـضـطـرـةـ إـلـىـ التـبـكـيرـ، وـلـكـنـهاـ كـبـحـتـ نـفـسـهـاـ فـمـاـ يـعـنـيـهـ هـذـاـ، فـقـالـ: «ـأـجـرـةـ الـغـرـفـةـ عـنـ ثـلـاثـةـ أـسـابـيـعـ.. أـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـعـطـيـنـيـ مـنـهـاـ شـيـئـاـ عـلـىـ الـحـسـابـ؟ـ»

فـقـالـتـ: «ـآـسـفـةـ.. وـإـنـىـ لـشـاكـرـةـ لـكـ هـذـاـ الصـبـرـ كـلـهـ.. وـالـعـطـفـ أـيـضاـ.. وـبـعـدـ يـوـمـيـنـ.. أـقـبـشـ أـجـرـةـ الـأـسـبـوـعـ فـأـعـطـيـكـ شـيـئـاـ».

قال: «إنك تحرجـينـيـ معـ زـوـجـتـيـ.. هـذـاـ الصـبـرـ الطـوـيلـ لـيـسـ لـهـ عـنـدـهـاـ إـلـاـ معـنـىـ واحدـ. وـقـدـ أـنـذـرـتـنـيـ الـيـوـمـ.. وـعـبـثـاـ أـحـاـوـلـ أـنـ فـهـمـهـاـ الـحـقـيـقـةـ.. لـاـ تـرـيدـ أـنـ تـفـهـمـ.. كـلـ ما

تعرفه أن الأجرة تأخرت ثلاثة أسابيع. وكل ما تريده هو أن تؤدي إليها هذه الأجرة أو تخرجي اليوم».

قالت: «ألا يمكن أن تمஹلوني يومين اثنين.. أين أذهب إذا خرجت اليوم.. ليس لي مكان آخر». فهز الرجل كتفيه الغليظتين، ولم يقل شيئاً.

فبدت منه ليل، وقالت: «أرجو أن تمهلني.. كن شفيعي عندها».

فقال: «لو كان الأمر إلى لما تقاضيتك شيئاً قط.. ولكنك تعرفين زوجتي.. ولست أعرف لـ حيلة».

قالت: «ولكن كيف أستطيع أن أعطيك اليوم شيئاً؟ لا أعرف أحداً أقرض منه. ولا يمكن أخذ شيء من المكتب إنني جديدة فيه».

فقال: «اسمعي، لو لم تكوني بلهاء لأمكن تذليل كل هذه المصاعب، ولكن لم أر فتاة مثلك».

فقالت: «ماذا تعنى؟ كيف يمكن تذليل الصعاب؟

فأراح كفيه الغليظتين على كتفيها، وقال: «أنا أستطيع أن أدبر الأمر إذا طاوعتنى».

فهزت رأسها غير فاهمة، فقال: «تعالى».

وطوقها بذراعيه، وأدنى شفتيه المطوطتين من فمها.. فحاولت أن تنأى عنه، ولكنه جذبها إليه بقوة، فحولت وجهها عنه، فذهبت تعبثان في نحرها وكتفها، وكانت يده اليسرى تتحسس صدرها وتوقف وتتکور على ثديها الراسخ، فقاد عقلها يطير وتفلت من عناقه بعنف، وارتدت راجعة إلى آخر الغرفة، وهى تلهث وتنهج، لأنما كانت تجرى وصدرها يعلو يهبط كالملوچ من جهد المقاومة ومن الغضب أيضاً، وكان هو ينظر إليها نظر النعمة والغيط فصاحت به وهى ترتجف: «إذا لم تخرج من هنا فسأصرخ».

فزان وهز رأسه، وقال وهو يدور ليخرج: «طيب.. سترى.. أما أن تدفعى اليوم، وإلا فاخرجى أنت».

فلم تقل شيئاً.. وماذا عسى أن تقول؟

- بونجور.

- بونجور ... خذى هذا العنوان واذهبى إليه حالاً ... عمل مستعجل ... الرمنجتون ذهب بها أحمد ... العمل يستغرق يومين ... ثلاثة ... المهم الاتقان ... يجب أن يكون راضياً.. فاهمة؟

فذهبت ولم تسأله أهو عربي أم فرنجي.. وماذا يهم.. كله عمل.. آلى. ودخلت الشقة فإذا هي بيت لا مكتب، وقالت للخادم النبوبي: «إني من محل...». فاكتفى بأن يشير إلى غرفة المكتب، فجلست على كرسى من الجلد كبير وثير.. وأدارت عينها في الغرفة، فلم تر فيها أثاثاً غير كرسى آخر كالذى جلست عليه. وحول الجدران رفوف كثيرة عليها كتب لا تحصى، وفي الركن مكتب أنيق، وفي وسط الغرفة منضدة صغيرة مما يستعمل للشاي وضعت عليها «الرمنجتون» فتوقعت أن ترى رجلاً عالى السن، وأدهشها أن يدخل عليها شاب يناظر الثلاثين، وأن تعلم أن هذا هو الذى جاءت لتعمل له ولتنسخ ما يشاء.

وقال برقة لا تكلف بها: «قهوة؟
قالت: «أشكرك.. فيما بعد.. بماذا تأمر؟..».

فقال — وهو يتناولها ملفاً ضخماً: «في كم يوم يمكن الفراغ من نسخ هذا كله؟»؟ فقلبت الأوراق ونظرت في الخط والسطور، ثم رفعت رأسها إليه وقالت: «صعب أن أقول كم يستغرق.. ولكن.. بعد ورقة أو اثنتين أستطيع أحكم حكماً قريباً من الصحة».

فهز رأسه وهو يبتسم وتحول عنها، ثم خطر له خاطر، فدار على عقبيه بسرعة وسألها: «يهودية؟

فابتسمت وقالت وهي تهز كتفيها: «لأنى شقراء؟
قال: «إذن أنت..».

فأراحته من عناء التخمين، وقالت: «مسلم».

قال وهو يهز رأسه بعنف: «أنا أيضاً مسلم».

فلم تقل شيئاً واجتزأت بالابتسام وشرعت ترفع غطاء الرمنجتون، وتركها هو وزهب فجلس على الكرسى الآخر، ثم رأها تتلفت في الغرفة، فنهض وهز رأسه مستفسراً، فنهضت هي أيضاً وقالت: «لا تتعب نفسك.. أظن أن في وسعي أن أجد كرسياً من الخيزران في...».

قال وهو يعود إلى الباب: «بالطبع.. أما أنا لمغفل..».
وعاد بالكرسى وهو يقول ضاحكاً: «لكانما كنت أظن أنك ستجاسين القرفصاء وتكتبين على حجرك.. لم تشهدى ذلك العهد بالطبع.. لا يمكن فإنك ما زلت صغيرة.. أوه جداً.. ولكن أين تعلمت الكتابة على هذه الآلة؟.. معذرة إذا كنت أطفال، ولكن المcriات يندر.. جداً أن تعنى واحدة منهن بذلك».

قالت: «أضطررت أن أتعلم.. صنعة في اليدأمان من الفقر...». وابتسمت، فقال:
«أهو ذاك؟ معدنة، كان سؤال فضولاً مني لا يغفر... سامحيني».
فسرها منه هذا الأدب، وقالت: «ليس هذا سرا.. ألسنت أعمل؟ لست هاوية بالطبع».
قال: «إذا كنت تعملين في مكتب.. فإنك ولا شك تعرفيون لغة أجنبية أو اثنين..
فـ... فـ...».

قالت: «أعرف الانجليزية.. وأصبحت أعرف من الفرنسية ما يكفي للنسخ..
وأتكلمها أيضاً، فإننا جميعاً نتكلمها هناك».
قال: «أوه لست أريد أن أفتح لك محضر تحقيق.. معدنة مرة أخرى». ورفع يده
إلى جبينه العريض ومسحه، وقال: «هذه أول مرة أرى فيها مسلمة تشتعل بالنسخ –
وضحك – أرانا نتقدم.. أليس كذلك؟»

وكانت قد شرعت تدق على الآلة الكاتبة، فاكتفت بالابتسام..
وتركتها هو بعد ذلك وخرج بعد أن قال لها أأن في وسعها أن تطلب ما تشاء من
الخادم.. أى شيء.. قهوة.. شاي.. أكل.. كل ما في البيت تحت أمرها..
ولكنها لم تطلب من الخادم شيئاً، ولم تقلق راحته بل أقبلت على الآلة تدق وتدق
بسرعة ثمانين كلمة في الدقيقة، وترجع له من كل ورقة نسختين. واستغرقها العمل،
ووجدت فيه متعة لا عهد لها بها في مثله.. فقد كانت هذه رواية تنقلها – استعداداً
لطبعها ولا شك – وكانت الصور التي يرسمها المؤلف – هذا الشاب الوسيم المؤدب
– تتجسد لها، والواقف تمثل وهي تدق وتدق بسرعة ثمانين كلمة في الدقيقة. وكانت
نفسها تجيش بممثل العواطف الموصوفة والإحساسات المصورة، فتضحك تارة، وتخنقها
العبارة تارة أخرى، وتعبس حيناً. وترى نفسها تنطق الألفاظ التي تدقها بقوة وعنف
كأنها تمثل ما تقرأ أو كأنما كان الأمر حقيقة لا خيالاً. وكانت بعد ورقة تلقي في
السلة على المكتب، وهي ذاهلة عن كل شيء. فما قامت مرة، ولا تمطرت لتريح أعضاءها
المكدودة وتحرك أصابعها التي كادت تتشنج وتتصلب أو تتخشب، ولا شعرت بظماء
أو جوع، ولا كان لها بال إلا إلى هذه الرواية التي تقرأها وهي تنسخها. ولقد كانت
مشغولة أيام المدرسة بالروايات والقصص، ولكنها منذ ثلاث سنوات لم تقرأ رواية،
وإن كانت قد ذهبت مراراً إلى السينما – وهي مطمئنة – فإن أيها من أللأعداء
السينما. ومع ذلك كانت تتحرز وتلقي على وجهها نقاباً خفيفاً شفافاً، حتى حين تمشي
في الطريق كانت تتنقب زاعمة أن هذا وقاية من الشمس والترباب.

ولم تشعر بعد الحميد — فقد كان هذا اسمه — حين دخل عليها، ووقف ينظر إليها أكثر من دققتين. فلما رأها لا تنظر إليه ولا ترفع عينها إليه عن الورق ولا تتمهل أو تتباطأ في العمل، قال: «معذرة.. إن هذا انتشار».

فرفعت رأسها حينئذ، وقالت: «أوه.. لم أرك لما جئت.. كلا.. إنني على العكس مسرورة.. وأعترف لك بأن هذه أول مرة سرني فيها عمل... رواية مدهشة».

فقال وهو ينحى كفيها عن الرمنجتون: «قد تكون الرواية مدهشة.. ولكن أبعث على الدهشة أن لا يحتاج الإنسان إلى راحة.. تفضلي وقومي، أريحي جسمك قليلاً على هذا الكرسي» وتناول ذراعها لينهضها، فقالت وهي تقوم: «صدمت.. أستريح دقيقة».

فقال وهو يمضي بها إلى الكرسي: «تستريحين تماماً».

فقالت، وهي تجلس على الكرسي: «ولكنني أريد أن أعرف بقية الرواية».

فقال: «اضطجع أولاً.. أنا أقص عليك البقية.. الخصها لك في الفاظ قليلة».

قالت: «كلا، هذا يفسدنا... إنني أريد أن أقرأها».

قال: «إذن أقرأها لك». قالت: «تعب.. دعني أقرأها أنا وأنا أستريح». قال: «بعد الغداء.. الوقت طويل».

فقالت: «الغداء؟.. كلا.. اسمح لي أن أخرج وأعود في الساعة الثالثة كالعادة».

قال: «ولم لا تبقين وتتعدين هنا؟.. قولي إلك باقية».

قالت: «لا أستطيع.. سأعود بالطبع بعد الظهر».

وكانت تعلم أنها مفلسة، وأنها لا تستطيع أن تذهب إلى بيتها — حيث ذلك الرجل الخشن الفظيع — ولهه ليس فيه، فما تصنع هناك؟ وإذا لم تذهب إلى البيت فain يمكن أن تذهب؟ هذا شاب يعرض عليها أن يطعمها وأن يريحها من الآنياب التي تمزق أحشاءها ويعفيها من الشعور الثقيل بالقرص والغض في جوفها، فلم لا تطير وتقعد وتأكل؟ وأحسست وهي تدبر هذا في نفسها بالدموع تترقرق في مآقيها أمامها.. فقرضت أسنانها وشدت أعصابها ونهضت متحاملة على نفسها. فقال: «إلى أين؟.. لا يمكن أن تخرجى.. عيب.. لا يليق».

فقالت بضعف، فما بقيت في بدنها ذرة من القوة بعد أن أنفقت البقية في المكابرة: «أرجو..» ولم تزد، فقد هوت كالجثة أو كأنها ثوب فارغ.

ولم يكن هذا مما يجري لصاحبنا في حساب، فلم يتبه إلى ما حدث إلا بعد أن ارتمت على الأرض.. بعضها على الكرسي، وسائلها على السجاد. فانحنى عليها وحملها

وأراحها على الكرسي، وخرج يعود ويصيح: «محمد. محمد. تعال حالا..» ولم ينتظره بل ذهب إلى غرفة النوم، وجاء منها بزجاجة من الكولونيا رش منها على وجهها الأصفر، وأقبل على راحتها يدلكهما وخلع حذاءيها وجوبيها، وراح يدلك قدميها أيضا بالكولونيا ومحمد واقف ينظر وينتظر الأوامر التي لا تصدر ولا يصنع شيئا.

بعد لأى ما، بدأ الدم يعود إلى وجهها المتقطع.. فتنفس عبد الحميد الصعداء واطمأن. وفتحت ليلى عينيها وأجالتهما فيما حولها بفتور، ثم تنهدت ووسعتها أن تتكلم. فقالت: «لم يحدث لي هذا أبدا..».

فقال بشيء من العنف: «كان جميلا جداً أن يحدث لك هذا في الشارع.. هه..». فابتسمت، وقالت: «أشكرك، إنني آسفة ... هذه أول مرة». فقال: «محمد. خذ هذه الزجاجة وضعها في مكانها.. والآن لا يسعني - وقد خرج محمد - إلا أن أوجه إليك سؤالاً ثقيلاً ... بارداً في الحقيقة ... ولكنه واجب ... متى أكلت آخر مرة؟ احذري أن تكوني».

قالت: «لا داعي للكذب.. أمس، الظهر».

قال: «لقد ظننت ذلك..». قالت: «كيف عرفت؟».

قال: «أوه المسألة في غاية البساطة.. ليست المسألة فراسة، ولكنها مسألة ضم قرينة إلى قرينة.. مررت بمكتب.. واستدرجت صاحبه إلى الكلام عنك، فقال إنك معروفة في مكاتب النسخ وإن كنت من الجديdas عندك.. هذا يومك الخامس في مكتبه، وأثنى عليك وطمأنني كأنما كنت أحتج إلى ذلك، فلما أغمي عليك الآن أدركت أن هذا من التعب والجوع ... ألا ترين أنني أصلح للقيام بدور سنكلر أو شرلوك هلمز؟»

فضحكت وقالت: «لماذا سألت عنى؟»

قال: «قبل أن أجيبك، يجب أن تنتظري قليلاً حتى أعود إليك».

وخرج وتركها، فراحت تفكّر مسرورة في هذا الشاب. نعم هو شاب، وإن كان الأرجح أنهجاوز الثلاثين. وفي رقته ودعته، وفي مروءة نفسه وحسن أدبه، وفي براعته في فن الرواية، براعة جعلتها تعمل كما لم تعمل قط في حياتها، وفي وسامته، وفي هذا السحر الذي ينطلق من عينيه فينفذ إلى القلب، ثم تنهدت آسفة.. سحر أو لا سحر... سيان، لا شك أنه يعجب بها، هذا واضح. ولكن ما قيمة هذا الإعجاب؟ وهب أحبها مما أملها معه إلا أمل الخليفة، وهيئات أن ترضى ذلك. ولو كانت ترضي ذلك، لما فاتها ما فاتها من الفرص، ولا كانت خسرت ما خسرت من الأعمال، فما كان أكثر أصحاب

الأعمال الذين طمعوا في هذا النوع من العلاقة، فلما خيبت أملهم ألقوا بها في الشارع، وحسبها زلة واحدة في حياتها أورثتها هذا الشقاء الطويل. واختصرت زفراة طويلة، فقد دخل في هذه اللحظة محمد وأمامه سيده.. الخادم يحمل سلطانية متوسطة فيها مرق، والسيد يحمل فوطة، وقال السيد: «اشربى هذا حالاً».

وطرح الفوطة على حجرها ففعلت كما أمر، وقال: «هذا يكفى الآن.. بعد طول الطوى، يحسن التخفيف حتى لا تتعب المعدة».

فقالت وهي تضحك: «لا تبالغ، إنه يوم واحد ليس إلا».

قال: «هذه الشجاعة التي تظهرينها تسرني وتعليق في عيني، ولكنها تكلّف على كل حال».

فقالت مستغربة: «تكلّف ... أبداً».

قال: «إن الذي أعنيه هو أن الشجاعة لا تكون إلا تكالفاً شئ يحمل الإنسان نفسه عليه، هذا ما أعني».

فسألت: «ولكنى لست فاهمة».

قال: «نؤجل الدرس إلى وقت آخر. ونتحدث الآن عنك.. قولي ما اسمك». فقالت: «فريدة». قال: «ينطقونها في المكتب «فريدا».. ما علينا.. هل هذا اسمك الحقيقي؟»؟

قالت: «ولماذا تظن أنه ليس اسمى؟» قال: «ما رأيت من شجاعتك يحملنى على هذا الظن.. أنت بنت ناس».

قالت: «كل الناس أبناء ناس». فضحتك، فقال: «أعني ألك تشعرين بكرامة تحرصين عليها».

قالت: «هل أنا الوحيدة التي تفعل ذلك؟» قال: «أعترف أني انهزمت ... عندي كلام كثير ... حجج ... ولكنى أوثر الهزيمة ... فما قولك أن نكون صريحين؟»؟ فضحتك.. ولم يكن ضحكتها مسروراً، بل عن شعور بالضعف وبالاضطراب الذى أدركك أنه سيدفعها إلى الاعتراف بكل ما فى نفسها، فقال: «قولى لي اسمك الحقيقي.. سأحتفظ به».

فأقررت من حيث تريده المكابرة، وقالت: «ولكن ما الفرق بين اسم واسم..؟ كله اسم».

قال: «ها.. لقد صح ظني، والآن اسمك الحقيقي. لقد وعدتك بكتمانه فهل تستطيعين أن تثقين بي؟» قالت: «نعم، ليلى» قال: «ليلى، ليلى مازا». قالت: «ألا تعفيني؟ لست أشعر أنني أستطيع المقاومة إذا ألححت أرحم ضعفني».

فقال: «بالطبع ... معذرة ... لست أريد أن أستغل ضعفك ... كلا، اغفرى لي فضولى، فإنه ليس عن خسفة بل عن».

وأنمسك متربدا، فقالت وقد رأت ترددك وأدركت بغرائزتها الذكية دلالته: «عن».

فقال: «عن حب ... لقد قلتها ... قولي عنى مغفل. ما شئت قوليه.. ولكنها الحقيقة، وقد استرحت الآن، رفعت عن صدري حجرا.. تنفست.. عجيب ولا شك.. هي دقائق رأيتكم فيها.. ولكن مع ذلك أحبيبتك كأنى عرفتك من قبل أن أُخلق، كأنما كنا معا في عالم آخر قبل هذا. ولست أقول هذا لأخدعك. وإنى لأعلم أن الرجل يستطيع أن يخدع المرأة بتمثيل دور العاشق، ولكننى لا أحاول خداعك ولا مطمع لى فيك، كل ما أعرفه أنى أحبيبتك، قد يكون هذا شعورا وقتيا يفتر بعد قليل أو كثير، وأى حب لا يفتر؟ على كل حال لا أعلم، أعرف فقط أنى أنا فوجئت بهذا الحب الذى غمر نفسي وشاع فيها علوا وسفلا ... انظرى إليه كيف شئت ... باستخفاف إذا أردت أو لم يسعك غير ذلك. ولكن صدقينى، فإنى أحتمل الاستخفاف، ولكننى لا أستطيع أن أحتمل التكذيب. كلا»!!

فقالت ببساطة: «إنى أصدقك» فصاح بها: «إيه؟» قالت: «ألم تسمع؟ هات أذنك وأنا أصبح لك فيها ... صدقتك ... هل سمعت الآن؟ لا لا لا ... صدقتك معناها صدقتك فقط...».

وعرف اسمها الكامل اسم أبيها أيضا، فقال وهو يمسح جبينه: «انظرى ... أليس والدك هو الذى كان ضابطا في الجيش؟»

قالت: «هو بعينه» قال: «وكان يسكن في شارع ...».

قالت: «هذا هو البيت الذى ولدت فيه».

قال: «غريب.. لقد كان أبي رحمه الله صديقا جدا لأبيك. ولداهما يلتقيان الآن.. غريب. ماذا حملك على ترك أبيك؟ أسمع أنه كان عنيفا». قالت: «لأنى خفت عنه ... اسمع ... سأقص عليك حكاياتى كلها ... لم يبق بد من هذا. وأحببنى بعد ذلك إذا استطعت، ربما كان هذا لازما لتشفى».

وقصت عليه الحكاية ولم تكتم شيئا ولم تحاول أن تهون من زلتها. وكان يصفى وهو مطرق، فلما فرغت قالت: «والآن يمكنك أن تبلغنى أنك دفنت حبك المبغاث لهذه الفتاة الطائشة».

قال: «لقد كنت ضحية ... ولست أدنى حبي لك، ولكنني أتمنى أن أعلنه، فهل تسمحين لي بأن أطمع أن تحببني يوماً من الأيام؟»؟
فأطربت تفكير، فقد أساءت فهم ما قصد إليه وتوهمت أنه يريدها كما أراد غيره، خليلاً ... وشعر هو من إطرافها أن معنى كلامه ليس واضحاً وشجعه ترددها الظاهر فقال: «إنني لا أرى أنني أستطيع أن أعيش بعد اليوم بدونك، فهل تقبليني زوجاً على أن تكون الطاعة مني والحب ... ولا يكون منك إلا ما يسمح بالأمل في أن تحببني يوماً ما؟»؟

فصاحت: «ولكنني أحبك من الآن!».
وندعهما ... فما بقى لنا مقام معهما.

الفصل التاسع عشر

حواء والحياة

رفعت «جليلة» رأسها قليلا عن الرمل، ونظرت إلى صدرها الذي يعلو ويهبط، وجدها الذي دبغته الشمس ثم مدت بصرها إلى ساقيها وإلى أصابعها التي عنيت بصبغ أظافرها، وابتسمت ابتسامة الرضى والاغتباط، ثم ردت رأسها وظللت راقدة وتركت الشمس تفعل فعلها في جسمها العارى من الصدر إلى الردفين ومن الساقين إلى الأخمصين وكانت هذه عادتها مذ جاءت إلى الإسكندرية.. تخرج كل صباح من الفندق في ثياب الاستحمام، فتلقى بنفسها في الماء في هذه الناحية المنعزلة وتسبح ما شاءت قريبا من الساحل، ثم تخرج إلى الرمل وترخى ما على صدرها من ثوب البحر وتعريه للشمس، لتفيد ما قيل لها أن أشعة الشمس تفيده من الصحة والعافية. ولم تكن تلقى أحدا في هذا المكان أو تخشى أن يتطلف عليه فيه مخلوق، لبعده وضيقه واحتاجاته وكثرة ما يحيط به من الصخور.

ولاحت زورقا شراعيا يشق الماء من بعيد فنهضت واتكأت على كوعها، وراحت تنتظر إليه تارة وإلى أظافر قدميها المصبوبة تارة أخرى ثم أرهفت أذنيها، فقد خيل إليها أنها سمعت صوتا يشبه صوت تكسر العود داسته قدم.. فنسست أظافرها وانظرحت على بطئها وعينها إلى الناحية التى تتأدى إليها منها الصوت، فما لبثت أن سمعت وقع أقدام – أو قدمين على الأصح – فما أسرع ما جلست على ركبتيها، ورفعت الثوب فغطت صدرها. وكانت أصابعها لا تزال تعمل فيه لتربطه، حين وقف أمامها رجل وسيم معتمل القامة حسن البزة عارى الرأس، فحدقت في وجهه.. فقد وقف مفتوح الفم وكأنما بهر جمالها ثم قال: «أرجو المغذرة».

فلم تقل جليلة شيئاً وظللت قائمة على ركبتيها تنظر إليه، فضحك فجأة وبلا مناسبة ظاهرة، ثم كف فجأة وقال: «أرجو المغذرة.. لكأنك حواء تصلي في الجنة».

فقالت بلهجة امترج فيها الغضب بالسرور المكبوح: «ماذا تعنى بحواء والجنة؟» قال: «من الاتفاق الغريب أن اسمى آدم، وقد كنت وأنا ماش أتوقع — أخشى في الحقيقة — أن ألقى حية ... ولكنى على التحقيق لم أكن أتوقع أن ألتقي بحواء». وضحك مرة أخرى، فقالت بحدة: «ليس اسمى حواء». فقال بابتسام: «هل لي إذن أن أسألك ما اسمك؟»

قالت: «كلا.. لن أخبرك» قال: «إذن سأسميك حواء فإنه أليق ما يكون.. وليت من يدرى هل كان لحواء بحر كهذا في الفردوس؟» ونظر إلى البحر، ولكنها ردته بقولها: «سمى ما شئت فإني راجعة إلى الفندق». وهمت بالنهوض، فقال: «سأرافك إلية فإني نازل فيه إذا كان هو هذا» وأشار إلى ناحيتها.

ولكنها لم تذهب، بل وقفت وقالت، وقد جنحت إلى العناد: «بل سأبقى هنا». فوافق الرجل بسرور وقال: «حسن جدا.. سأبقى أنا أيضا.. لأسليك وأونسك في وحديتك». فهزت جليلة كتفها هزه خفيه، وعادت إلى الرمل فجلست عليه، فجلس مثلها بشيابه الأنثقة وراح يجبل عينه في مفاتنها ... وكانت هي أيضا تتأمل كتفيه العريضتين ووجيه القسيم وشعره وساقيه المفتولين، ولا يبدو عليها أنها غير راضية عن وجوده وتطفله عليها في هذا المكان الذي كانت تظنه نائيا عن الخلق.

وسألها: «ماذا تصنعين هنا؟» فقالت باختصار: «كنت أتمشي». ولكنها رمت إليه ابتسامة ساحرة، فقال: «ولتكن كدت راقدة على الرمل، فهل هذه طريقة جديدة للمشي؟» قالت: «كنت أستحم». قال: «تستحمين؟ ولكن بينك وبين البحر أكثر من مائة متر».

فقالت بغضب: «ألا أستطيع أن أخذ حمام شمس إذا أردت؟» فقال: «أوه.. صحيح».

وهز رأسه ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: «حواء تأخذ حمام شمس، فيفاجئها آدم الذي كان يبحث عن الحياة ... أليس كذلك؟ ويفسد عليها حمامها ... معذرة مرة أخرى».

فتركت الاعتذار وسألته بلهفة: «آدم.. قل لي.. هل تخن أن هنا حيات؟» فقال: «لا أظن.. وماذا تصنع حتى الحياة هنا؟.. تأخذ حمام شمس هي أيضا؟» فضحك وقالت: «ألم تأخذ قط حمام شمس؟»

فكان يفهم. وقطب هنيهة وهو يحاول أن يهتدي إلى المعنى الذي أرادته ثم قال بابتسام: «كلا.. لم أفعل ذلك قط ... جربت كل نوع من الحمامات إلا هذا، والله فكرة». فصاحت به: «لم أكن أعنى هذا» وابتسمت على الرغم منها، ثم أردفت: «أنما أردت مجرد الاستفهام».

قال: «لقد كنت الآن في حمامك فقط عله عليك، أفلًا يمكن أن تستأنفيه من حيث انقطع؟»

فقالت: «ولكن هذا لا يمكن ... أعني لا يليق يا آدم. ربما كان هذا مألوفاً في الجنة. ولعلنا لو كنا في عصر قبل عصرنا هذا ببضعة قرون ... ولكن في هذه الأيام التي ليس فيها جنات ... كلا يا آدم». فسألها: «ولكن لماذا تحرمني نفسك ما تحبين؟» قالت: «قد يراني أحد». قال: «لا أحد هنا يراك». قالت بابتسام: «ألم تفاجئني أنت في الحمام؟» فلم يستطع أن يرد عليها وينقض حجتها وأطرق شيئاً، ثم تناول شعره وشده وصاح: «وجدتها ... استأنفى حمامك ... وأقعد أنا وراء هذه الصخرة ... أحرسك ... وأنبهك — عند الحاجة — إذا طرأ طارئ».

ولم ينتظر أن توافق بل نهض ووثب فوق الصخرة واختفى عنها. وصاح بها من ورائها: «ما قولك؟» قالت: «حسن. وإذا رأيت أو سمعت أحداً مقبلًا فنبهنى واسمع حاذر أن تنظر».

قال: «مستحيل» بلهجة من يعتقد أن هذا غير معقول ثم أردف: «لقد رأيت بما فيه الكفاية».

واستلقت مطمئنة وراحت تفكير في آدم القديم وآدم الحديث، وتتساءل: «أتراه سينظر من بين الصخور؟ وتهز كتفيها وتنتظر إلى ثدييها وتحدث نفسها أن لا بأس ... ولا خوف ... ثم إنه ظريف، فلينظر ... ألم ير ما فيه الكفاية كما قال؟

وكان آدم — على الجانب الآخر من الصخور — قد خلع الجاكيتة واتخذ منها وسادة لرأسه واستلقى على الرمل وذهب يفكر في هذا الجمال البارع الذي كتب له في يومه أن يراه، ويسأل نفسه: «أتراها تريده منه أن يبقى حيث هو.. أم هي ياترى تنتظر منه أن يكون جريئاً وأن يحور إلى طياع أجداده.. ماذا كان جده الأعلى خليقاً أن يصنع في مثل هذه الحالة؟ أكان يطيع المرأة التي لعلها تعنى خلاف ما تقول أم كان يطيع غرائزه ورغباته؟»

وأنه ليفكر في هذا وما إليه، وإذا بصرحة عالية.. فواثب إلى قدميه ونط فوق الصخرة وانحط عند جليلة وسألها: «ماذا جرى؟»

ولم يحتاج منها إلى جواب فقد كان حسنه ذلك الفزع الذي ارتسم على وجهها، فدار بعينه ينظر فما كان يسعها أن تقول شيئاً من فرط الجزع، فأبصر أفعى على نحو مترين منها.. فانقض عليها وتناولها من ذيلها وطوح بها فرمها بعيداً، ثم تناول يد الفتاة فأنهضها وهي لا تزال نصف عارية، ولكنها صاحت به: «لا تلمسىني... أوه لقد لمست يدي... ماذا أصنع الآن؟»

وانزعت يدها منه، ولكنها أبكتها بعيدة عنها لأنها ملوثة، فقال: «ماذا جرى؟ هل يدك؟»

وهبط قلبه في صدره، وابتعد الدم في عروقه وجدم، وجعل ينظر إليها وهو مفتوح الفم من الخوف الذي ساوره، فقالت: «لا تلمسىني.. أقول لك لا تلمسىني.. أنى أمقت الأفاعى».

فأدرك مرادها، واطمأن قلبه وتشهد، وهز رأسه مرتاحاً، ووسعه أن يبتسم وقال: «آه... هذا... لا بأس... سأذهب وألبس جاكتي وأعود إليك». فصرخت: «كلا. لا تتركني وحدي» قال: «إذن تعالى معى.. ثلبس جماعة».

وهم أن يتناول يدها ليعنينها على الصعود فوق الصخرة، ولكنها تراجعت عنه فقال: «لا بأس... أرانى صرت مثل المنبودين الهنود الذين لا يلمسهم أحد...».

فرقت له ولكنها قالت وهي تخطو إلى جانبه: «أظنك وضعت هذا الثعبان بيديك إلى جانبي عامداً». فقال: «كيف يمكن؟ لقد كنت راقداً في الناحية الأخرى».

قالت: «وأظنك كنت ستئام» فقال معتراضاً: «أى والله كاد النعاس يغلبني». قالت: «هذا أعن». قال: «ولكنك أمرتني أن أبقى هناك ولا أجيء».

قالت: «وتتركنى مع الثعبان؟ قال: «لا تكونى متعنتة». قالت: «لن أجيء إلى هنا بعد اليوم».

فقال بضحك: «انتهى فصل الحمامات الشمسية» قالت: «بل انتهى شهر العسل». فالتفت إليها وصاح بها: «إيه؟ شهر الـ...».

قالت: «نعم شهر العسل.. ألا تعرف ما هو.. أنا وزوجي هنا في الفندق وسنعود إلى القاهرة غداً... واسمع، إن زوجي غير جد.. أسرع ما يكون إنسان إلى إساءة الظن.. فاحذر.. أبق حكاية حواء والحياة بيني وبينك».

قال: «تعنين بيني وبين نفسى» قالت بابتسام: «لا.. سنتلقى يوماً...». قال: «متى؟.. طمئننى» قالت: «متى أيقنت أن يدك لم يبق بها أثر من الحياة...».

الفصل العشرون

العقلة

فملأ عبد صدره بالهواء ورفع عقيرته بأنكر ما سمع الطبيب في حياته، حتى لقد
لام نفسه على حماقته فيما أشار به. وبعد أن اضطرب لسان عبد قليلاً، انطلق يقول
بصوت شبيه بشهقة المصاب بالسعال الديكي إنه يريد أن يتزوج. ولكن هذه الحبسة
تقضى على أمله. وكان كلما أخرج صوتاً أحس الطبيب أن حجراً دفع في صدره، فما
ندر في حياته على نصيحة كما ندم في يومه هذا، فقد حمس عنده وظن نفسه في موقف

مناجاة، فمضى يغنى: «طول الليالي وناظيفك على بالي، ياللي غرامك ملك قلبي وشغل بالي، يا خوفي من طول بعادك واللي خبالي..».

فأسرع الطبيب يقول مقاطعاً: «تمام ... لم تكن بك في الحقيقة حاجة إلى إتعاب نفسك بهذا الغناء البديع. الآن اسمع: إن حالتك عصبية وأنت على ما يظهر شديد الحياة». فلم يرق عبده هذا التشخيص، وحاول أن يعترض، فحالت الحبسة دون ذلك ... فتذكر أن الغناء أسعفه كما لم يسعفه شيء فيما يذكر، فصاح يقول: «لا، لا، ليس بي حياء بل أنا قليل الحـ...».

وقاطعه الطبيب بدوره إشفاقاً على نفسه وعلى سمعة عيادته، وعجل بأن يقول: «طبعاً.. طبعاً.. والآن اسمع ولا تضيع وقتي. يجب أن تفهم أن علاجك الوحيد أن تجترئ على الناس بالكلام.. تعرفهم أو لا تعرفهم، سيان. والأفضل أن يكونوا ممن لا تعرف. ابدأ بالكلام كل من تلقاء إذا استطعت، بأى كلام ... وحبذا لو كلمت النساء فإذا فعلت هذا كل يوم، فأنت لا شك تشفى بعد حين».

فنفح عبده صدره استعداداً للاستفسار بالغناء، فربيع الطبيب منه وسد أذنيه وخاف أن تطير لعيادته سمعة سيئة، وصاح به: «للالا.. أبق صوتك الحلو لمن تقابل لا تسرف يا صاحبي» وأسرع فأدراه إلى الباب وأحكم إيهاده وراءه وتشهد.

وكانت عيادة الدكتور — ولعلها ما زالت — في العباسية فلما خرج عبده اتجه إلى آخر محطة الترام الأبيض إلى مصر الجديدة حيث بيت حاله، وكان وهو يمشي شارد الذهن موزع النفس، يفكر فيما أشار به الطبيب من ابتداء الناس بالكلام وإن كان لا يعرفهم. وكيف بالله يبدأ غريباً لا يعرفه بمثل هذه الأصوات: «مممن فففذلك السيسساعة كككككام». إن هذا مستحيل. وهذا الطبيب لا شك مجنون إنه طبيب مجاني لا طبيب ... مازا؟ أى طبيب هو؟ لقد أرشده إخوانه إليه أنه أخصائى في هذه الحالات، غير أنهم لم يقولوا أى حالات فهل تراهم حسبوه؟ ولكن هذا غير معقول وكان قد بلغ المحطة وراح يتمشى ريثما يجيء الترام، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، ولم تكن المصايخ التي رفعتها شركة النور سبعة أمتار فوق الرءوس إلا كالنجوم التي لا تنتير، وأنما تريك كيف تكون العتمة، وكيف تغيّب معارف الأرض، وكيف تستطيع أن تظن الرجل شجرة ومصباح النور فتاة هيفاء، والظل على الأرض ماء يحسن أن تتقى بلله وتلوثه للحذاء الجميل. وإنه كذلك، وإذا به يرى رجلاً عجيب الثياب مقبلاً يتمشى مثله، فوقف مكانه مبهوتاً. وكان الرجل لابساً جلبابة قد يصلح أن يكون كلة

فقال الرجل: «لا عجب أن تتلعثم في حضرة إلهك، فما كل يوم يظهر الله للناس. لا تقل لأحد أنكرأيتني، فإنني أحب أن أظهر لخلوقاتي في السر». فحنى عبده رأسه مرات عديدة بسرعة لم يكن يدرى أنه قادر عليها أو أن رأسه يحتملها، ومضى الرجل في كلامه فقال: «أنت من أحسن من خلقت. وإنني لأذكر أنني أردت أن أخلق من طينتك بغلاء، ولكن شيئاً ألهمني أن أجعل منك إنساناً ... وقد ندمت على ذلك ولكنني أرى الآن أنني لم أخطئ، فاطلب ما تشاء. هل تريدين مالاً؟ أو تريدين غير المال؟ سلني فليس في بخل ... عندي من الحب كل صف يورث الجنون ويضرم النار هنا — ودفع كوعه في بطنه — حتى لتحرق الصدرية وتزغرد من فوقها. وعندى من الحب ما يجعل منك شاعراً، وثالث تصير به خطيباً، ورابع يغريك بالخيالات ويحبب إليك احتضان أعمدة السرير، فأليها تريدين؟ تعال هنا ... بعيداً عن الناس ... في هذا الكشك ولنغلقه علينا، فإني أرى التزام آتنا وأخشى أن يرانا أحد فلا يظفر بنصيبي العادل من وجودي».

وأمسكه من ذراعه وجعل يدفعه أو يقوده، فقد كان عبده بادي الزهد في هذه الخلوة ... ولما بلغا الباب كان الترام قد وصل فاندفع الرجل داخلاً، واندفع عبده راجعاً، وواثب إلى الترام فدخل في الدرجة الأولى وانحط على كرسي وهو ينهرج ويمسح العرق المتتصيب. وكانت أمامه سيدة تتنظر إليه، وهو غير شاعر بها. وكان بتنهد وبتشهد وبث

من حين إلى آخر، لينظر من النافذة مخافة أن يكون ذلك الجنون قد لحق به. وكان الترام قد قطع شوطاً كبيراً، فهدأت نفسه شيئاً فشيئاً وأبصر السيدة.. وكان الترام لم يقف بعد أن ركبه فلا شك أنها كانت من أول الأمر هنا معه. وتذكر أنه دخل كالملدف وانحط على المقعد كالحجر وأنه لا شك قد بدر منه ما يريب، فأراد أن يفسر ما لعلها استغرت به من سلوكه ... غير أن دخول الكمسارى قطع عليه عزمه، وكان الكمسارى ثرثراً فجعل يقول وهو يتناول القرش ويقدم التذكرة: «جنون هرب من المستشفى..» وجدوه في محطة العباسية. في آخر محطة وقفنا فيها، لكنه اختفى بسرعة غريبة. من يعرف يمكنه يكون ركب الترام. لكن هذا مستحيل ... ومع ذلك أين اختفى؟ ليس في المحطة مكان يختبئ فيه.. لابد أن يكون ركب الترام».

وكان عبده حين سمع ذلك قد ذعر وفتح فمه كالأبله.. وكانت السيدة تنظر إليه وتسمع حديث الكمسارى ثم تنظر إلى عبده، وترى آيات الفزع في وجهه. وخرج الكمسارى إلى حيث الركاب الآخرون وأحس عبده أن عليه أن يقول شيئاً، ولو على سبيل التفكهة والتسلية وليخفف عن هذه السيدة التي لا شك أنها ریعت من حديث الكمسارى، ولا سيما أنه – أى عبده – الوحيد الذي يعرف أين اختفى الجنون – وهذا العلم وحده يغري بالكلام. ولكن لسانه خانه على عادته فقال – على حين لم تكن تنتظر كلاماً: «أَلَّا أَنَا شَفِيفٌ».

وأنمسك، فما في مثل هذا فائدة، وتذكر أن الطبيب قال له: «غن». فرفع صوته يقول مغنياً: «الجنون يا ستي الذي سمعت عنه مختبئ في الكشك هناك».

ولم تتح له فرصة لإتمام ما بدا.. فقد وقفت السيدة وانطلقت تصرخ بأعلى صوتها وتصيح: «أدركونى.. أدركونى.. الحقوا..».

وكان الترام قد بلغ محطة وقف عندها، فلم يسع عبده إلا أن ينزل مسرعاً ... فما بقى له مقام في هذا الترام وإنما قبضوا عليه على أنه الجنون الها رب، وانطلق يعدو. وأخيراً بلغ البيت وقابل – أول من قابل – بنت خاله، فأدهشه وأدهشها أن الحبسة زالت عنه.

